قصص

حيطان عالية

إدوار الخراط



إدوار الخراط

حيطان عالية

مجموعة قصص

إهداء

إلى حبيبتي ... زوجتي ... فهي التي تعطي حياتي معناها. ولولاها ما كان من الممكن أن يظهر هذا الكتاب.

إدوار

١٩٥٩ ـ ١٩٩٠

حيطان عالية

وقف على الباب، في الطريق الضيقة بين مخازن القطن. ومزقة من سماء الغروب الباهتة معلقة من فوقه، من بعيد.

كان قد حيى زملاءه الذين انصرفوا من قبل إلى شؤونهم. وكأنه يتردد إذ يترك يومه الطويل الممل من الكتابة في دفاتر حسابات المخزن، ويهم بالعودة، وخطواته تنقله من حياة إلى حياة.

وضاع في سيل من الناس يهرولون في الطريق التي تجري إلى جانبها ترعة المحمودية، والمخازن تقفل أبوابها وخفراؤها يتحققون الأقفال، ويتحدثون في كسل، ويحسون الليل لما يكد يبدأ.

وسحابة مقطعة تترك ذيلها المحمر على كوبري القباري، وعربات الترام تصلصل في الشارع بين سيارات النقل المسرعة المكومة بالقطن، والكوبري يبدو من بعيد لعبة من الحديد الرقيق تضطرب فوقها الناس والعربات، دون معنى.

وقف ينتظر الترام، في حشد من العمال وصغار الناس، وجوههم قاتمة مربدة تضيئها لمعة عابرة إذ يتركون عمل يومهم ويعودون ينشدون شيئًا من نسيان أو شيئًا من حياة.

وأحس الميدان تملؤه العربات والدبدبة وطنين الناس، والسماء تتسع فجأة فوقه فإذا هي فسيحة براح يخامرها ضوء آخر النهار، وأحس وحدته في هذا الغمار تنفتح في داخله كحفرة، لأنه يعود إلى بيته، ولكنه لا ينتظر. شيئًا. فهناك امرأته تقف أمام موقد الجاز في المطبخ، وسائر الغرف مظلمة مقفلة، وبنته في غرفة النوم - مريضة. وفي البيت خمود وملال رازح. لكن نفسه لا تنزع به مع ذلك إلى القهوة ولا إلى أصحابه فيها. وهو الليلة لا يكاد يطيق شيئًا. يعود إذن يقرأ الجريدة ويتعشى وينام، فهو قد ضاق بيومه كله، ويود لو انتهى منه سريعا. بل ضاق بكل شيء، وقلبه ينقبض من الضجر والقهر كأنه أضاع شيئًا عزيزا عليه، أضاعه بلا رجعة.

ومد للكمساري قرشًا فوق أكتاف الناس، والترام مندفع يهتز، يقطع الشارع الطويل، ونسي نفسه لحظة، في

زحمة الأجسام المتعبة يفوح منها في الحيز الضيق صـنان العرق وشغل النهار.

وهو يخبط على الباب ولا يرد عليه أحد.

فخبط في شدة وضيق. وألقى بالتحية إلـى امرأتـه وسأل عن البنت، فأجابته باقتضاب:

ـ كويسة.

ـ نايمة ولا إيه

ـ مش عارفه، أهي في السرير.

وجلس على حرف السرير. وطالعه من العتمة وجه بنته، أسمر منحوفًا، مشتت الشعر ضئيلاً، هذا الوجه الصابح الغض وقد تهضمه المرض ونشف ماؤه، وعيناها الكبيرتـان تقفان عليه، في تساؤل. كأنها حيرانة، لا تفهم. وعلى جبهتها المدورة ندى خفيف من العرق. فوضع ذراعه حـول كتفهـا الصغيرة وهو ينحني عليها، وقد در قلبه بالتحنن، كأنه يعتذر لها من صحته.

وسألها هل أكلتْ وماذا تحس الآن؟

ولم تكن هذه الغرفة بالذات مضاءة، فأسلاك النور متعطلة فيها، ولم يتح له أبدا القليل من الفراغ، ولا القليل من النقود، حتى يصلحها.

وامرأته تأتي فتقف بالباب هنيهة، ثوبها قديم ينحسر عن بضعة من صدرها الصغير المرتخي. وإذا اندلاعة من حبه القديم تحرق صدره فجأة.

وقد انقضت خمس سنوات منذ تزوجها، لكنه لم يستطع أبدا أن يستقر إلى حبها. أهي تحبه، هذه المرأة التي تزوجها والتي تقف بالباب، وثوبها الذي كاد يبلى يلف جسمها الصغير الناعم، جسمها اللدن الضيق؟ إنه يعرفه على الأقل، هذا الجسم. يعرف طراوته الغضة، وجلدته المرهفة الحريرية، يعرف رجفته إذ يستجيب له، وحرارته وتقبضه بالنشوة، ويعرف ملاسته واستكانته ووداعته تحت أصابعه الملاطفة، ويعرف برده إذ يكون جائعا إلى الحنو، وجائعا إلى رجولته، ونداءه الخائف، من غير صوت. ويعرف نفرته أيضا ورفضه، وانكماشه وانزواءه كحيوان خجول وحشي يدفع عن نفسه، ويقفل أبوابه على ظلامه الداخلي. نعم يعرفه، جسمها، لكنه لا يعرف أبدا ما سر الهوى الذي يعيش

في هذا الجسم، أهناك هوى، على الإطلاق، يعيش فيه شيء يشبه، ولو من بعيد، هذا الحريق الذي يأكل نفسه الآن، سعر من التوق إلى الزمالة وإلى الفهم، ونار تشتعل مـن نسـيج النفس وحدها، لا صلة لها بالدماء، حريق من حسه بالوحدة، بأنه مرمي وحده، في عزلة نهائية، دون أمل في النجاة.

وهو إنما يطلب من حبه أن تتهدم فيه أسـوار هـذه الوحدة، ويمضه شعوره أن لا جدوى هناك، فامرأته صامتة وغريبة، أجنبية. وهو وحيد أبدا، وهو يهم أحيانًا أن يهتـف بها أن يزعق فيها، لكي تكلمه، لكي تقترب منه، لكي تمد إليه يدها، تفعل شيئًا، أي شيء، يشعره أنه ليس غريبا، هو، ليس شيئًا، هو، ليس آتيا من مكان آخر غير معروف، ليس منفيا ملقى به في العراء، إنه في النهاية ليس وحده، وحده، وحـده مقضيا عليه دون خلاص بهذه الوحدة التي لا تطاق.

لكنه لا يجد مقدرة أن يهتف بها، بل أن يهمس لهـا. ويشعر فجأة أن لا طريق إليها، فهي في معزل، لا تنال، ويده لن تطولها قط. وحبه لها يأكل نسج نفسـه، لأنـه يـود أن يطويها بين ذراعيه، أن يأخذها إلى حضنه قريبـة حميمـة

كأنها بضعة من قلبه ولحمه، كأنها تنبض في داخله، ويعرف أن لا سبيل، وترمضه معرفته.

وسوف يدوسه القهر، لأنه في كل مرة يعود محبطًا. ومهما عصرها في لياليه ودعك لحمها إليه، فهي أخرى ما تزال، غريبة، بعيدة، منفصلة. وهذا الشوق جائع أبدا لن يعرف الرضا. هذا الشوق الذي لا يعرف أن يسميه، لكنه هناك لا يتبدد، لا ينحل.

وهاهي ذي تقف بالباب، وحول عينيها حلقات سوداء من التعب والهم، لعلها هي أيضا أن تعرف معنى الوحشة في هذا البيت، موقد الجاز يفح، وأسلاك النور معطلة، وبنتها مريضة. وهي محبوسة بين هذه الحيطان. لا يدري، فحتى وحشتها صامتة، غريبة عنه، لا صلة لها به. وامرأته لا تعرف أن تتكلم، أن تعطي لنفسها أصواتًا، بل لا تعرف أن تعبر عن نفسها بشيء آخر غير الكلام مسدودة تماما، كأن نفسها لم تولد أبدا وظلت برعما خشنًا خامًا مغلقًا على عصاراته الكثيفة، لن ينفتح.

ـ أحضر لك العشاء؟

ـ عندنا إيه؟

- بطاطس ورز.

بطاطس ورز، من طبيخ الأمس. هذا الأكـل الـذي تقدمه له، معجونًا دائما لزجا في الزيت والدمعة. قوام حياته التي ألف طعمها الآن. وهو متعب فجأة مهدود، ولا شهوة له لشيء. لكن فراغًا في أحشائه عليه أن يملأه بهـذا العجـين المطبوخ، دأبه كل ليلة.

ووضعت له طبقين على السفرة القديمـة المغطـاة بمفرش أبيض حائل مبقع، وسمعها تعود تتحرك في المطبخ من جديد، أمام موقد الجاز.

- مش حتيجي تتعشي معايا

وجاءه ردها من المطبخ، وهي تغسـل شـيئًا فـي الحوض:

- ماليش نفس دلوقت، يمكن آكل بعدين. باعمل لك الشاي، عايز شاي؟

- آه ...

من فم ممتلئ

وأخذ يحسو شايه الثقيل المسـود، وينفـث دخـان سيجارته الهوليود اللاذعة وفمه يعود إلى إلـف إحساسـات

المساء العادية، يتطعم البطاطس والشاي الخشن المر ودخان الهوليود على لسانه، لا لذة فيها إلا متعـة العـادة القديمـة. وسمع بنته تكح من عتمة غرفة النوم، كحة مؤسية وهنانـة تهتز بجمسها السخن الملقى على الفـرش. وغشـاء العـالم يضيق حوله وينقبض به، والبيت كالسجن لا حول له فيه ولا يد له في شيء.

ـ البنت خدت الدوا؟

وامرأته تجيبه، ولهجتها تشي بالمرارة، نعم، ومـع ذلك فها هي كما ترى سخنة، ضعيفة، تكح.

وهي تأتي من المطبخ تجفف يديها في فوطة مشعثة، وقد وقعت خصلة من شعرها الأسود اللامـع علـى جانـب جبهتها. وانبثقت في داخله فجأة شهوة أن يأخذ هذا الوجه بين يديه، فيغمض عينيها بفمه على ما فيهما من عتـاب، ويمـر براحتيه على هذين الخدين فيمحو، برقـة، خطـوط الخيبـة والمرارة التي رآها على صفحة الوجنتين، أن يحتوي ذقنهـا بين كفيه، وأن يدفن رأسه ووجهه جنب عنقها، فـي تسـليم وضراعة لأن تعفو، فما بوسعه شيء، كأنه حبيـب صـغير مخيب الأمل.

لكنه ظل على كرسيه، تشعفه شهوته ولا يفعل شيئًا. غريبة هذه الاندلاعات، كأنهما لم يتزوجا منذ خمس سنوات، كأن يديه لم تعرفا بعد لمسة خديها ولا ملاسة جسمها كله، ولا خصب شعرها الناعم الهين بين أصابعه، كأنه يشتهيها لأول مرة. وترك رغبته تمضي، غير متحققة. شيء ما في هذا الوجه المتعب المغلق يحبطه ويصده، شيء يبعدها عنه. وهو يوجس منها، كأن في نفسه دبيبا لا يكاد يستبين من حسه بإثم ما، بذنب غير محدد.

وحفزه شيء فاختطف سترته وهب متجها بسرعة إلى الباب، وهو يقول:

- أنا رايح القهوة شوية. يمكن أتأخر بالليل.

صدمه هواء الليل، والشوارع المزدحمة الضيقة بأنوارها الكثيرة تومئ إليه وتبرق، وتغمز في داخله فتحات حساسة، كما لو كانت الأنوار وخزات تغمز الجلد الملتهب المشدود على جروح ضاربة مفتوحة. والترام يجري في الشارع مليئًا بالناس. والباعة والعساكر والسيارات تقبض على هامش وعيه بأصواتها، لكنها ترميه بعيدا، إلى بعد آخر من أبعاد غربته.

ودار بنظره في القهوة فلم يجد أحدا من أصحابه، وهبط ثقل جديد بقلبه. ألن يجد أحدا يلعب معه الليلة هذه الليلة ... لكنه لن يطيق الجلوس هنا وحده بين الناس. لن يطيق. لن يحتمل.

وانفرجت ضيقته فقد وجد شخصا يعرفه هناك، ليس صديقًا بالتأكيد لكنه يعرف هذا الوجه. فقط نسي اسمه. هذا الوجه مألوف إليه، بل مألوف جدا كأنه يراه كل يوم. لكنه لا يتذكره مع ذلك. هذا الشعر الأكرت وهذه النظارات على عينين صغيرتين مطفأتين، والجبهة الضيقة والذقن المنحدر إلى الوراء.

وإذا هذا الوجه القشف العنيد الجهم يبتسم له فجأة، ويقوم إليه يحييه، فاتجه إليه مترددا، يرد التحية.

ثم يقف مرة واحدة، وقد تقبضت المفاجأة بقلبه وأحس ركبتيه تكادان تتخلعان به. هذا الوجه وجهه، وجهه هو. كأنه يرى نفسه خارجا من المرآة، بل من صورة فوتوغرافية مجسمة حية إطارها عرض الحياة نفسه.

وتوقف ذهنه، وأحس أنه لم يعد يفهم شيئًا، ولم يعد يهتم.

لكن الآخر دعاه إليه وسلم عليه، وفي عينيه بريـق خبيث، كأنه، هو، يفهم. والناس حولهمـا يلعبـون الطاولـة ويدخنون ويلغطون ويجلسون على كراسـيهم فـي خمـول، ينظرون إلى الشارع والترام والبنات. كأن شيئًا لم يحـدث. كأنهم هم أيضا لا يجدون في الأمر غرابة، ولا ينكرون شيئًا أبدا، على الإطلاق.

والجرسون يأتي، والآخر يطلب فنجاني قهوة علـى الريحة، وطاولة. كـذا. دون سـؤال. دون تـردد. كأنهمـا صديقان قديمان. وهو لم يتكلم بعد، وقد عقلت المسألة كلهـا لسانه، لكن الآخر يسأل عن صحته وكيف الحال فيرد عليه بشكل آلي، وذهنه غائب، وهو يحس ألفة به، كأنه لم يتركـه إلا بالأمس فقط. كأنهما يريان أحدهما الآخـر كـل يـوم، ويعرفان أحدهما الآخر منذ الطفولة، وقد تكلما في كل شيء، وعرف أحدهما الآخر ظهرا لبطن، ولم يعد لـديهما جديـد يقولانه، فلم تبق إلا الطاولة. نوع من الألفة الوثيقة الحميمـة تربط بينهما، معرفة الشخص لنفسه.

لكنهما الليلة يلعبان الطاولة على شـيء لـه أهميـة وخطر. والحماس يرتفع في صدره الآن، ويشعره بحمو جديد

غير مألوف. لا بد أن يغلبه الليلة، هذا الآخر مصيره كلـه، بشكل غامض، معلق بعلبته الليلة. لابد، لابد أن يظهر عليه، أن يغلبه غلبة نهائية، حاسمة، باهرة. والآخر ينظر إليه مـن وراء نظارته، وهذه اللمعة تضيء عينيه، فهو يعرف أهميـة اللعبة، لكنه واثق من نفسه، كل الثقة، هذا الآخر.

وغاظته هذه الثقة من الآخر، وأوغرت صدره، فهو يعكف على اللعب في يقظة ودقة وحرص، وينسـى القهـوة والبيت والشغل، ويفقد الشارع والناس، ولا يبقى أمامـه إلا الأقراص تدور وتنتقل وتخبط خشب الطاولة، تخطط مصيره في حسابها الدقيق. ويداه ترميان النرد وعيناه تتعلقـان بـه وذهنه يعمل في نور سخن صاف. وهما يترامقان بنظـرات خاطفة وليس بينهما إلا حساب الطاولة يتتابع ويدور سجالاً. وفي داخله حس بالعداوة لهذا الآخر الذي يحمل وجهـه بـل يحمل نفسه أيضا. عداوة وغربة ومقت. وهما يعرفان أحدهما الآخر حتى نبضة الدم في غور الشرايين، لكنهما منفصلان، وجسمه يقف بينهما، حائطًا من الحجر لا ثغرة فيـه، مغلقًـا على سره. حائطًا لن تنفتح فيه فجوة. وحياته تدور من داخل

الحيطان، حياته بأسرها شيء خاص لا يهتم بـه أحـد فـي الخارج، ولا يعني أحدا، ولا هذا الغير.

هذا الغريب الذي يعرف ذلك كلـه، ولا يوليـه أي اهتمام. بل بارد وقاح، يلعب مالكًا زمام أمره، في هدوء من يعرف أن الكلمة الأخيرة له.

وسأله الآخر فجأة:

ـ إزاي البنت النهار ده ؟

فوقفت يده فجأة وبرق فيه عينيه، في موجدة. كأنـه يكايده هذا الآخر، ويساتره العداوة. يسأله عن بنته المريضة كمن يتابع أخبارها يوما بيوم، ويسأله بكل هـذه اللامبـالاة. وأخذت عينه رفوف القهوة وقد رصـت عليهـا الأكـواب والفناجين وأوعية الشيشة النظيفة، صفًا فوق صف، والصبي يعمل في جد بين مواقد الجاز، بلا تعب، والجرسون يصـيح من بعيد واحد مضبوط واتنين سحاب عنـدك، وعـاد يهـم بمواصلة اللعب لولا أن شلته المباغتة، دفعة واحدة، وأحـس الأرض تميد من تحته، والقهوة والناس في مقاعدهم تتألـب عليه، كهزة من موج ثقيل، وخسأ بصره بالرغم منـه، دون أن يتحكم فيه، ثم عاد ينظر، مشدودا إلى النظر بقوة لا تدفع.

لم يكد يصدق عينيه. لكنها هناك. لا شك في ذلك. وهـو لا يحلم، لا يهذي، بل يرى بعينيه. والناس أيضا يرونهـا، دون اهتمام، ثم يعودون لشؤونهم، كأنها لا هي بالجديدة عليهم ولا شيء غريبا في الأمر كله. وعاد يختلس نظرة إلى الآخر فإذا هو قد أشعل سيجارة هوليود وأخذ ينفث دخانها وهو ينظـر إليه، في هدوء، كأن الأمر لا يعنيه، بل لا يعني أحدا. وهـو يقول مشيرا إليها، في ركن القهوة، تحت صفوف الأكـواب والفناجين وأوعية الشيشة المرصوصة، جنب مواقد الجـاز: بنته، على سريرها، تحت العيون جميعا، مكشوفة في وسـط الناس.

ـ لسه تعبانه برضه. معاش بكره تصحى.

والجرسون يدور من جانبها، يؤدي عمله ولا يكـاد يلتفت إليها، وهي عريانة، يلقي إليها بنظرة لا مبالية، وهـو يطأ جانبا من ملاءة السرير البيضاء التي تقع مـن حـرف الفراش على بلاط القهوة، كأنها هناك من زمن طويل.

والأمر على ذلك غريب، غريب، لا يصدق، جنوني. لكنها هناك. هاهي ذي. ليس هناك تخييل ولا هذيان، وهـو صاح كل الصحوة، وكل شيء حوله مجسم ملموس. وبـاب

القهوة مفتوح على الشارع، مفتوح علـى النـور والزحمـة والضجة بالخارج، والترام مليء يجري بالنـاس. والمـارة والركاب يستطيعون أن يروهـا علـى سـريرها. والباعـة والعساكر يروحون ويغدون، والبنت على فرشـتها، تحـت الضوء القاسي، بين ضبابات الدخان، بجسمها النحيل الضيق الطفلي، وقد التصقت خصلة من شعرها الخفيـف بجبهتهـا المدورة المنداة من العرق، وعيناها تتجهان إليه، من عريهـا التام، في حيرة من الألم والمرض، عارية منهوكـة ملقـاة، ذراعاها ممددتان إلى جانبهـا، لا حيـاة فيهمـا، وسـاقاها الطفليتان الطويلتان لا شيء يغطيهما، وقد برزت ركبتاها في جفاف، وعضلات فخذيها ضامرة نحيلة، وضلوعها وعظـام جنبيها ناتئة واضحة، من الهـزال، تحـت الجلـد الباهـت المشدود، وباب القهوة مفتوح مع ذلك على أنوار الشـارع، والناس مشغولون بلعـبهم وتـدخينهم وحـديثهم، يلغطـون ويتثاءبون من ملل قعدتهم الطويلة.

وأحس خدرا في جسمه يشله عن الحركـة. النـاس كلهم يقبلون هذا الأمر ثم يشغلون عنه، في غير اهتمام. وهو

أيضا، بشكل لا يصدق، كأنه يعيش في العالم، ولا يعيش فيه، يقبله، ويسلم به، في غير يقين.

والآخر يرمي النرد، وهو لما يكـد يتوقـف لحظـة واحدة.

واستمرت اللعبة على بعد خطوات من السرير الذي ينْصب عليه النور الخشن، وعلى تلك الجثة العاريـة الحيـة تحدق إليه بعينيها الوادعتين البريئتين، لا استغراب فيهما ولا قلق، بل حيرة من الوجع وتساؤل صابر معلق.

والآخر تلمع عيناه في ثقة.

لكنه أيضا قد تجمد في نفسه العزم علـى النصـر، وتحجرت إرادته في عناد، وهو يشعر بالخطر يحدق به من كل ناحية، من هذا الوجه الذي يعرفه، لكنـه نسـي اسـمه، وهذه القهوة بموائدها التي يستلقي بينها سرير بنته المريضة، كأن البنت، بشكل غير واضح، غير واضح أبدا، موضـوع لعبته الليلة، الأمر يتعلق بها بشكل أو آخر.

واندلعت في نفسه شهوة لأن يحـيط هـذا الصـدر الضيق الناحل، صدر بنته الطفلي لما تكد تنبثق في حلمتيـه الصغيرتين عصارة المراهقة الخام، يحيطه بذراعيه ويـدفن

رأسه فيه، كأن فيها شيئًا من امرأته التي تركها بالبيت من زمن طويل، وأن يرتمي عليها فيخفيها عن هذا العالم في عتمة حبه لها، أن يهب لهذا الجسم العاري المريض صحته وقوته، وحياته كلها، أن يكفر، نعم يكفر بكل ماء حياته عن ذنبه الذي لا يعرفه الآن، ولا وقت لديه يفكر فيه، ولكنه مسؤول بشكل ما عن مرضها وانكشافها للضوء الصلب الجاف الذي يسقط عليها بكل ثقله فيطؤها وينوء بها، ويشلها. وتلج به رغبته أن يستغفرها، بنته، أن يبكي على حرف سريرها، على طرف قدميها الصغيرتين البارزة عظامهما في نحول رقيق، وأن يبرها ويعوضها، بل يضحي بنفسه من أجلها، نعم يضحي بنفسه، فهذا هو المطلوب منه. لا أكثر ولا أقل، حتى تأنس من هذه الحيرة التي تطل من عينيها، حتى تستريح، وتتغطى، وتبتسم.

لكن الناس ينظرون إليها كما لو كانت شيئًا قد ألفوا رؤيته، ويستمرون في شأنهم. وهو يشعر بما يقهره على استئناف لعبته، فها هو الآخر ينتظره ويلعب معه كأن الأمر كله غير مسل على الإطلاق، فليس هناك نصر ولا غلبة. واللعبة دائرة.

وكان الليل هادئًا وهو يرجع إلى البيـت، والنجـوم ترمقه من بين سطوح المنازل، والحيطان ترتفع على جانبيه، صامته في كِبرٍ، والأنوار قد انطفأت في النوافذ، والأحجـار مقفلة على الحيوات التي تنبض وتـنعس وتمـور خلفهـا، مسدودة، مصمتة. والتعب يتفتر بجسمه، ولا هدنـة هنـاك، وإنما هو الشوق ينزع به إلى الدفء يتلمسه من جسم امرأته في الليل، حتى الصباح، وقد عاد لا يدفعه إلا الرهق، حتـى يأوي إلى قطعة من الأرض ألفها، ويؤوب إلى حضن أنثـاه، ينشد ليلة راحة، حتى الصباح.

أمام البحر

لا فائدة. في كل مرة يدخل فيها هذا البيت، آتياً مـن ناحية البحر من خلال الأزقة الضيقة الملتوية، ويتجاوز هذا الباب الخشبي القديم، تصدمه زهومة السلم المظلم الضـيق. رائحة من حياة الناس وطبيخهم ونومهم ونسـلهم ووسـخهم المتراكم طول السنين. رائحة لا تنجاب أبـدا، معلقـة فـي سحابات رازحة راكدة حول خشب الدرابزين بلمعته القاتمـة من طول ما تلمسته الأيادي متلبثة على الحائط الحجري الذي تساقط طلاؤه وتركت عليه أجيـال متعاقبـة مـن الأطفـال تخطيطاتها الصبيانية وعباراتها البذيئة التي لا تكاد تسـتبين في العتمة.

وهو يصعد درجات السلم في بطء، يسـمع مواقـد الجاز تفح من خلف الأبواب، وأصوات الأمهات المجهـدات يدعين على الأولاد الذين لا يهدءون أبدا، وتقـرع، وتشـتم، وتلعن الأيام السود.

حيوات مزدحمة مليئة، ما نصيبه منهاـ هو؟ إنـه يصعد إلى غرفته الموحشة على السـطح، إلـى الجـدران

الصماء التي تحيط بأيامه، تحدق بوحدته، وتحدد فراغ حياته. لا زوجة ولا أم. وعليه أن يعد عشاءه بنفسه كل ليلة. وقد ضجر بذلك كله. نعم. لقد آن أن يترك ذلك كله، وسوف يتركه من الغد، يتركه، نعم، لكي يجده مرة أخرى، ويستأنف الحياة نفسها في غرفة أخرى على السطح، موحشة، في بلد آخر. عليه أن ينفذ أمر النقل من باكر. ويبحث من الغد عن غرفة أخرى في دمنهور، ينقل إليها مكتبه المتداعي، وسريره القديم، والمائدة التي يطبخ عليها، وبضع أدوات له وكراسي، كل موضوعات حياته. ومن الغد يبدأ تصحيح كراسات أخرى، يسودها تلاميذ جدد، بتمرينات الحساب. ويشرح جدول الضرب والقسمة المطولة، وتحويل الأرادب إلى كيلات والفدادين إلى قراريط.

ونوسة، كلبته؟

كم تحيره هذه المشكلة. ماذا يفعل بها لن ينقلها معه. واضح تماما أنه لا يستطيع أن ينقلها معه. كان الأمر يبدو له جليا، نهائيا. عليه من الغد أن يبدأ حياة جديدة، وعلاقات جديدة. لن يستطيع أن يحيا طول العمر على هذا النحو، وحيدا، مع هذه الكلبة. من الغد صفحة جديدة. أولاً يعرف

كيف يظفر باحترام الأولاد. نعم. لن يضطرب منه الأمر في الفصل، من غد، لن يفلت منه النظام، وسوف يبدأ في دراسة الرياضيات العليا. منذ سنوات وهو يتحين هذه الفرصة. ولا شيء الآن يقف أمامه، لقد عقد عزمـه. ويقـوم بتمريـنـات رياضية أيضا، كل صباح. خمس دقائق أولاً ثم عشر ثم ربع ساعة، بانتظام، كل يوم. ويعنَى بهندامه، أكثر من الآن. حقًا، هذه فضيحة. كيف قبل حتى الآن أن يرضى بهـذا الهنـدام الزري ... وسوف يبحث عن عروسة.

ما المانع وخفق قلبه. سوف يهتم بهذا الأمر، فـي حيطة وحرص وذوق بالطبع، وبعد أن تمضـي فتـرة مـن الزمن في البلد الجديد، ودون أن يثير ضجة كبيـرة. يكلـف خاطبة بالبحث عن زوجة أمينة، طيبة، طيعة. ليس ضروريا أن تكون باهرة الجمال. ليس من الضـروري أبـدا، بـل لا داعي أن تكون جميلة جدا. وهـو لا يريـدها غنيـة علـى الإطلاق. أبدا. وإنما مخلصة بنت أصل. بغض النظر عـن الجمال. لا يهمه أن تكون جميلة، ولكن هادئة الطبع، تُعنَـى به، وببيته.

وكان ينهج قليلاً عندما وصل إلــى بــاب الســطح. وسمع نباح نوسة من خلف الباب، وهي تتواثــب بالحيويــة. مشحونة أبدا بالانفعال. وأطلقت الكلبة نبحات قصيرة خافتة، وهي تدفن نفسها بين رجليه. وتمسح جسمها بساقيه في شوق وخضوع. كأنها تهب له كل إخلاصها وولائها، دون تحفــظ. وانحنى يمسح شعرها الأبيض الناعم وأحس بين يديه بجسمها الحيواني الذي يتلوى في فرحها بمقدمه. وشعر بــين كفيــه بحرارتها الصريحة التي لا لبس فيها وهي تموء وتئيط وتهز كأنها تتألم من فرط ترحيبها به، وترفع إليه عينيهــا اللتــين تسيلان وتشتعلان بلمعة بين ذراعيه، كأنها تريد أن تفنى فيه، ولا تعود شيئًا منفصلاً عنه.

وشم البحر يصعد نفسه البليلي من بعيد، وسرى إليه توفزها بالنشاط والخفة، فأخذ يداعبها ويضــربها ضــربات خفيفة بجمع يده على فمها وقد ارتسمت على شفتيه ابتســامة صغيرة شاردة جامدة، وفي عينيه نظرة غريبة.

وشعرت نوسة بانفعال سيدها فلم تكد تطيق نفسها من البهجة وهيجان الحركة فهي تنبح وتنهج وتتقــزز وتجــري منفاة عنه في خطوات سريعة ضيقة ثم تعود مندفعة تقــذف

بنفسها عليه، بكل عنفها المتوثب، وتعـض يديـه عضـات صغيرة بأسنانها المنداة بريقها الخفيف، وتمسح جنب وجهها في كفيه كأنها تسترحمه وتتضرع إليه في أنين خفيض.

وعليه مع ذلك أن يتخلص منها.

وهو يضربها ضربات أخذت تكتسب شيئًا من القسوة والشدة، ويزداد فرح الكلبة بهذه القسوة منه.

ثم اعتدل، واتجه إلى سور السطح المنخفض، وليس في نفسه شهوة للطعام وليس به من مقدرة علـى أن يعـده لنفسه أيضا، وأطل على الشارع الضيق في الليل. والسـماء فوقه متربة منيرة بالنجوم، ونصف قمر منسي فـي طـرف منها، بريق ضوءه على سطوح البيوت المكومة التي تنهـار عليها أطراف السماء المكسورة. وعلامات النيون تحترق من بعيد، في ثبات، كأنها لهفة لا تنطفئ.

فدعاها أن تأتي خلفه، وهو ينزل السلم إلى الشارع.

كانت نوسة تجري وراءه، يحسـها تنفلـت حـول خطواته، في انطلاق، على أبواب البيوت المنخفضـة التـي تراكم عليها قذر السنين ورطوبة الأيادي، ورائحة السـمك. وجسمها اللدن النشيط فرح بحياته الصغيرة تحـت السـماء،

تجري تشم الأرض وتتكشف الأزقة في انفعال، وتخاف مـن الصبية فتهرب وهي تنبح في ذعر قصير، ثم تقترب تتشـمم النسوة اللاتي يجلسن على العتبات وقـد انحسـرت ثيـابهن الخفيفة الرثة عن جانب من سيقان متعبة مرمية على تـراب الشارع، منسية مرهقة العظام.

وخرج فجأة من هذا التيه مـن البيـوت المتضـامة الكثيفة إلى الكورنيش، وترام الأنفوشي يأتي مصلصلاً مـن بعيد، كأنه يحمل رسالة مضيئة إلى أصـحابها فـي نهايـة المدينة، ووشوشة البحر تصل إليه، مع هوائها الملح، مهدئة معزية، وأخذت الكلبة قليلاً أمام هذا الانفساح الذي يجابهها فجأة، كأن العالم قد انتهى مرة واحدة إلى تخومه الأخيـرة، وليس أمامها بعد إلا هذه السعة الرحيبة تنفتح تحت السـماء، ولا يفصلها عنها إلا الشارع المسفلت النظيف، فاقتربت مـن قدميه، تحتمي به، وترفع إليه وجهها وفي تساؤل وقلق، وهي تزوم في حيرة متطلعة خائفة.

وعبر بها الشارع وهو يناديها خلفـه، والسـيارات تمرق من ورائها سريعة خاطفة، تأتي من عالم آخـر إلـى

مقصد لا صلة لهما به، تمر بهما منطلقة بلا اهتمام، أشـياء من كون لا يعرفانه.

وقفز من على السور الحجري الصغير إلى السـاحل الضيق. وهبط على الرمل الناعم الرطب، وإذا أطرافه يثقلها إرهاق لا قبل له به، فسقط على الشـط خـائرا. والأمـواج الصغيرة ترتمي أمامه على الرمل، في وداعـة خادعـة لا اطمئنان له فيها. وقوارب الصيادين الصغيرة ملقاة حواليـه، حطامات مرمية لا معنى لها تمتد عليها شباك خائنة.

وقد خفت صوت العالم من وراء السور الحجـري، وليس إلا صرصار يصفر وحده في الليل، في نغمة نحيلـة ولكنها واضحة، مؤلمة الوضوح، أمام البحر الهادئ. وصوته الصغير دائب لا يني، مرتعش ولكنه مصمم أمام كـل هـذه السموات، لن يسكته شيء.

في الغد يبدأ حياة جديدة. في الغد سوف يجد المعنى الذي أفلت منه حتى الآن. وكراسات الحساب سوف تحمـل قيمة له، وللأولاد. الحساب، الحساب هو العقل، هو المنهج، هو وزن الأشياء، والطريقة المثلى للوصول إلى ما للمسـائل من حقيقة. نعم سوف يعلم الأولاد، من الغد، كيف ينشـدون

مغزى المسائل، كيف يعملون حتى يصـلوا إلـى حقيقتهـا، باتزان، ونظام، وعقل، وسوف يبحث، هو، سـوف يعـرف كيف يبحث عن معنى حياته الذي تسـرب بـين أصـابعه. وسوف يبدأ هذا في حيطة، وحرص، وذوق بالطبع، دون أن يثير كبير ضجة في اتزان ونظام وعقل. كان هـذا المعنـى ينتظره منذ البداية بلا شك وكان بين يديه، ولكنه أضـاعه، وضل طريقه إليه، حتى الآن.

جميلة؟ لا، ليس ضروريا أن تكون جميلة جدا، أبدا، بل عذبة فاهمة، حنونا.

وانتبه إلى نوسة تقفز إلى كتفيه وتلحس وجهه فـي رفق. كأنها تناديه إليها. وتسترجعه من بعيـد، وهـي تهـز جسمها كله، وتقرب بوزها الصغير المدبب الرطب من خده، وتلتصق ببطنها بين أعلى ذراعه وجانب صدره، تدفن نفسها تحت كتفه، وتمد له لسانها الرقيق تلحسه لحسـات صـغيرة طفلية. وعيناها تسيلان من الحب والخضـوع، مـن هبتهـا لنفسها تقدمها له بلا تحفظ، بلا شرط، دون أن تطلب شيئًا.

دفعها عنه في عنف مفاجئ، فسقطت الكلبـة علـى الرمل، ثم هبت على الفور متفززة بالحيوية والفرحة، تنـبح

نبحات صغيرة مسرورة، وفي ظنها أنه يلعـب معهـا، وأن المرح الحقيقي سوف يبدأ الآن، إذ تسقط على الرمل وتتمرغ متقلبة ثم تعتدل وتجري وتنط في بهجة لا حد لها.

وأبرق في ذهنه نور ذو شعب، وتبدى له في ضـوء ساطع أن عليه الآن أن يخلص منها. الآن. سوف يبدأ غـدا في أن يحيا حقيقته. أما الآن فعليه أن ينهي وحدته.

فأمسك بها وهو يقف، ورفعها بين ذراعيه، وذهنـه يعمل في توقد سريع. كيف يخلص منهـا. واسـتكنت بـين ذراعيه وهي ما تزال تتلفت وتموء قليلاً. لكنهـا أوت إلـى حضنه في راحة وثقة، وأحس جسمها الصغير الوديـع إلـى صدره آمنًا، كله تسليم. لكنه لن يرجع الآن.

كيف؟ أيضعها تحت الماء بيديه العـاريتين حتـى تختنق في النهاية وسوف تتملص بكل ما في جسـمها مـن رغبة عنيفة لجوج في الحياة، بكل ما في عضلاتها وأطرافها من تشبث بالنفس، أيخنقها بيديه تحت الماء، يضـغط علـى رقبتها الصغيرة بأصابعه في قوة وتصميم، وسـائر جسـمها يتلوى منه تحت الماء، يحاول التفلت من قبضته، حتى تنهد

أخيرا وتستكن، مهيضة، لا نبض فيها، جاحظة إليه، بعينيها المذعورتين، المعاتبتين، في إنكار.

لو تواتيه الجرأة أبدا، لن يجد في قلبه هذا العزم.

وكان قد اقترب من حافة الماء، ووقف يرقبها وفي عينيه نظرة ليست منه، واستند إلى سيف قارب بحجبه عن المدينة، ويكتم عنه أصواتها، فكأنه في وحدة مع البحر، والقارب يرتفع شاهقًا خلفه، يحد الكون كله من ورائه، كأنه سور أخير ينتهي إليه كل شيء. الماء يذوب في الرمل تحت قدميه، وهذا القمر المنسي يكاد يختفي خلف أبراج قصر بعيد في وسط البحر، هذا متحف الأحياء المائية، كان ينوي أن يذهب مع التلاميذ في رحلة إليه، لكنه لم يستطع أبدا، ليس يدري لماذا، لسبب أو آخر، وهو يبدو الآن كأنه قلعة قديمة في جزيرة أسطورية، لن يصل إليها أبدا.

وارتفع الماء فوق رأسه فجأة، ارتفع حتى وصل إلى السماء، هو نائم على رمل القاع، ملقى على أرض البحر تعلوه أمواج هادئة شاهقة، تحيط به، وتتسايل بجرمها المائي الكبير فوقه، دون ثقل. وهو ليس غريبا في الماء، بل ملقى به في جوه المألوف، لكنه مغمض عينيه وفمه، ويرى زرقة

الماء الشفافة فوقه مع ذلك، زرقة ساجية صـافية، تتسـايل حوله، دافئة ليس فيها غرابة. نائم على ظهره على الرمل لا يجرؤ أن يفتح فمه ولا عينيه، لكنه يرى النجوم البعيدة مـن خاف جفنيه، تلمع طافية على سطح الموج العالي، فوقه، كأن السماء تلتصق بجلد الماء مباشرة.

وقد اختفت نوسة. لم تمر بذهنه قط. لـم تكـن قـد وجدت في حياته كلها، ولم يكن قد عرفها أبدا، لم تعبر بفكره في يوم من الأيام. بعيدة عنه بعيدة. غريبة غربة تامة كاملة، غربة شيء مجهول لم يعرفه أبدا. لكنه في أزمة. أزمة مـن نوع هادئ فاجع محتوم. كل لحظة لهـا قيمتهـا الحاسـمة الحيوية. كل دقيقة من الزمن لا تعوض. وأختـه الصـغيرة التي ماتت في صدر شبابها، منذ سنوات، تقف في الماء إلى رأسه وتتكلم إليه في الجو المائي الرقراق. تدعوه ألا يفـتح فمه الآن، أن يظل مغمضا عينيه، لكنه يراها، سوف ينتهـي الأمر وشيكًا. وهي تكلمه الآن عبر الموج الرقيق، تتكلم إليه من فوق البحر، من الجو العلوي، فوق السماء، مـن السـعة الكبيرة التي ينفسح فيها الصدر لكي يستروح الهواء الحلـو الهفهاف. تهمس إليه في رقة أخوية انتظـر قلـيلاً، انتظـر

أيضا، وهي تجره، دون جهد، حتى تخرج به إلى الساحل. وهو ينساب معها دون أدنى مقاومة، نائما على ظهره على الرمل. وهو هادئ صابر ينتظر حتى تدعوه أن يفتح عينيه وفمه، ينتظر وكل لحظة لها قيمتها النهائية التي لا تعوض، هادئًا في أزمة صامتة حتمية من الماء الذي ينساب حوله وفوقه، يملأ أفقه حتى حافة السماء ... وأخته تجره على الرمل كأنه لا يزن شيئًا على الإطلاق، خفيفًا لا جسم له، جرا بطيئًا بطيئًا لا قياس للزمن فيه. وكل لحظة تمر لها أهميتها القصوى وتهمس إليه في رقة بصوتها المألوف القديم الحنون. صوتها المتزن العاقل الخافت. وأزمته تزداد عمقًا دون أن يضيق بها، دون أن يحس حرجا ولا كربا، كأنه لا يريد أن يتنفس في الواقع أبدا، وصدره مثقل وعيناه مغلقتان، ولكنه لن يبقى إلا بضع لحظات أخرى إذا سار الأمر على هذا النحو، بضع لحظات قليلة جدا، إن لم يخرج إلى الساحل، إلى نور السماء الجاف حيث الكون فسيح يهب به الهواء. وأزمته شيء محتوم لا يقبل التفكير، وهو لذلك ملقى بطوله على قاع البحر، قريبا، قريبا جدا من الساحل، ولا يملك حراكًا. وأخته الميتة تهمس به، ليس الآن، ليس

بعد، في لحظات قلائل. وتجره دون جهد إلى الساحل المنير بضوء القمر الذي يغرق في الأفق. إلى الرمل الجاف تحـت سماء الليل البعيدة العالية الرحيبة.

قصة ميعاد

ـ عبيط، وا العظيم عبيط.

وهو يبتسم لنفسه ابتسامة لا تكاد تستبين، وقد استند بمرفقيه إلى سور الكورنيش، ونظرته معلقة بالموج الثقيل الذي يترقرق كثيفًا في محبس ضيق ينتهي إليه من رحابة البحر الفسيح، تحت الأحجار العريضة التي ترتفع من سيف الرمل القليل، صادة متينة الأسر احتسبت لونها الرمادي العتيق الذي يتجدد كل يوم. وقد سحرته هذه الخطوط المتسايلة اللازجة، يتميع تحتها الضوء المنعكس عن مصابيح الكورنيش، في غبرة مساء قليل الوضوح.

واستهوته، بغموض، هذه النعومة الدسمة الطرية في الماء، يستشف من تحتها، في الضوء الكهربي، جسد الرمال الراكدة في هذا الركن المطمئن بينما الأمواج ما تفتأ تأتي من بعيد، في كبرياء، تمتلئ بها جوانب البحر، وترتمي على الشاطئ برغوتها المحنقة لتعود من جديد، عالية الصدر. هذا المحبس الصغير وحده أفلت من كبر البحر، وكأنه قد نزل على كل خيلاء، وأوى إلى الضوء تريقه فوقه مصابيح

الطريق، وإلى لمعات مدببة مشعة من النجوم، وعجينة هذا الماء الرخي تنساب في طيات بطيئة كثيفة.

وقد تأخر لا شك عن ميعاده. لم يكن يحمل ساعة. لم يكن يحمل أبدا ساعة. لكنه تأخر بلا شك، واستشعر سرورا خفيا، كأنه خبيث، وهو يراها تنتظره في الكازينو القريب، تنكت الأرض بقدمها، وتخبط في دقات سريعة منفعلة. هي تفعل ذلك كلما ضاق بها الأمر، تفلت من كربها بالدق على الأرض، وترفض ـ وتصمم على أن ترفض ـ النظر إلى الباب، في عناد، بل تلح النظر إلى البحر من خلال الزجاج المغبش القذر، تحت ستائر الكازينو المهدلة. والسماء تدخل إليها من خلال ضبابة الزجاج، كأنها مزاج حائل كدر من سوائل ليلية مشبوهة.

وخفق قلبه، وتسارعت خفقاته، لكن قدميه ظلتا مستمرتين بالأرض، لا يريم. وابتسم لنفسه ابتسامة واهنة. عبيط بلا شك. والمشكلة قديمة لا تكاد تستيقظ في نفسه، ولا يكاد يستقر لها عزم. أيقطع أمره إذن، ويتركها الليلة تنتظر، فلا يذهب إليها، ويخلف ميعاده؟ جبن ذلك ما فيه من شك، خور لا يكاد يقبله وطراوة نفس يأباها أيضا. فإن كان عليه

أن ينهي هذه المسألة، فلن يتم ذلك بهذا الشكل. بل يتحتم عليه أن يصارحها في بساطة وصدق. آه هذه الصراحة والصدق. يمكن أن تكون ثم بساطة، أو صدق، في هذه المسائل؟

عليه أن يتكلم إذن، يتقدم بشروح وتفصيلات وتحليلات. وما جدوى الكلام أليس الشرح نفسه، والكلام، نوعا من التسليم، نوعا من الهزيمة : ولو أنه قام بهذا التحليل، بهذا التخليط من الكلام، يبرر به قصم العلاقة بينهما، لقامت من الشرح نفسه، رابطة جديدة. وعندئذ تتكشف بينهما علاقات جديدة أخرى لعلها كانت مستخفية بهما، ويغوران معا، إلى عمق جديد في أرض نفسيهما معا، حتى ليزداد انتزاع القدم صعوبة، ويشق الخروج.

وهو لن يجرؤ أبدا. لا. سوف يؤلمها. وما أشق أن يؤلمها على نفسه.

ليترك هذا كله الآن إذن.

فيما بعد. فيما بعد. ربما جاءت الأمور سهلة، طبيعية، فيما بعد. من تلقاء نفسها.

أيطيق نظرتها إليه. وهو يشرح لها أنه في الحقيقة لا يحبها مهما غلف ذلك بعبارات لبقة، مبهمة، أقسى، مع

ذلك، من الكلمة الجافية الحاسمة، لأنها بالضـبط، عبـارات تنفسح أمام الشك، أمام البصيص من الأمل الذي يبقى، عنيدا، مدافعا عن نفسه.

وربما بكت، في الكازينو، تحت أنظار الجرسونات والناس، من يدري؟ لن يحملها أبدا هذا الهوان، وهي الأبيـة كبيرة النفس.

ثم ... أهذا مقدار عرفانه بالجميل أبهذا الشكل يعبر عما في نفسه من امتنان؟ فلا شك أنه في الحقيقة مدين لهـا. مدين لها بالكثير. هذه الساعات المرحة الحلوة التي قضـياها معا، في السينما وفي المحلات العامة، في الشوارع أيضـا، وهي تسير جانبه، رشيقة خفيفة، قريبة إليه، حميمة في زحمة الناس، دفئا أمام برد البحر وأنسا أمام وحشة سماء مهـددة. وهي التي عبرت إليه مناطق لم يكن ليجسر أبدا هـو علـى عبورها، مناطق من العثرات والسدود,مدت له يـدها، فـي الحقيقة، فلم يكن ليجرؤ أبدا أن ينشئ علاقته بها إنشاء.

كان بعد انتهاء عمله في الشركة، يتابع دروسا فـي الفرنسية، تنظمها الليسيه.

وهو يعرف أي أثر كان يخلفه في زملائه ومدرسيه صمته المتعالي الذي يداري به خجلاً مؤلما جارحا، وانزواؤه تحت مظهر من الجد والتحفظ حتى يقي نفسه، وإنما يطل من عينيه ـ فقط ـ تساؤل نشيط، وفضول لا يقاوم، وسـخرية يدافع بها عن نفسه.

وقد لحظها على الفور. كأنما انتقلت إليه شحنة مـن الحيوية التي تنطلق من كل حركة لها. وجهها اللماح الحـاد التقاطيع والذقن الصغير، العنيد، وهزة الرأس أحيانًـا فـي نفرة، والعينين السوداوين المتألقتين أبدا، بذكاء، بما يشبه قوة تائقة للانطلاق، بل للجموح. وهي التي تسـأل المدرسـين، وتتقدم للإجابة عن أسئلتهم في جـرأة تكـاد تشـفي علـى الاستهتار. أو أن تنصت للمدرس، في دروس قواعد النحـو بخاصة، وهـي تضـرب الأرض بـدقات خفيفـة سـريعة مستوفزة. ولم يكن يفلتها تقريبا من بصره، متابعا مع ذلـك درسه، يرقبها، كأن ليس بوسعه إلا أن يرقبهـا، ولا يبـدو عليه، أثناء ذلك، إلى أن الدرس والدرس فقط، هو كـل مـا يشغله.

أكان يعرف أنها قد انتبهت له؟ وأين هي البنت التي لا تنتبه لكل نظرة - خاصة - تلقى إليها؟ لكنـه لـم يكـن ليشتبه في ذلك قط، في أنها، ببصيرة بنات جنسـها الحـادة، أدركت هذا الاهتمام العميق الذي يربيه في نفسه لهـا، فـي خفية عن نفسه أيضا، وفي أنها قد استجابت له، في بعـدها، دون أن يدرك. استجابت لندائه الصامت بل ندائه المخـرس، ندائه من حاجته إليها، من فقره إليها.

وشروده الواجم، وانعزاله، وهذا الأدب الكثيـر فـي كلماته وحركاته، ووحشته، وسخريته الخفيفة التي يحمي بها عريه الحساس أمام الصخر الخشن، كل ذلك مس فيها وتـرا دفينًا في عمقها. فأحست لو أنها غلفته، ولففته، وبطنـت لـه هذه القسوة التي تثقله وتجرحه، لو أنها أحاطته بدفئها، ولمته في يديها، وانحنت عليه. وتقلبـت هـذه المشـاعر الكثيفـة الغامضة في حشو لحمها دون أن تدرك لها وضوحا، كأنهـا نغمات بدائية مدفونة في حرم أرض خام.

كانت الشمس الصيفية الغاربة تثير غبار الطباشـير الخفيف المعلق في غرفة الدرس، والمدرس يشرح فصلاً من النحو لا ينتهي، في تصريفات أفعال لا تنتهي، وفي الغرفـة

تعب آخر النهار، وسأم، وتوق طفيف إلـى هـواء المسـاء الرخي، وحلم يطوف في النفوس بغموض، بعيدا عن صوت المدرس الرتيب. وكانت تجلس إلى جواره، وقد هبط عليهما معا، في حسه، نوع من الاستلام لسحر المساء المبهم الـذي يرود العالم في الخارج، ونوع من الرضى الكليل بالحرمـان منه، عندما سمع همستها الخافتة، بالفرنسية:

ـ أستطيع أن أستلف كراستك لحظة؟

لكنه لم يندهش. وهذه أول مرة توجه إليه الكلام مع ذلك، كأنهما يعرفان أحدهما الآخر من قديم. فرد في بساطة:

ـ بالتأكيد.

وهو يمد لها كراسته، في خفية عن الفصل، في تآمر حميم يربط بينهما وحدهما، ويفصلهما عن سائر الناس، وعن العالم كله. وعيناه تبسمان لها، ابتسامة لا تكاد تلحظ، كـأن فيها سخرية خفيفة، وهي عابسـة قلـيلاً، دون جهـد، دون غواية.

وعندما انتهى الدرس، وخرجوا في جماعـة وثيقـة متقاربة إلى الفناء الهادئ، تحت أول الليل، وطراوة أنفـاس البحر تصلهما محملة بمعان غامضة من الشوق، سارت إلى

جواره على الطريق النازل إلى المحطة، وتِرام الرمل يبـدو لهما تحت الطريق، في سكته الضيقة الغائرة تحتهما، يجري على طرف حياتهما، يصلصل في نغمة مبتهجة كأنه في أول ليلة العيد.

ـ أحتاج للكراسة الليلة. يمكنك أن تسـتغني عنهـا ليلة، ليلة واحدة، أليس كذلك؟

ـ ولكن ... بالطبع يا آنسة ...

وهو يسألها اسمها ـ فلم يكن يعرفه بعد ـ بابتسامة محرجة شيئًا ما، مسرورا أيضا من لباقته في العثور علـى مناسبة يسألها فيها عن اسمها، دون تقحم كبير.

ـ نقاش. إيفون نقاش. تستطيع أن تسـميني إيفـون مباشرة، أو إيفا.

وسكتت لحظة، هنيهة من الزمن لا تكاد تقـاس ... وقالت:

ـ ككل الأصدقاء.

وهي ترمي إليه نظرة دعوة، نظرة ثقة، بـل نظـرة فيها من الآن شيء من الملكية، كما لو كانت قد ضمته إليها، فعلاً، واستأنفت، مبتسمة ابتسامة خفيفة:

ـ وبالطبع لي الحق في أن أدعوك باسـمك الأول. موافق؟

وكانت تكلمه الآن بصيغة المفرد. بيسـر وببسـاطة أخذت تسير إليه، عبر مسافات طويلـة، بخطـوات واسـعة رشيقة. خطوات أميرة تعرف أنها تخطو إلى أرضها، وترفع إليها ما هو فعلاً لها.

وكان يدغدغه هذا الشعور، أنها تسعى إليه. وفرحة، في إحدى جنبات نفسه، أنها هي التي تمد إليه ذراعها. وإنما كان يحس، في بعد آخر من أبعاد نفسه المستخفية، شيئًا مـن الحنق. لماذا تأخذه، على هذا النحو، قضية مسلما بها تماما؟ كما لو كانت تعرف أنه ينتظرها، في ركنه ذاك من نفسـه، ولا يتمنى إلا أن تتناوله، وترفعه إليها، ولن يقدر أبدا مع ذلك أن يذهب إليها.

هذا الشعور البعيد بالحنق الخفيف، لا يكاد يسـتبين له، دفعه فجأة لأن يخطو خطواته الأولى:

ـ ألديك لحظة فراغ، تتناولين شيئًا ما، فـي مكـان بالبلد مثلاً؟

أيمكن أن يقال إن تلـك خطوتـه الأولـى، أليسـت بالأصح مجرد استجابة منه، استجابة تكاد تكون محتومة، في تلك الظروف، لدعوتها الواضحة؟

وقبلت على الفور.

واستطاع لأول مرة أن ينظر إليها مواجهة، قبالتـه على المائدة الصغيرة في زحمة الناس، وهي تشرب فنجانها من القهوة باللبن. كان وجهها هذا قريبا إليـه، لأول مـرة، قريبا مجسما محددا، يقع عليه النور، ويكسبه صلابة خاصة. وأحس فجأة بشيء يشبه الخوف. وأدرك فعلاً أن لها وجودا ماديا ملموسا، أن لها هذا الوجه الذي تكتسي عظامه باللحم، اللحم الرقيق الغض المشدود في طراوته، وأن لها هذه الوجنة التي يستطيع إذا شاء أن يمد إليها أصابعه، فيحس نعومتهـا، ويجس العظم تحتها، وأن لها، تحت عينيها، هاتين الدائرتين الخفيفتين المظللتين، وأن في حاجبيها شعرا دقيقًا وفوق هذين الكنزين القرمزيين الدافئين من شفتيها زغب رقيـق، كأنـه مجرد وهم كأنه إيحاء. وأن في عينيها عمقًا أسود فسـيحا لا نهاية له، يرتفع إليه فجأة، إذ تترك فنجانها، وتنظـر إليـه، فينصب عليه مباشرة ويذهله، وتوقفت دقات قلبـه لحظـة،

لحظة كأنها أبدية ليس لها أول، ليس لها آخر، لـيس فيهـا زمن. وهي ترمقه في جد، وفـي سـكون. دون غـزل ولا معابثة. كأن هناك بالفعل شيئًا جادا خطيرا، خطيرا، بينهما.

لم يكن يراها حتى الآن، ولم يكـن يتصـورها، إلا بعيدة، شيئًا غير واضح، فكرة أو حلما أو كلمة، دون معالم، تحيطها هالة مشتتة خافتة، كما لو كانت في عتمة السينما، أما الآن فها هي أمامه، كيانًا، وجسـدا، وهـو يـرى نهـديها المجسمين تحت النسيج القطين الخفيف المحكـم، ويحـدس استدارة الجسم البارع المحبوك. وقد جاءت ساقها إلى جوار ساقه، واطمأنت دون خوف ودون قلق، وهو يحـس نفسـه ينتابه دوار خفيف.

وهما يتعارفان. تحدثه عن نفسها وعن عملهـا فـي البنك، وأنها تتعلم الاختزال، وتتابع دروس الفرنسـية حتـى تتقن اللغة. وتسأله عن نفسه.

وتوثقت صداقتهما. كانا يخرجان من الدرس معـا، يذهبان إلى محل عام، أو يتمشيان على البحر. ودعاها إلـى السينما. وعرفت أيديهما بعضها البعض.

وبدأت المشكلات تقوم في نفسه. أيحبها هو حقًا ها هي شهور قد مضت. والسنة الدراسية أوشكت على نهايتها. ولم تكن هي لتمس هذه المشكلة أبـدا. كأنهـا لا يعنيهـا أن تستمر هذه الصداقة، وتتطور إلى نهايتهـا التقليديـة، أو لا تستمر، ولا تتطور. وموضوعات الخطبة والزواج لم تـأت في حديثهما قط. ولكن المشكلة قائمة بينهما، لا شك. وهو لا يشعر إطلاقًا بعد بأية رغبة في الاستقرار، في الانتهاء. كأنه يخاف. ويؤجل القرار دائما إلى ما بعد.

ماذا يحدث فيما بعد؟ ليس الآن. ليس عليه أن يحـدد الآن شيئًا. وإنما عليه، حقيقة، أن يسرع إلى الميعاد.

وكانت ابتسامته الخفيفة ما تزال منسية على شـفتيه. كان يشعر، في خفية، بشيء من المتعة، وهو يتصورها قلقة عصبية تنتظره وتفكر فيه، تخاف عليه من حوادث الطريق، أو تخاف مجرد الخلف بالميعاد، وتأمل أن يأتي، لا يشـغلها الآن إلاّه، شعور فيه انتقام طفيف، انتقام مـن قسـوة نالتـه كثيرا، طويلاً، قسوة فرضت عليه، دائما، أن يكـون منسـيا مهجورا ولا يشعر به أحد. هذا النبذ الذي كان ومـا يـزال يحياه، مغلقًا عليه، مسدودا، وحده.

هناك الآن، على الأقل، من ينتظره، من يتـألم لـه قليلاً، من يتألم بسببه قليلاً، من يحس القلق من أجله. نعـم. هناك من يحبه. ربما.

ـ عبيط. وا   العظيم عبيط.

يهمسها لنفسه، وخاف هذا الشعور بالسرور، سخرية من نفسه، ونوع من الحرج والضيق. وهو يلوم نفسه، ويبتسم أيضا، وفي صدره ثقل يضغط عليه، برفق، ولكن بإصرار.

وفي جهد انتزع نفسه من هذا الحلم السيئ، وأسـرع يحث خطاه إلى الميعاد.

لا شك أنه كان متأخرا جدا عندما وصل، بالرغم من أنه لا يعرف، إذ لم يكن يحمل ساعة. ومع ذلك فهـا هـي هناك، لا تنظر إلى الباب، وفي وجهها حنق لن تعبر عنه أبدا صراحة. وذراعاها البضتان على المائدة، عاريتـان حتـى الكتف، ملفوفتان، وهي تنتظر في ثقة وعناد. تعرف أنه لا بد آت.

وعندما جلس إلى المائدة، أحس أنه يغوص ثانية في هذا المزاج الدافئ الذي يجده دائما عندها. كأنه يـأوي فـي الحقيقة إلى حضن كثيف هادئ من ماء البحر الثقيل الشبعان

بضوء خفيض. أحس طمأنينته القديمة إذ يعود إلى محبسه المنزوي، بعيدا عن أمواج العالم التي تتكسر على صفحة رحيبة مخوفة، ترتفع وتهبط في كبرياء وتحد وهجوم. هنا على الأقل، يستريح لحظة، في شفافية لزجة رخية حنون، في طيات دسمة تغلفه وحده بدفئها، دفئها الذي له وحده.

وهي تبتسم له:

ـ تجعل الناس ينتظرونك الآن؟

ولم يشأ أن يكذب، فاكتفى بإجابة مقتضبة، صادقة:

ـ تأخرت وا ... وجريت بعد ذلك حتى ألحق بالميعاد.

وتسربت في لهجته نغمة طفل يعتذر، في خوف واسترضاء. لم يكن أبدا يملك إلا أن يعتذر، في صبيانية، كأن قوة ما تقهره على اتخاذ هذا الدور الصغير، وهو يسخط مع ذلك لهذا الضعف، ولا يسعه أن يفلت منه.

وطلب لنفسه قهوة، وشعر بهذا الهمود الذي ينتابه أحيانًا معها. يتركها تتكلم ويعود إلى حلمه القديم، في عالم مغف كئيب، غير واضح. وكان يشعر بنفسه عندئذ متعبا مجهدا حتى الأخير، ينزل، دون مقاومة، إلى نوع من الظلمة

اليائسة كل شيء. وعيناه يغطيهما استسلام باهـت عتيـق، قناعة بالحرمان من مجد لن يعرفه أبدا.

كم كانت تفتنه منها، مع ذلك، هذه الحيوية التـي لا تنضب، هذه المقدرة المتجددة أبدا على الضحك، على المتعة بكل شيء، بفنجان القهوة، وبطراوة هواء المساء، وبالكلمـة المجنحة يطلقها عفوا فتضحك لها في جذل، وهذه القصـص التي لا تنتهي تحكيها له عن زملائهـا وزميلاتهـا بالبنـك، وتساؤلها الذي لا يهدأ عن رأيه، باستمرار، في هذا الشيء أو ذاك. ها هي ترفسه برفق، بدعابة، من تحت المائدة، توقظه من وجومه المتعب، وتطلب منه أن ينهض لها مـن رقدتـه البعيدة في عمق وحشته الخاصة به، أن يرتفع إلـى سـطح عالمها الصغير المشترك، أن يأتي يصاحبها في رحلتها التي لا تكل حول الناس والأشـياء تسـتطلع وتفـتش، وتعلـق وتضحك، تجمع مادة حياتها من الخارج، تدعوه أن يترك هذا التنقيب الداخلي الذي ما ينى يحفره في نفسه، يحفـره فـي الصخر الجاف وفي وشل الماء الزيتي القليل الذي يركد فـي فجواته الباطنية الضيقة.

وهو إذ يرتفع إليها ليلقاها، يحبها الآن. يحب هذه البساطة النيرة الصافية القليلة العمق، وهذا التفجر بالومضات اللامعة، في الهواء الطلق. وتعذبه فجأة شهوة في أن يدع رأسه على فجوة كتفها، أن يلصق وجهه بجانب عنقها، ويغمض عينيه تحت وجهها. يغمض عينيه، يلجأ إليها، يلوذ بها من عذاب هذا التعب من العالم، هذا الجفاف، هذا التقبض الذي يتخبط به، في غير هوادة، أن يحس رقتها المشبعة المهاودة، تدفئ وحشته، وتمسح عنه، بضغطها اللين الطري، هذا المضض وهذه الجفوة الخشنة.

وإذ رد إليها بصره، عن نفسه، رآها مستندة إلى ظهر الكرسي أمامه، ثابتة هادئة تنظر إليه من بعد آخر من أبعاد الزمن، وقد انماط عن صدرها قميصها القطني اللاصق، ينفتح عن كنزيه المليئين الرخيين، بجنب الزجاج الذي تغشاه ضبابة خفيفة مغبشة ليلية، تحت الضوء الكابي، وثدياها عاريان، وقد استمر الناس حولهما يتحدثون، لكنهم قد تراجعوا في عتمة يتسرب إليها ضوء قاتم، كأنهم في آخر صورة قديمة، شخوص مهمهمة بأصواتها الخفيفة المبطنة. وليست به ثم دهشة، على الإطلاق، وهي تنظر إليه من

بعدها، قريبة مجسمة باهرة مع ذلك، في عـالم ليسـت بـه مواضعات ولا تقاليد بل يحياه منذ الأبد وثدياها مفتوحان أمام لعبة الهواء الخفيف من البحر، يضربان إلى الاحمرار الداكن في الضوء القليل، ويبدو بين كرتي ثدييها الرخيين مسـطح صغير هادئ من الصدر الأملس، ثدي أم صغيرة لم ترضـع طفلها بعد. والقميص يدور بإحكام غير محبوك حول دائرتي النهدين وهو يحدس طراوتهما الهنية الطيعـة، علـى حافـة النسيج اللين، والحلمتان عينان يقظتان تحـدقان إليـه فـي تكورهما المتوتر الصغير، تدعوان حـس أصـابعه بهمـا، تدعوان طعم شفتيه حولهما، وتملآن فمه، كحبتين صغيرتين من فاكهة، مترعتين بعصارة شهية محجوزة. وقاما يسـيران على الرحب قليلاً، ويدها في يده، أصابعها تعبث بأصابعه في رفق، تعزيه وتعده.

أهي معه الآن، أم هو وحده ...

كانت البيوت تميل عليه، وفي طرقاته الضيقة إلـى منزله، كأنها تحبسه تحت حيطانها، في مسـالكها الترابيـة الخاوية الآن في الليل، وتحجز عنه هواء النجوم البعيدة.

ورد الباب إلى الداخل، وعبر العتبة إلى بيته، وتردد في الفناء صوت الباب الحديدي الصدئ، يعود في بطء وثقل كأنه لم ينفتح منذ سنوات، وقامـت حولـه فجـأة الحيطـان المهدومة، تتساقط أحجارها مع الزمن، ويتكوم تحتها تـراب السنين. هذا البيت لم يطأه أحد منذ سنين. هذا الباب لم ينفتح منذ طفولته، إنه يذكره عندما كان يقف بقضبانه الصدئة، في طريقه عائدا من المدرسة. يلصق وجهه بين القوائم الحديدية القديمة،ويحدق من الخارج إلى خفاياه. كان سقف هذا البيـت عندئذ مهدما، وكانت شمس الغروب إذ ذاك تنفذ منه ,، تلف التراب المعلق بنور أصفر شاحب. وكان يـرى الحشـرات، مسحورا، تلتقمها الشقوق إذ تجـري فـي انـدفاع الخـوف الحيواني المفاجئ، ويعود التراب الصامت يبطن هذا الجـو الموحش. وكان البيت مهجورا، منـذ قتـل صـاحبه فيـه، والقصص الرهيبة ما تزال عالقة بذهنه، توحي لـه بهولهـا الغامض، والأشباح ترود هذه الجدران بالليل، تطلب الانتقام، متربصة مخوفة.

كان البيت يسحره، ويسمره دائما إليه، وكان في نفسه الطفلة، دائما، توق لم يتحقق أبدا، لأن يـدخل عبـر هـذه

الأحجار المرمية، وهذا الحطام، يمر فوق الحديد المتآكل من الصدأ، والعلب الملقاة المطبقة، والنفايات المعدنية التي يبريها القدم.

وها هو الآن قد ارتد عليه البـاب، وضـوء الليـل الباهت يغلف المكان بسحابة خفيفة من ضوء داكن ممتص لا يكاد يشع، ترقد فيه الأحجار المتهدمـة وخيـوط العنكبـوت الضخمة المتربة، بشباكها العريضة المغبرة، يثقلها التـراب، وتتهدل بين الأركان، مرتجفة في النسمات الخفيفة. وهنـاك للصمت أصداء ملغوزة تتردد خفية لا تكاد تسـمعها الأذن. وهو يسير يتعثر بين الأكوام،ويكاد يقع فيستند إلى الأحجـار الساقطة المتربة،ويثير سحابات صغيرة خفيفة مـن الغبـار، يهيج حلقه فيغص به في اختناق صامت مكتوم، بلا صـوت، في حشرجة، بلا منفذ.

ورائحة التراب والرطوبة تمـلأ أنفـه، ولا طريـق للرجوع. وعيون النوافذ المسدودة بالخشب القديم تحدق إليه، سوداء بلا حدق ولا بصر، وعليه، عليه، دون أدنى تأخر، أن يتلمس مخرجا لا وجود له، لقد انطبق عليه الباب، أحيط به، بين هذه الأنقاض، والجدران الضخمة ماثلة عليـه، ثقيلـة،

رهيبة، مكسرة الأطراف. وهو، في بحثه عن المخرج، يصعد في إصرار فوق أكوام الحجر، ويسقط فجأة على جوانبها، ويتشبث بالأبواب التي وقعت أخشابها المتآكلة، فتنفتح الأبواب أمامه فجأة، في سهولة، عن غرف أخرى من الأنقاض، مسدودة، وتجرح يديه خشونة الحجر وشظايا الخشب القديم.

وفي نفسه صرخة محبوسة لا تنطلق، يريدها أن تنفجر في هذا العالم المهدوم، يريدها أن تدوي فتنسف هذه الأحجار وهذه الجدران الساقطة، وتتطاير بها، في سهل فسيح يغمره ضوء الليل الخافت المفتوح على البحر. لكنها لا تنفجر أبدا هذه الصرخة في حلقه، بل تقبض على عنقه، وتخنقه وهو ما زال يتعثر بالحجر وفي كفيه خشونة التراب.

الأوركسترا

صدمته صفارة الكمساري من آخر الترام، هزته من غيبته، وأيقظته إلى ما حوله، فانتزع نفسه بجهد مفاجئ مـن تملك هذه الوجوه التي تحيط به، وسيطرتها عليه، وإحـداقها به تحت المصابيح الكهربائية الصفراء الباهتة، بـين زجـاج النوافذ المقفلة على الترام الضيق. والوجوه المرصوصة إلى جواره وأمامه في صفين متقابلين، وجوه الناس، أقنعة مـن الارتداد والجمود الجهم، والأعين نوافذ ضيقة مسـدودة، لا يكاد يلمح فيها بصيص يعكس الحياة في داخلها، كـل منهـا عالم خاص، لا أمل أبدا في الوصول إليـه، عـالم تسـوده وحشته النهائية، وتموج جنباته بمسوخه وتهاويله الشخصية، بامتداداته ووهاده وضياع آفاقه، في كل منها عمقه ومهاويـه وبناياته، حوائطه المكسورة وشوارعه الضيقة تمتـد عليهـا أذرع رقيقة لكنها مفتولة العصب، متطلبة أبدا متخطفة أبـدا، مادة أصابعها المرنة الطويلة الجائعة، كألسنة حـادة لزجـة دقيقة ما تفتأ تبحث عن طعام، مهتـزة فـي جوعهـا عبـر المسالك، مصطدمة بالحيطان، متراجعة عنهـا فـي ذعـر

وسرعة، كأسلاك كهربية حية مشحونة لا تني تهتـز تحـت رياح الرغبة والجوع والبحث الذي لا يرضى أبدا ولا يكف.

هذه الوجوه المرصوصة على مقاعد الترام، محبوسة في النور الباهت بين قلقلة الحديد وصلصلة العجلات التـي تصطك بالشارع وتقضمه وتترنح عليه، هذه الوجـوه تطـل عليه، أقنعة من يأس لا يدري بنفسه، والتجاعيد حول الأفواه المطبقة في حبوط، وعظام الخدود الجافة كصخور شـققتها رياح قاسية. وفجوات العينين، في نظرتها الحانقة لم يعد فيها أمل، ونتوءات الفك العنيد، مصممة على مضغ ما تصل إليه من لقم الإشباع والتحقق والتملك، مصممة على ضرس رمال قليلة من صحراء لا نهاية لها، هذه الوجوه تـزدحم حولـه وتحيط به وتملكه وتتضخم في عينيه، صامتة شاهقة بفجواتها ونتوءاتها، تسد عليه العالم. وهي الآن تتراجع فجـأة أمـام صفارة الكمساري وتسقط إلى مكانها المألوف على المقاعـد الخشبية تحت النور الرث الهزيل، فلا يرى إلا أناسـا فـي حالهم مستسلمين لرحلتهم القصيرة، كل منهم ينتظر محطته.

ورأى فجأة أنه قد وصل هو إلى محطتـه. تقـاطع شارعي فؤاد والنبي دانيال، فأسرع إلى الباب بعد أن صـفر

الكمساري، يصطدم بركب الناس وأكتافهم، واندفع يقفز نازلاً بعد أن بدأ الترام سيره وتلقفته الأرض تجري قلـيلاً تحـت قدميه مندفعة إلى الوراء، تبطئ شيئًا فشيئًا حتى تثبت أخيرا في مكانها، وهو منذهل قليلاً في اندفاعة حركته، والأشـياء تدور وتجري إلى جانبيه ثم تعود إلى وضعها المعتاد الثابت، كأنه يثب من كوكب آخر إلى الأرض الدائرة تحت قدميـه، ويعود من رحلة إلى بيته.

أيجد صيدلية الآن، والساعة التاسعة مساء، واليـوم يوم أحد؟ سوف يرى بعد قليل. ألا توجد صيدلية فـي آخـر الشارع من اليمين؟ يذكر أنها هناك. وإلا فعليه أن يبحث في شارع سعد زغلول.

ـ فتحي، رايح فين؟

أمه من غرفة النوم، وقد استلقت على سريرها، بعد نوبة مجهدة من السعال استمرت تهز جسمها النحيل من تحت الملاءات، دقيقتين على الأقل، دقيقتين خيل إليه أنهمـا لـن تنتهيا، وهي تصارع هذا الذي يطبق على صدرها، وتدفعـه عنها إلى الخارج، وتنتزعه في دفعات طـاردة مـن علـى جدرانها الداخلية، وهو يتشبث بهـا، متعلقًـا لا يتزحـزح،

رازحا، ملتصقًا بجوانب رئتيها، يسد عليها مسـالك الـنفس. وقد قامت إلى أعلى قليلاً من رقدتها، لتطـرد، فـي حميـا السعال العنيف، هذا الدخيل الذي يستولي الآن على حياتهـا، هذا الثقل الذي يضغط على جنبات صدرها. ثـم اسـترخت منهوكة، وارتد الدم عن وجههـا المحـتقن، فتركـه باهتًـا مستنفدا، وهي تنهج في ضعف.

هذا البرد قد نال منها، منذ أسبوع وهو مـا يـزال يمسك بها، لا ينزاح.

وأحس فجأة أنه لا بد أن يفعل شـيئًا. لا يطيـق أن يدعها تكافح عنها هذا الدخيل وحدها، ما زال الليل طـويلاً أمامها. وعليه أن يمد إليها يده، بأي شكل، في وحشة انتظار مرور هذا الليل الذي عليها أن تقطعه وحدها، من أوله إلـى آخره، امتداد مظلم شاسع يتربص فيه الدخيل بها، فـي كـل خطوة منه.

ولبس بسرعة، وهو يدير في ذهنه أنه سيذهب يبحث عن دواء لهذه الكحة، شيئًا إن لم يخفف عنها فعلاً، فهو رمز على الأقل، تستند إليه في رحلتها الليلية.

ـ رايح فين دلوقتي؟

بصوتها الأبيض الخفيف من الإجهاد والمرض.

ـ وا رايح القهوة شوية يا ماما، وحاشوف كمـان أجزخانة أجيب لك منها دوا ولا حاجة للكحة دي، إذا لقيت، النهاردة الحد وكلهم قافلين. حاشوف على كل حـال. مـش حتأخر قوي.

ـ طيب يا بني، ربنا يخبز لك وينجح مقاصدك يـا رب، ويوعدك باللي تريح بالك.

دعاؤها المألوف، تردده باستمرار، وهو يشـتبه أن هذا الدعاء ليس إلا نصف دعاء حقًا ونصف رقيـة، كأنهـا تعرف أنها لن تستبقي ابنها إلى جوارها أبدا، وقد تقدمت بـه السن الآن، فلا بد تأخذه منها زوجة، وهي تتمناهـا زوجـة محبة لابنها، تستكمل له حبها الأموي. ولكنها فـي الوقـت نفسه، إذ تدعو، تعبر بصوت مسموع عـن رجائهـا وعـن خوفها من تحقق هذا الرجاء أيضا، وتحول مؤقتًا دون تحققه، كأن دعاءها تعويذة تسترضي بها أقدارا سـاطية غامضـة تسمع منها وتفهم عنها، فترضى، وتؤجل لها تحقيق دعواتها قليلاً من الزمن أيضا وتترك لها ابنها، قليلاً من الزمن أيضا ... كأنها تقول لهذه الأقـدار ـ انظـري هأنـذي أعـرف

وأرضى، هأنذي اقبل وأسلم بـأن يتركنـي، ألا تسـمعين؟ أتسمحين الآن أن تبقيه إلى جانبي، قليلاً من الزمن أيضا، فأنا لست أعاندك بل أرضى بقسمتك، هأنذي طيعـة مستسـلمة لأمرك، ألا أستحق جزءا صغيرا، أن أحتفظ به إلى جواري، قليلاً؟

هذه الأم التي لم يعد لها شيء غيره. فقد مات أبـوه منذ سنوات، وأخته الصغيرة بنت على أي حال، وهو يعرف أن أمه لا تحب أحدا سواه. ويشفق عليها، هذه العجوز التـي لا ترى عالمها إلا فيه، ويضيق أيضا بهـذا الحـب، بهـذه القبضة الحنون المتملكة.

رد الباب خلفه ونزل السلم كأنه يهرب من الميـدان. كأنه يهجر ساحة معركة طويلة بطيئة متقلبـة الأدوار. فمـا زال لديه، إلى جانب ذلـك، محاضـرات كثيـرة عليـه أن يراجعها، والامتحان يقترب. وليس لديه وقت. لـيس لديـه وقت، عمله في المدرسة يستغرق ثلاثة أرباع النهـار وهـو محضر طبيعة في المدرسة العباسية الثانوية، ثم يعود لينقـل المحاضرات ويذاكرها. كان قد اشتغل بالمدرسة بعـد وفـاة أبيه، وهو يقضي يومه في معمل الطبيعة يحضـر الأنابيـب

والقوارير والأجهزة للمدرسين، ويعد المعلم للدرس، ولكنه التحق بكلية الآداب، قسم الفلسفة، فلم يكن ليقبل أن يستمر في وظيفته الصغيرة، وبنفسه أمل غامض في التدريس في الكلية ربما، مدرس في الجامعة، أو على الأقل، وهو يقبل هذا الاحتمال بنفاد صبر وخوف ونفور، وأمل مبهم في الإفلات منه، مدرس في مدرسة ثانوية، على الأقل، مدرس فلسفة.

كم يود أن يسيطر وأن يسود في فصل هو مملكته الخاصة، يلقي بعلمه على طلبته، يقودهم إلى الفهم، يفتح لهم آفاقًا جديدة، في الكون وفي النفس، ويؤثر على حياة كل منهم، يشكلها إلى حد ما، يفرض عليها حبه للمعرفة، للتطلع، للكشف، وينقل إليها قلقه، في الجامعة أو على الأقل في المدرسة الثانوية. أيقضي حياته كلها في المعمل، يحصي الأنابيب ويهيئ الأجهزة، ويرجع من على باب المعمل قبل كل حصة، ثم يأتي يجمع أجهزته وأنابيبه، يعدها ويصفها في أماكنها، بعد كل درس. كل حياته، في المسرح الخلفي، لا يحس به أحد، في العتمة، وراء الأبواب.

وارتقى الترام، وسقط فجأة في قبضة هذا الكابوس من وجوه الناس، وها هو الآن يبدأ بحثه عن صيدلية، في شارع فؤاد.

وكانت السينما تفرغ ما فيها، وأزواج النساء الأنيقة كثيرة تزحم الشارع، في جماعات ملونة متقاربة ضاحكة مستريحة. والسيارات تتابع لامعة، صامتة، مقفلة على سكانها.

وخلا الشارع فجأة حوله، واتسع. وهبت عليه رياح قوية. وكان الأسفلت الأسود مصقولاً، فارغًا موحشًا.وقد تقوس الشارع تحت قدميه وامتلأ تقوسه، حتى أصبح قطاعا من كرة هندسية شاسعة، كأنه مسطح على نصف كرة هائلة من الأسفلت الكابي، تلمع عليه أنوار الشوارع، صغيرة دقيقة، تحت سماء مهجورة فسيحة. وقد تضاءلت البيوت، وهربت وكادت تختفي إلى جانب استدارة الشارع المقوسة، ولم يعد على هذا السطح الصلب المصقول إلاه، صغيرا صغيرا في صحراء مكورة من الأسفلت الأسود الجاف المكبوس، صغيرا يتقدم ويتدحرج لكنه لا يقطع خطوة إلى الأمام في هذا الامتداد اللانهائي الصامت الخاوي، يسمع فيه

زفيف رياح آتية من سماء بعيدة، ويرى ومض أنوار كهربية كأنها معلقة، في خفوت، بينه وبين اتساعات الكون التي لا حدود لها. وجدران البيوت رقيقة تهزها الرياح، في أسفل، على جانبي هذا الامتداد المحدب الشاسع، وهي واجهات فقط، واجهات بيوت لا شيء وراءها، ديكور من طوب قديم رقيق، مائل يتداعى في ضآلة، بعيدا هناك تحت، على جانبي هذا الامتداد العريض النازل من الجانبين في استدارة واسعة، واجهات صغيرة منسية، تهب بها الريح وتجول حولها، في الخلاء الغامض المعتم الذي يذهب بلا نهاية رواء هذه الدفعة القوية المقوسة من أسفلت الطريق، كأنها صدر ممتلئ بالنفس، صلب العضلات، مصقول، يتحدى السماء.

وهو يدرج على هذا السطح الزلق المسدود الأملس، هذا الصدر الصلب الذي لا مسام فيه، يدرج عليه كأنه قطرة من الزئبق، تتدحرج وحدها على الصلابة الرافضة المصقولة، تتدحرج ضئيلة لا تكاد تمس هذا السطح، ولا تترك خلفها أثرا، ولا تخدش هذه الملاسة من الأسفلت الممتلئ بقوة مشحونة مقوسة، ولا تدع فيه أقل تجويف، لا تضربه، بل لا تكاد تقع عليه، ولا يأتي عنها صوت. تتدحرج

معدنية، فضية، مستديرة، مغلقة على استدارتها الكاملة التامة، شيئًا ملفوظًا باستمرار، متماسكًا، يفلت من كل قبضة، ويفـر من كل إمساك، محتفظًا بنفسه، مسدودا على نفسه، كاملاً لم ينل منه شيء، ولا يقبل بأي حال أن تتشـربه الطريـق، أن تمتصه بل أن تمسه هذه الغرابة الأصيلة عنـه، لا يلتصـق بشيء، لا يجذبه شيء ولا يخاف أدنـى أثـر، يمـر فـإذا مسطحات الأسفلت المدفوعة إلى أعلى في شهيق جامـد مـا زالت صقيلة ملساء ممتدة كاملة النعومة والانسداد، كأنه لـم يمر إطلاقًا. ويدفعه شوق متصل أن يلتصـق بهـذه الأرض المصقولة التي تلفظه وترفضه، أن يدخل فيها، أن ينفذ مـن قشرتها الكثيفة القوية المنيعة، أن يجد له شقًا يتسلل منه إلـى ظلمتها الداخلية، أن يندمج في أحشائها، ويفنـى فـي دفئهـا الباطني، ويتشعشع مع حناياها، أن يمرغ نفسه ويتحلل مـع ترابها الدفين الغني الناعم الوثير، يتفتت فيه ذرات دقيقة من تراب دفيء، ولكن لا تربة هناك ولا دفء ولا خصوبة بـل سطح مصقول مسدود يلفظه، ويرفض، في حيـاد طبيعتـه النهائية، أن يتشربه، بل أن يقبله. فهو يتدحرج على صلابته، قطرة من زئبق مغلقة على ذاتها مرفوضة.

وحفت به السيارات، واصطدم به الناس، فصعد إلى الرصيف ودخل وسط جماعة من الناس اللابسين أشياء أنيقة مكوية، والنساء اللاتي تفوح منهن أنفاس بعيدة لطيفة من التطرية والزواق المتحضر الخفي الدقيق، واضطرب في وسط هذا الجمع المتمدين الذي يوشك أن يبدأ سهرة ليلة الأحد، وتطايرت حوله ضحكات وعبارات فرنسية ويونانية وإيطالية وأحس نفسه في هذا الجو السكندري الأليف الحضري الذي لم يستطع أبدا أن يأنس إليه، ولم يستطع أبدا أن يفلت منه.

واسترعت نظره وراء الردهة المفتوحة المعتمة التي تفضي إلى سينما محمد علي، أصص زرع للزينة وجو احتفال، وأناقة مقصودة مزهرة في جماعات الناس، كأنهم في عيد. فدخل مترددا حتى وصل إلى باب السينما ووجد نفسه يقرأ الإعلان الموجود على الباب. حفلة سيمفونية تقدمها أوركسترا فيلهارمونيك برلين، وأحس بوهج الانفعال يهب عليه من الداخل، ووثبت في نفسه فجأة فكرة الدخول. ليست الموسيقى غريبة عنه، ولكنها، على الأصح، قريبة قرب الأحلام. ونزوعه الخفي لها لم يتخذ موضوعا له من

الخارج، بل ظل شيئًا في نفسه، يشبه التهويم، وقلقًـا غيـر محدد. وكان يسمع منها بالصدفة، أحيانًا، في الراديـو، دون منهاج، ويحلـم، سـاعات، بالسـفر إلـى أوروبـا ليشـهد أوركستراتها العظيمة. وأية صورة من الحلـم، وهمهمـات تنوس في عتمة خيالاته، عن الموسيقى السـيمفونية ...! أي أصداء عميقة مبهمة مترامية، مكتومة الآفاق، تتردد أحيانًـا بين جنبات نفسه ...!

ووجد نفسه يسأل في شباك التذاكر. ولكـن التـذاكر كلها مباعة، وهم بالرجوع وقد هبط قلبه من صـدمة أمـل عزيز مخيب، عندما نادته العاملة وقالت له إن لديها تـذكرة واحدة. لم يكن في جيبه إلا نصف جنيه والتـذكرة بثمانيـة وثلاثين قرشًا ونصف. وهو مضطرب لا يعرف أن يحصي بقية نقوده، وأصابعه مرتبكة، وهو سخن. وكانت فكرة الدواء لأمه المريضة والصيدلية التي لم يبحث عنها، تهجس به من بعيد، صوتًا صغيرا خائفًا في عمق منه. لكنه لم يكن يصغي إليه، وقد نضحت على وجهه طبقة خفيفة من نـدى العمـق الواهج. وقلبه يخفق في انفعال جديد وشغف وآمال غريبة.

وكان المكان كله جديدا عليه، والعامل يوجهه إلى الباب يرتقي منه سلما جانبيا، بدا له مهجورا في ضوء مصابيح كهربية صغيرة نفاذة، وهو وحده، والسلم يدور به، وينفتح على أبواب معتمة خفية تفضي إلى فراغات معمورة بشخوص الناس، ولا أحد إطلاقًا على السلم، حتى لقد خشي أنه ربما أخذ الطريق الخاطئ الذي لا ينتهي إلى شيء. لا أحد إطلاقًا على هذا السلم المنير الصامت المحجور عليه، خلاف الأصوات الغريبة المختلطة التي تأتي إليه من وراء جدران لا أبواب فيها الآن كأنه يرود رواقات خلفية محظورة، لا حق له في الدخول إليها، حتى وصل أخيرا. وعندما وجد عامل السينما على الباب المفضي إلى أعلى التياترو فرح قلبه كأنه وجد أول إنسان بعد رحلة طويلة في متاهة. وأرشده العامل في العتمة إلى مكانه، فقد كانت الحفلة تكاد تبدأ، في تلك اللحظات القليلة التي تسبق العزف بعد إطفاء الأنوار. وسار متوجسا وقد غرق في وسط مئات من الناس على مقاعدهم في الظلمة، يصعدون أنفاسهم، متزاحمين، متقاربين، حميمين، لهم دفء التلاصق البشري الوثيق ورائحة الناس. وعلى هدي طعنة دقيقة محدودة من

النور الكهربي وجد لنفسه مكانًا بعد أن تعثر مرة وكاد يقـع عند سلالم صغيرة، وما إن جلس، وهو ينهج قلـيلاً، حتـى انفتحت تحته هوة القاعة المعتمة، وبـدا لـه المسـرح فـي نهايتها، منيرا، صغيرا وقد اتخـذت الأوركسـترا مكانهـا وأخذت تجرب آلاتها. وفي القاعة طنـين مـن الأصـوات المكتومة المنفعلة مرتفعه في موجات متعاقبة مـن الهمـس وخشخشة الملابس واضطراب الحركة والضحكات الصغيرة ودقات سريعة على الطبل وانفلاتات حزينة مـن الأوتـار، تنقطع فجأة، ونفخات مفاجئة من الأبواق، ورنـين مـرتعش مقشعر وطنين من أجواف الآلات ونواح الكمان وصـرخاته الممتدة، كلها تختلط وتهوم في القاعة.

ثم دخل المايسترو وصفقت الأوركسـترا وانـدفعت القاعة تصفق في زوبعة واحدة متحمسة، ثم تراخت الصفقات الأخيرة، كرذاذ من المطر ينقطع، وسمعت طرقات المايسترو الخفيفة الحاسمة.

وهبط على القاعة هدوء عميق كهوة مفتوحة مشحونة بالترقب والشغف.

وحملته الامتدادات الأولى المتطاولة من نغمات مسترخية في نوع من يأس صاف رقراق. وأخذ يعل من شراب هذا اليأس المشعشع، يشفي غلة قديمة صادية في أرض قحلة جافة مشققة، ورق يأسه، وامتد مرهفًا كأسلاك مرتعشة من زغب هفهاف راجف، يتقدم في توتر حساس عبر وحشات شاسعة. وتضخم اليأس وامتلأ، وارتفع في دفقات كثيفة ناهضة إلى أعلى، غنية بالعصارة يزوم ويجلجل، ويختلط بأحشائه فيملؤها بنزعات منتفخة بدم الأرض الثقيل، ولم يعد يأسا بعد، بل أصبح شيئًا بدائيا قويا لا اسم له. وارتفعت العصي في الأوركسترا معا، وهبطت معا، تحرث تربة الأرض في عزم ملهوف مصمم، في نظام يضمها كلها ويتجاوزها ويتخطاها. وهو يتابعها وأنفاسه تتسارع، مبهور الصدر، كأنها فؤوس رقيقة رفيعة قوية تعلو وتنخفض في معادلة رياضية تفي به وتحققه.

وطبول السماء تقرع فجأة، والصناجات تصطفق في روع نحاسي، توسع العالم كله، وهذه الخلوة الفسيحة، تمتد حواليه، وقد تهللت السماء، وفرغت، وذهب عنها كل حضور، وهو يمتلك الكون كله، بلا حدود، فيصبح كونه، لم

يعد غريبا هو، إنه يقبض على أطراف السماء نفسها، مـلء ذراعيه، في خبطات الطبل أو صفقات الصناج، إنـه يهتـف بالعالم، في امتلاءات صدره بالأبواق. والأكـوان الشاسـعة تتساقط بين يديه، فيجمعها في فرح شرس، يرقص الأفـلاك. وحيطان العالم قد أصبحت هشة تذروها الرياح، فتسقط عنها نفاضة النجوم.

ثم تدور حسابات الجمال الدقيقة الملآنة، ويغيب فـي خدر رقيق لم يعد يعي فيه، خدر من معرفة وضاءة العتمـة، حتى يستيقظ على ألم موجع، على رهافة جرح تبتـر حديـه الأوتار. وتـرتعش أطـراف جرحـه المفتـوح، مشـدودة الحساسية. وتنتقل ساقاه، في بطء، كأنما تقاومها الرياح، على مسطحات ملحية من أفق رمادي لا نهاية لوحشته، وهو ينقل خطواته في هذه السهوب التي تفوح بها نسمات توق مـبهم، تنوح في دقة خفية بعيدة ورقيقة، وتدمدم من ورائها، من بعد لا ينال، زلزلات مهددة مكتومة، متربصـة أبـدا منتظـرة، وغمرات مرهوبة يتحلل خطرها برقى فعاله، كأنهـا رقـى تتلوها شفاه أنثوية، من محبات صابية عميقة.

والأوركسترا تبدو كأنها فرقة أنيقـة منظمـة مـن العمال، صغيرة كدمى مشغولة منهمكة في عمل تافه لا قيمة له. لا صوت له، غير مفهوم، كأنها شيء آخر لا يمت إلـى رؤياه، ولا صلة بينها وبين هذا العالم الذي ينفـتح حولـه، ويسوخ به، يرفعه ويسحقه، ويملكه كل شيء ثم يحرمه مـن ذات نفسه، يجرحه ويزلزل حشاه، ثم يملأ صدره، بنفحـات هواء طليق حار من التحدي.

والديكور على المسرح قطعة من القمـاش الملـون عليها رسوم أشجار باهتة لا حياة فيها، جذوعها مـن بقـع الألوان البنية المسطحة المشققة، وورقها أخضر مفلطح ثابت لا يهتز، وألواح الخشب تبدو على أرضية المسرح عريانـة بذيئة تافهة في عريها الحقير. هذا هو مسرحه الذي تدور فيه مأساته. لكن هذا الديكور كله يطفو على سـطح وعيـه، لا يتصل في شيء بالحياة التي تهزه الآن. وهو مـدرك أن لا سبيل للاندماج بينهما، بين هذا الديكور السـوقي الـرخيص الذي لا يستطيع أن ينساه، منطبعا في ذهنه يكويه بحقارتـه، وهذا الوهج المشع الأصيل في حسه، وفي وعيه، في بـؤرة

حياته. كأنه مقسم يحيا حياته الحادة على سطحين منفصلين، في وقت واحد.

لم يعد غريبا في لحظته الآن،بين الناس الذين يحسهم قريبين، هو بين أشباهه، على أنه يحيا وحدة خاصة به، لكنهم جميعا بصورة ما، في كون واحد. لـم يعـد الآن ملفوظًـا يدحرجه أسفلت صلب مسدود، وأمه المريضة لم تعد بعيـدة، ملقاة في عزلتها الليلة الطويلة، بل معه بـدعائها ورجائهـا وخوفها، معه أيضا في شوقه إلى أنثاه، شوقًا غامضا حنونًـا إلى مستقبل من المحبة ينتظره وراء ركن من شوارع حياته بين السيارات وعربات الترام، لم يعد ذلك شوقًا قلقًا وشـهوة خشنة تكسر نفسه في غبار حجر صلد، بل أصبح توقًا يتفـق مع يأس مقبول رخي. والعتمة الهادئة تعطيه سـماءها، فـي نغمات عذبة يفهم فيها، على نحو ما، نوعا من الرضا، يفهم فيها أن الأمل الذي لا معنى له هو عيده الخاص، بأحزانـه ذات الابتسامة الوضيئة.

مغامرة غرامية

نزل درجات السلم مسرعا، فلم تبق إلا بضع دقـائق حتى يصل إلى عمله في الميعاد. وقد رد الباب خلفـه فـي شيء من العنف، حتى يتردد صوته في بير السلم، حتى يتأكد أن نداءه قد انتهى إلى وجهته.

فهي في شقتها التحتانية، تنتظر هذا النداء.

ودرجات السلم تستدير به ينزلها خفيف الخطو متوثبا بحياة الصبح البازغة، وفي جسمه انتعاشة الصحو من ليلـه، وعيناه مفتوحتان على عالم جديد الولادة.

لكن السلم ينحني ويستقيم، وينزل، وينبسط، دون أن يصل إلى شيء. لا تنتهي هذه الدرجات أبدا، كأنهـا معلقـة بالحائط القديم، تصدر عن باب علوي ولا تفضي إلى شيء، وهو ما يفتأ يهبط الدرجات المتعاقبة، لا تكاد قدماه تلمسانها، ولا يرى نهاية.

والسلم يجري إلى أسفل، بين الحائط والسـياج، ولا شيء بعد في العالم كله إلا درجاته الهابطة الصامتة، عليهـا أقذار اليوم الفائت، نفايات من قشور الخضر والفاكهة القديمة

وأعواد الملوخية وقصاصات الورق المتقطع وعفرة التراب، وضوء الصبح ينزل عليها كلها من السقف العالي، فيفضح عريها النيئ الذي ناله عفن قليل، وهو ينزل، يكاد ألا يكون منتظرا نهاية. درجة بعد درجة، بدون ملل، بدون دهشة، لا يكاد يستند في سرعته إلى السياج المدور المكتنز بجسده الخشبي الناعم من طول مس الأيدي الطالعة النازلة كعاهرة قديمة شبعت من حس الأصابع المبلولة، والحائط ينزل إلى جانبه، بلا نهاية، معلقًا في تجربة متصلة لا يوجد فيها معنى الزمن. وما زالت في البيت أنفاس الصبح الثقيلة من النوم، خامدة فيها حرارة الفراش والأجساد المتقاربة الملففة في أغطيتها وملاءاتها المتراخية المهدلة، وما زال بالسلم ريح بطيئة تنفذ إليه، من تحت الأبواب المسدودة عن تقلبات الغرف المغلقة وهوس اللحم والأحشاء والليل اللزج. وهذه الريح تتشتت قليلاً مختلطة بعري النفايات النيئة، وصفائح الزبالة على أركان السلم تتخثر وتصعد نفسها المعجون. لكنه يهبط لغاية هذه الدرجات التي لا تنتهي، لا تنتهي أبدا، على هذا السلم المتمطي في نومه أول الصبح.

وانفتح بابها فجأة، وخرجت إليه، وهي ترتدي ثوبا حريريا قديما للنوم، قصيرا أحمر قانيا لا يصل إلى سمانتي ساقيها البيضاوين، وينفتح، في سعة، عن كنزي ثدييها الحافلين باللحم المستدير العريان، إذ يتلامسان في تكور متجسد من العجين الأبيض الذي ما زال يحتفظ بدفء الفراش، وقد صبغت شفتيها - على الصبح - بأحمرها الفاتح، وفي شعرها الكثيف القصير لمعة سوداء متماسكة متألقة. ونظرت إليه بعين الأنثى التي لا تشبع، وذراعاها العاريتان تفلتان من ثوبها الأحمر كأنهما فخذان، وفي طية اللحم المنكشف المزنوق تحت الإبط وعد بلذة مشبعة دفيئة ريانة.

كانت تنتظر نزوله عادة، حتى تلقاه أول صبح، كل يوم. وهي تتظاهر أنها- وقد كنست البيت مبكرة - تخرج الزبالة إلى السلم في هذا الميعاد بالضبط. حتى لا تثير - جدا - شبهة حماتها، وسلفتها، وأولادها الكثيرين وهو يسمع الآن - إذ يمر بالباب ويتأنى قليلاً - زياط الأولاد في داخل الشقة المزدحمة وأصوات الاستعداد للنزول إلى المدارس، وابور الجاز وغسيل الوجوه وإعداد الفطور. لكنها

لا تكاد تفوتها مرة واحدة، تقريبا بل تخرج إليه كل صـباح، في ميعاد نزوله،ينفتح عنها باب الشـقة الخشـبي المسـدود القذر، وتطلع منه، محشوة برغبتها الدسمة فيه.

ومدت يدها، فأخرجت من بين ثديها ورقـة أعطتـه إياها:

ـ صباح الخير.

وترمقه بنظرتها الثقيلة، من تحت جفنـين مسـودين قليلاً، ينزلان على عينين عميقتين.

والباب مفتوح، وفي الجو كلـه خطـر الانكشـاف والفضيحة، وسرعة المؤامرة.

فاختطف الورقة المطبقة بعناية، وفيها نفح من باطن جسدها وعرقها الخفن. وأسرع نازلاً يخرج إلى الشارع.

كان الشارع واسعا فجأة، بعد هـذا الحلـم الضـيق المتوتر الخطر. ونظر خلفه فرآها في الشرفة تنظر إليه.

جريئة فعلاً هذه المرأة، لا تتورع، في رغبتهـا، أن تجازف. هذه النظرة المخطوفة السريعة من الشرفة، ـ ـ قـد تكشف الأمر كله. واستدار خلف ناصية الشارع، وفي عينيه صورتها، حديد الشرفة يستدير بها، رقيقًا في صفوفه النحيلة،

كأسلاك دقيقة صغيرة معلقة بحائط البيت من الخارج، فـي صفاء الصباح، تحت سحاب أبيض قليل ساكن في سماء نقية. ويحيط بها، وهي عالية بعيدة صمت رغبـة خافتـة غيـر شبعانة.

وما كاد يدور خلف حيطان الشارع حتى فتح الورقة، في الطريق والناس تمر عليه وتفتح دكاكينها وتنتظر الفـرج وتهرول خلف الترام تلحق به قبل أن يبتعد.

"حبيبي. يا أعز حبيب.
"لماذا تصمم على هجري؟ هل نسيت حبنا أم
"تريد أن تتناسى؟ إنني أحبك حبا
"ملك علي حواسي فحرام هذا التجاهل، ماذا
"تريد؟ إنني طوع أمرك. أين نتقابل؟
"ومتى؟. إنني أسهر الليالي انتظارا لعودتك
"من ملاهيك دائما فلا أنام إلا إذا أويت
"إلى مضجعك فأنام أنا الأخرى متخيلة أنك
"معي وأنتظرك صباحا لأراك عند ذهابك
"إلى عملك، فإن لم أرك أظل طول يومي
"شقية معذبة؛ لأن في رؤياك عزائي

"حبيبي هب لي من لدنك يوما نتلاقى
"فيه وسيكون آخر لقاء كما تريد وإن لم يكن
"فخطاب مطول أقرأ فيه حبي الذي مات ولم
"يولد بعد أو أي شيء يذكرني بهذا الحب
"الذي كان. وسأبتعد عنك ولا أتهافت
"عليك وأنطوي على دموعي وأحزاني وفشلي
"في حبي الوحيد.

وابتسم لنفسه، ابتسامة خاصة به، في الطريق، وهو يسرع خطوه ... وقد خفق قلبه بالرغم من كل شيء، خفـق لهذه اللهجة المؤثرة الفصيحة التي تكتبها، بأخطائها اللغوية، ومزاجها الغرامي. ولحظ أن هناك وراء هذه الكلمات شـيئًا صادقًا عنيفًا، الحب أم مجرد الرغبة العطشى؟ وقد رضـي فيه كبرياء هش.

ولم يشأ مع ذلك أن يقتنع بأن في هذه الكلمـات مـا يريد من الصدق. خيل له أنها تمرين فـي كتابـة الرسـائل الغرامية ... لا أكثر ... ومع ذلك ...

كانت علاقتهما، بداءة، مبنية على خديعة، من جانبه على الأقل.

وهو مدرك ذاك واع به. ويقبله، لأنه قد برره لنفسه. لم يكد يطيق الحرمان الدائم المطلق الجاف. وهـا هـي ذي امرأة تقبل عليه. أيـرفض؟ أيسـتمر إذن يتقطـع وييـبس ويتصلب، ويسقط ذابلاً، من غير ماء؟ لمـاذا تتـآمر عليـه الظروف والناس، فلا يجد في حياته كلها، حتى الآن، حبا أو ما يشبه الحب؟ وقد مرت عليه سنوات طوال، مقفرة كلهـا، موجعة. أليس من حقه الحب. ومن حق كل واحد؟ ... أليس ذاك جرما؟ ... لا يهمه أن يقترف هو أيضا جرما. مـا دام هو الضحية، على أي حال. وهو يحس نفسه مغرى بمتابعـة هذه الحكاية.

مغامرة إذن، فقد ضاق بالتزمت والتـزام الطريـق الضيق القويم. ضاق بالعمل في البلدية، والقهوة بعد الظهر، والسينما والصحاب من الشبان دائما - دائما مـن الشـبان. يتكلمون عن مغامراتهم فلا يجد إلا أن يصمت، أو أن يعلـق على حكاياتهم بالسخرية أحيانًا والتهوين.

ومع ذلك. فقد انتهت هذه الخدعة المقصـودة، مـن جانبه، إلى أن يكتشف في نفسه، بعد ذلك، شعورا لـم يكـن ينتظره. كان يستشعر عطفًا غريبا يربطه بهذا الكائن الـذي

ملأ عليه طرقاته الآن، عطف المنسي المحروم الذي يجد أن بيديه ثروة يرمقها الآخر بعين الطلب. هـذه المـرأة التـي جاوزت شبابها، وتهدل خدها قليلاً، داخل خطـوط وجههـا المستقيمة النقية، على جانبي شفتين مكتنزتين حمراوين دائما، هذه المرأة لعل حياتها قد تقضت إلى اليوم، دون أن تعـرف إقناعا لشهوة غامضة ترقد في داخل أحشائها، إلى متعة لـم تتحقق بعد. وهل تتحقق أبدا هذه الرغبـات الداخليـة، هـل تتجسم أبدا هذه الشهوات، في الحياة التي نحياهـا؟! ... كـم نتوق نحن إلى التحقيق والإشباع، إلى إرضاء نزوعات بدائية جذرية تمتاح ماءها من عمق أرض نفسنا. فهل تتحقق أبـدا هذه النزوعات؟

إنها خرجت إليه، هذه المرأة، تطلب منه هو تحقيقها. فلعلها لم تقع على ذلك عند زوجها، طيلة تقلبهم على ملاءات الزوجية، طيلة حياتها معه، ومع حماتها، وسلفتها وعـديلها وأولادها في الشقة المزدحمة. وهي لا ترضى بالأفق الـذي ينسد أمامها رويدا، وسوف يغلق عليها، وشيكًا، إغلاقًا نهائيا قاطعا. وتتلمس ثغرة تنفذ منها إلى ما يتجاوزه، هـذا الأفـق المسدود. لذلك كان يحس انعطافًا على هذه الرغبـة، حنـوا

أمامها. لذلك قام بين جسديهما تقارب حميم، وعطف نسـيجه من الفهم يؤلف بين الجسد والجسد المنعزل المنفصل، المغلق أبدا على حياته الخاصة، النازع أبدا إلى التداغم والتواحـد، إلى الانفتاح والانطلاق لصق الجسم الآخر.

لم يكن يعرف عنها، أول الأمر، إلا أنها جارتهم في البيت، زوجة مقاول نقل، يشغل سيارة للبضائع أو سيارتين. لا يدري. وهو منشغل طيلة نهاره، لا يعود للبيت إلا متأخرا كل ليلة. وأنه تزوجها عن حب، إذ كـان يتتبعهـا زمانًـا، ويرصد حركاتها. وقد كانت مدرسة شابة بعد فـي مدرسـة للبنات، حتى انتهى الأمر بأن لها اليوم منه خمسـة أولاد أو ستة لا يذكر، أكبرهم بنت في الحادية عشرة الآن.

وقد كان يجدها أحيانًا، واقفة داخل باب شـقتهم، إذ يعود من عمله في البلدية، تكلم أمه أو إحدى أخواته، فتجري تختبئ مسرعة، حفاظًا على التقاليد واستحياء منه، ويلمحهـا تجري في خطوات رشيقة وهي تكـاد تصـرخ صـرخات صغيرة من المفاجأة، وتضع يدها على فمها تكتمها - يعني! - حتى تدخل حجرة أخرى فلا يراها - أو هكذا كان يجري الدور.

وكان يعجب أحيانًا، بسذاجة ودون تفكير كثير، كيف كانت تلك مدرسة تخرج للعمل، وتعالج في أدائها لمهنتها كل صنوف الناس؟

ثم خفت حدة خجلها منه بمرور الوقـت... وهـوه يختي ده غريب؟ وأصبح من الممكن أن يتبادلا تحية قصيرة، سعيدة، وهي ترمقه من عينين سوداوين شرقيتين، خافضـة رأسها قليلاً خجلة ما تزال وهـو يبتسـم لهـا، وذراعاهـا القصيرتان المكتنزتان مع ذلك تخرجان من كميها القصيرين دائما، مدورتين باللحم الشهي.

وطلبت منه مرة، عن طريـق إحـدى أخواتـه، أن يعيرها شيئًا تقرأه، إذ إنها يعتورها الأرق كثيرا بل غالبا، فلا تنام إلى متأخرة ولم يعرف إلا بعد ذلك أنها تنتظر زوجهـا دائما لتعد له عشاءه، وتسهر في سريرها، تقضـم قطعـا لا تنتهي من الشيكولاته وتقرأ أي شيء، خصوصا الروايـات، نعم كانت تحب الشيكولاته كطفلة، هذه المرأة التـي خلفـت قطيعا من الأولاد، وما تزال بجسمها بضاضة شباب يغـص بالجسد الساهر المتيقظ.

وأعارها رواية، وأخرى، وقد كان لديه خزين مـن روايات الجيب، واتصلت العرى بينهما.

وفي مرة، وقفت ببـاب غرفتـه، لا تجـرؤ علـى الدخول، تطل عليه في وهج خجل لا ينطفئ يشـعلها كلهـا بتوقد غريب، تمد له يدا مترددة بكومة من الروايات:

ـ أنا خلصت الروايات دي كلها. عندك حاجة تانية؟

وهو يبتسم لها:

ـ قوام كده؟ إيه النشاط ده كله؟

ـ أصلي بنقرا بسرعة جدا. ما أقدرش أبتدي حاجة من غير ما خلصها. لازم أخاص إللي في إيدي قبل ما أنام.

وأثارتهما معا، هذه الإشارة إلى النوم.

ـ أنا كمان خلصت الروايات الغرامية إللي عنـدي. تحبي تقري حاجة غير الروايات الغرامية؟

ـ ا ! والنبي مالك حق. أنا بنقرا كل حاجة.

وهي تضحك، مع هذه العبارة المحملة بامتدادات من الإيحاء، ضحكة خافتة خجلة، كضحكة البنات الصغار فـي غرارة شبابهن لم يكدن يكتشفنه.

ـ أصلي ما أقدرش أنام بدري أبدا. بالليل لازم نقعد نقرا، أي حاجة، حنعمل إيه؟

وهي ترميه بنظرة خفية، توحي بساعات الليل.

واستطاع بعد ذلك أن يجلس معهـا، فـي حضـور شخص من أفراد أسرته، عادة، إذ تأتي لزيـارتهم ويتصـل الحديث بينهما، والحديث يدور في تلميحات مثيرة واعدة.

كانت قصيرة نوعا ما، ممتلئة شيئًا ما، ولكن خفيفـة رشيقة دائما. وهو يلحظ، باستغراب طفيف، أنها دائما تتحلى له، وتتخذ زينتها ـ ما معنى ذلك؟ من أجله؟ غير معقول! ـ وأن وجهها تحده تلك الخطوط النقية الخالصة، تأسر عينيـه، وتذكره بالجواري الشرقيات في الأفلام الأمريكية والجواري الفارسيات في ألف ليلة وليلة، شعر ليلـي عميـق كثيـف، وعينان تلمعان كأن فيهما وحلاً طريا أسود، لزجا تحت ماء قليل مرقرق، وحدود الوجه قاطعة جريئة حاسمة، فيها هـذا النبل وهذا العناد، وهذا التوقد أيضا في العزم والرغبة.

وكانت تثيره فعـلاً، بشـفتيها اللحيمتـين وثـدييها االكبيرين، هاتين الساقين المـدورتين القصـيرتين، ولبسـها المحبوك على جسد فوار. وكانت تسليه أيضا. فاقتطع مـرة

قصاصة من جريدة، عن قصيدة حب قصيرة، ووضعها لهـا في رواية، مغامرا بنفسه، محتاطًا مـع ذلـك. فالقصاصـة المنسية في رواية لا تدين أحدا، ولا تعني شيئًا إذا اقتضـى الأمر، وهي مع ذلك واضحة المرمى، إذا كان الجو مواتيا.

وأتاه الرد بأسرع مما يتوقع، وبشكل أدهشه، بل كاد أن يزعجه. كتبت له على الفور ورقة جريئة تناديـه فيهـا بحبيبي وتلومه أن أرسل لها قصاصة مطبوعة من جريدة، لا تكاد تعبر عن شيء. لم لم يكتب لها يشرح لها أهو يحبها كما تحبه؟ لقد حاولت أن تخفي عن نفسها هذا الغرام الذي يشتعل في قلبها ـ هكذا قالت ـ ولكنها مضطرة الآن أن تبوح فلـم تعد تطيق الكتمان وهي ترسل له قبلاتها وتتمنى لو بادلها هذا الحب الذي عرفته أخيرا، حبها الوحيد الـذي ملـك عليهـا حواسها وقلبها بعد طول انتظار ـ أو كما كتبت له.

ولكنها كانت حريصة أبدا، فيما يرى، فلم توقع على رسالته باسمها، بل بصلبان متقاطعة، هذه الصلبان التي تقوم مقام القبلات كما يبدو، في اصطلاح العشاق.

وراعه هذا التطور السريع المفاجئ، كأنه لـم يكـن ينتظره في الحقيقة، هذه الأشياء لا تحدث إلا في الروايـات.

وها هي ذي تحدث له، مع ذلك. لكنها متزوجة, ولهـا أولاد هذا صحيح، ولكن ما ذنبه في ذلك؟ أينكص الآن بعد أن قطع هذه المسافة في مغامرته، أو بعد أن سارت به المغامرة هذه المسافة؟ وهاتان العينان المرميتان عليه بطين عميق لذيـذ؟ وهذه القوالب الطرية المطواعة في جسد خبير دفيء؟

لم يتردد كثيرا فأرسل لها إجابته سـريعة. والبريـد الآن قد أصبح سالك الطريق ممهدا، بين صفحات الروايات، فلم يكونا يستطيعان الحديث وحدهما. ودعاها إلى السينما أول مرة، كتابة، إلى فيلم أمريكي، حتى يتجنب شبهة أن يراهمـا أحد من أقاربها أو من معارف زوجها، فهـؤلاء جميعـا لا يرتادون إلا السينما المصرية.

وجاءت متأخرة، ودخلا القاعة فـي تلـك العتمـة المواتية الرفيقة بالهاربين.

وكانت تنتفض فعلاً أول جلستها، من حسها بالخطر وقربها منه على مقعدين متلاصقين، وحدهما في ذلك الجـو المثقل بالصور الباهتة البعيدة عن الشمس، وعـن الشـارع. وكان يسخنه حسه بجسمها قريبا منه ويشعر بوجهه وأذنيـه متوهجة كلها. والعرق الخفيف على وجهه. وهو يحمد للظلام

ستره ومؤامرته. وذهبت يده تتلمس ذراعها الغضة في العتمة وتعتصر ساعدها المكشوف على جانب المقعد تفركـه فـي تماسك متلهف، ثم انحدرت على فخذها تتلمس طراوته مـن على الفستان الرقيق الناعم وتمشي حتى تقع فجأة على الركبة فتنزلق تحتها وتغوص بين اللحم الدافئ الطيب ومقعد السينما الجلدي وتدخل بينهما، ثم تطمئن حينًا هناك، وادعة، ناعمـة بحس الجسد تحت نسيج الجراب الذي يلف أعلى الساق لفـة وثيقة كنانة، ثم تستأنف يده تجوالها واستكشافها، فـإذا يـدها تمسك بأصابعه فجأة، بعنف متشنج، كأنما إثارته لها قد بلغت حدها.

وتتشابك اليدان برهة، في عناق ملتو متراكب بـين الأصابع المتقبضة. ثم يأخذ يتحسس بطـن يـدها المكتنـز وأصابعها القصيرة السمينة، حتى تقع أصابعه فجأة على حلقة معدنية صلبة، خاتم الزواج. لكنه لا يتردد فـي أن يـداعب إصبعها حول الخاتم، يديره حول إصبعها بـبطء ويتحسسـه وهو يبتسم في العتمة ابتسامة راضية ظافرة رخيصة، يقبـل رخصها ويحس حقارتها، ويشرب من متعتها.

ـ عجبك الفيلم؟

فترمقه بنظرة متوقدة ثقيلة:

ـ هو أنت خلتني أشوف حاجة!

فيبتسمان معا. وابتسامتها خجلـة مرتبكـة مذنبـة. وابتسامته واهنة، ولا يرد، وهما يسرعان بالنفاذ مـن بـين جماهير الخارجين من الدار، ويسيران في الطريق الفسـيح، في عتمة أول المساء كأنهما مع ذلك يسـيران فـي حـرش مخوف، يتكلمان ويرمقان أركان الشوارع في خشـية مـن مقابلة عارضة قد تودي بهما، ويتحدثان حديثًا متقطعا عـن الفيلم، وهما يعدان خاف الحديث المعاذير والحجج يـدبرانها للرجوع ويهيئانها حيطة من الانكشاف، تعلة أمام الأقـارب أوالمعارف، أو تبريرا أمام الزوج نفسه، إذا اقتضى الحـال. هذه الاحتمالات القابضة كلها ماثلة في حديثهما الخافت، وهما يمثلان دور العاشقين.

هو ـ على الأقل ـ لا يريد منهـا إلا حسـه بهـذا الجسد الناعم الذي لا شك يحتفظ بذكرى مداعبات زوجهـا، وغيره ربما، من يعرف، واقتحاماته. هذا لجسد الذي لا شك قد ناء، كم مرة، تحت ثقل ذكـورة متملكـة هاجمـة نفـاذة مخصبة. ويثيره هذا الجسد مع ذلك، في تقزز خلقـي، مـن

نوع ما، ويجتذبه ببشاعته نفسها، فلا يملك أن ينتزع نفسـه من عجينتها الموحلة، بل يشتهي أن يهبش لها ما استطاع من متعة، حتى لو كانت تقلب أحشاءه.

وكانا يسيران معا مرة على الكورنيش، فـي ظهـر حار، ينشقان ملح الهواء البحري، وهي يرهقها عرق المشي تحت شمس قاسية لا تكاد ترقق من حـدتها هبـات النسـيم النهاري، وهدير الموج لا يحمل معنى.

وكانت تسير إلى جانبه، وهو لا ينظر لها، تحكي له عن نفسها. اشترت له قلم حبر هدية، فاكتشفه زوجهـا فـي حقيبتها، واضطرت أن تكذب قائلة له إنها اشتره له هـو ـ هكذا، دون مناسبة؟ ولم لا؟ أليس زوجهـا ورجلهـا؟ وقـد لاحظت أن قلمه قد أصبح قديما ... إلى آخر ذلك. وكيـف كانت مضطربة. كانت في حقيبتها رسالة له تصاحب القلـم. ورعبها أمام احتمال الفضيحة، ولكن ا سلم ولم ير زوجها الرسالة، في سروره بهديتها. ومع ذلك. ماذا يهمها؟

ـ كنت طلعت عندك، وقعدت معك في أودتك، بعيد عن الناس بعيد عن كل حاجة. مش كده، مش أجمل أننا نقعد

مع بعض. كده على طول؟ ونظرتها تتعلق به، في الظهـر، في وجد.

هذه الصورة الرومانتيكية العجيبة، كيف تبعثها لـه، وتبث فيها من حياتها، هذه المـرأة المتزوجـة ذات الأولاد؟ كيف يمكن أن تتكلم على هذا النحو ... أي نوع من الحيـاة والوهمية الآتية من الروايات في غرفته معه، علـى طـول؟ وأسرته، وأسرتها، والناس؟

وذهنه واضح صاف تؤوده هـذه المشـكلة طـوال الوقت. مشكلة أنها تتكلم على هذا النحـو، لا مشـكلة أنهـا تهرب معه، فما هناك شبهة احتمال في ذلك. ويلوذ بالسكوت من تعذيب هذا الزيف الذي يستشفه في لهجتها الطفلية، وهي تلثغ إذ تحدثه، ويلاحظ ذلك أول مرة، بدهشة، كصبية غـرة هاربة من المدرسة. وزيف هذه العلاقة بينهما، هذه المـرأة التي تفر من حياتها، تجري إلى جانبه، هاربة بكنزها المزوق من الأمل والرغبة، هاربة من عرق زوجها وملله، وهجمته التي تأخذها مسلمة، كقطعة من أرض الجسد يطأها بالعـادة ويمسح فمه بعد أن يأكل، في رضا المتملك الشبعان، هاربـة من أولادها وبناتها، وقد تحددت بهـم الآن شـكول حياتهـا

واتخذت قوالبها النهائية، كأنهم بضعة من نفسها قد انفصـلت عنها، ولم تترك لها إلا بقية متوهجة من نار لا تعرف كيف تموت، نار لا انطفاء لها في النهاية، دون أن يبلـل الـري حرقتها اللاسعة الأكالة. لذلك كانت تفر إلى حلمها الجنـوني العجيب التافه، وهي تستشرف طعما للسعادة لن تعرفه أبـدا. ومن يعرفه؟ طعم تلك السعادة الهاذية في رؤى أحلام أوليـة مبهمة، مقضي عليها أن تظل أحلاما.

والحيرة تمسك به طول الوقـت. نعـم يسـتطيع أن يدعوها إلى جارسونيرة أحد أصدقائه. أي متعة ينالان فـي غرفة مقفلة عليهما. هذا الجسم المختبئ خلف قناعه، ينكشف له إذن عن كنوزه اللينة، تنفتح له مخابئـه اللدنـة الطريـة ويغوص هو بين الذراعين المتفسـحتين تلفـان عنقـه فـي حضنهما الأثير.

ولكنه لا يصل أبدا إلى قرار. وتستيقظ الآن في نفسه نفرة لا تقاوم. كيف يجرؤ بعد ذلك أن يحيي الرجـل، هـذا الزوج الذي أولدها خمسة أطفال، أو ستة لا يـذكر؟ أيبادلـه التحية إذن، في نذالة، جاره هذا المخدوع؟ لا يصل أبدا إلـى قرار.

واستمرت بهما سورة قصيرة من المقـابلات التـي يخافتان بها، في مشارب الشاي البعيدة الرومانتيكية، في ذلك الجو المبتذل المثقل بالتعريضات المتضمنة البذيئة، المستورة مقابل ثمن. هذه المقاعد في الأركان، والمصـابيح الخافتـة، والجرسونات الفاهمين المؤدبين جدا، وبنات العائلات اللاتي يبدين مع ذلك كالمحترفات، شعر أكرت وثيـاب رخيصـة ونظارات خائفة ومصـممة مـع ذلـك، والشـبان معهـن مضطربون، شواربهم القصيرة المحفوفة وربطـات العنـق الضيقة المحبوكة والبدل المكوية المخصوصـة للمناسـبات، يمثلون جميعا أدوارهم المؤسية المضحكة، يهربون برغبات شبابهم المكبوتة المذعورة، يهربون بها من مطاردة الأهـل وقلة الحيلة وضيقة النفس، ويضحكون ضحكاتهم العصـبية الخافتة، ويبتسمون ابتسامتهم التي تجمد على شـفاههم فـي حمى من الارتباك، ولا تكاد أيديهم تعرف ماذا تفعل بنفسها. هذا الديكور السوقي كله، الفاجع مع ذلك، يـدخل فيـه مـع صديقته تلك، يمثلان دورهما فيه، تحت نظرات الجرسونات المهذبة أكثر من اللزوم، وكلامهم الرقيق إذ يدعونها مثلاً أن تأخذ جاتوه أيضا؟ شاي كومبليه؟ أو جلاس ... جرانيتا؟ أيس

كريم بالشيكولاته، بالصودا؟ وليس معه إلا قـروش يخـاف عليها، ويتظاهر بالثبات وطول الباع. ثم ينفض جيوبه ويقوم بعد أن ينفح الجرسون البقشيش السخي المفـروض، ككـل العشاق الغلابة من الموظفين.

ولم يفعلها أبدا، في نهاية الأمـر لـم يـدعها إلـى جارسونيرة صديقه. وارتخى التوتر بينهما، فقد استراح شيئًا إلى تردده، وإلى سكوته، وإلى تحلل عزمه. لكنه لا يستطيع أن يخلُص تماما من أسر هذا الجسم الممنوح، المرفوض.

وهو ما يزال ينزل السلم كل يوم، يرد الباب خلفه في شدة، فتخرج له دائما دافئة من نومها، بنظرتها المثقلة باللوم والرغبة.

لم يجب على رسالتها الأخيرة. إنني طوع أمرك. أين نتقابل؟ ومتى؟ لقد بلغت الحد في صراحة رغبتها. ودمـاؤه تثور كلما تذكر هذه الكلمات. فلا أنـام إلا إذا أويـت إلـى مضجعك - هكذا - فأنام أنا الأخرى متخيلة أنك معي. إنها لن ترفض شيئًا. الأمر الآن ملء يديه، وعليه أن يقبض على هذه العلاقة بين كفيه، ويسوي، كيفما شاء، صلصالها الطيع. يستطيع منها أن يصوغ قوالب شهوته الناضحة بالمتعـة، إذا

أراد، وأن يخلص حياته من جفـاف شـوارعها ومقاهيهـا وحيطانها. ويستطيع، إذا أراد، أن ينتزع نفسه من تشبث هذا الصلصال الذي يتعلق بأطرافها كطحلب مليء بعصارة ثقيلة، طفيلي يمص من دمه المتخثر بأحلام سوداء.

وهو يصمت، ويتردد في قلب صمته، بعيدا عنهـا. فإنه لم يعد يلقاها الآن. عليه أن يسوي حسابه مع نفسه، ليس لها شأن في هذا. ولذلك لا يجيب على الرسائل. بـل ينـزل السلم أحيانًا مسرعا قبل ميعاده. يفلت، يهرب، ينكص، يجبن، نعم ... لكنه يواصل صراعه ...

أحسه الأخلاقي أم الخـوف وراء هـذا النكـوص؟ وزوجها الطيب الواثق أم شيء لا يكاد يتبينه في نفسه هـو؟ رعب من جسد المرأة الناضجة، من الجسد المـدرب الـذي يخفي في طياته الدسمة أنواعا من المعرفة لا يكاد هو أن يلم بها؟ خوف طفلي إذن يدفعه إلى الهرب أم قلق خلقي، وشهوة للنزاهة لا يكاد يعرف أن يقاومها؟ أيستطيع هو، أن يفصـل بينهما، وأن يتبين نفسه من خلال هذا التشـابك؟ ومـا هـذا الإلحاح على نفسه الآن؟ لم يجهد نفسه، ينخلهـا ويتعمقهـا محاولاً أن يجد تفسيرا، أو لعله تبريرا؟ كأنه يسوغ ذنبا؟ مـا

زال يرى نفسه بريء الساحة. ماذا فعل، في الواقع؟ دعوات للسينما والشاي، ومشيات على الطريق؟ لم تضـمهما أبـدا غرفة خالية، ولم يتجاوز الأمر كله صداقة فيها شـيء مـن الحسية صحيح، ولكن ماذا؟ كل شيء مرجعه إلى الحس في النهاية، النظرة والابتسامة أيضا ونبرة الصوت في التحية قد تكون مكهربة بشحنة لا تدانيها اعتصارة الشفتين وامتزاجـة الريق في تكهرب اللسانين المتلامسين.

وهو يستدير خاف ناصية الشارع، ولا يملك نفسـه فيلقي بنظرة إلى الوراء، قبل أن يغيب، وإذا هي معلقة فـي شرفتها الضيقة الرقيقة، عالية لصق حائط البيت، تقع عليهـا صفحة الصبح الثقيلة الساكتة، فتبدو خامـدة، ثابتـة خـارج الزمن، يثقلها ويشلها الرفض والحبوط.

وراعته، لأول مرة، مقدرته على إيلامها وتعـذيبها. أحس بوطأة الحرمان الذي يوقعه عليها. وهو، نعم هو، الذي يفرض عليها هذا الحرمان. ونبضات قلبه تتسارع مع شعوره بالقوة، والخشية من هذه القوة، الخشية أيضـا مـن إسـاءة استخدامها.

والتفت خلفه فرأى بنتها تجري وراءه، وهي تنهج قليلاً، وتلحق به وتتلفت حولها في خوف، ثم تمد له يدها بورقة مطوية في عناية.

وسطع في ذهنه هذا الوجه البنتي الصغير، كأنه يراه لأول مرة. وجه أسمر رقيق، دقيق الملامح، فيه عينان واعيتان حزينتان، عينان محملتان بفهم مؤلم فاجع، باتهام ليس موجها لأحد، بل للعالم كله، وبيأس لن يجد علاجا أبدا. وشعرها المفلفل المصفف في عناية، وثوبها النظيف الجديد، ثوب بنت مطيعة، أمها تعنى بها.

كيف تجد هذه المرأة من نفسها المقدرة على أن تكلف بنتها ـ بنتها التي تنضج الآن أمام قسوة العالم وأمام نار مراهقتها ـ بأن توصل رسائلها الغرامية؟ وهي مدركة تماما أن البنت ليست بالغبية ولا بالغريرة. هذا الكائن الذي ينمو معرضا لكل الأخطار، مكشوفًا، دون حصانة، أمام كل الهجمات، كيف تغمسها في طين علاقات جسمها بالآخرين؟ هذه الطفلة الأنثى تجري في الصبح وراء صديق أمها، صغيرة أمام الناس والدكاكين، نحيلة أمام الترام الذي يصطك

بقضبانه القوية وصلصلة حديده وزحمة الركاب فيه، تمد إليه يدها، كأن في حركتها ضراعة صامتة، ونداء غير واضح.

" حبيبي

" انتظرني اليوم الساعة الخامسة والنصـف أمـام البوستة أيها القاسي المجرد من الحنان. إني وعـدت نفسـي ونذرت ألا أعاتبك أبدا ولا ألومك على هجـري، ولا علـى شيء، وإن ازددت جفاء وصدا ولا أعترف بشيء من حبـي الذي يشتعل كنار محرقة. هذه الليلـة اشـتد سـعير قلبـي، بالرغم مني سأخولك أسرار قلبي العاشق. فقط أريد أن أراك اليوم يا حبيبي وبعد ذلك سأصمت ولا أتكلم، أيهـا الحبيـب العنيد. "

هذه اللغة التي تأخذها من الروايات، وتلاحقه بهـا. أهي حقًا تعبر عن لهفتها له؟ أفيها الحب الصادق الذي يريد؟ وما الحب الصادق الذي يريد، على أي الأحوال؟

ومن الآن لا يملك أن يرفض. لن يدعها بالطبع واقفة أمام مبنى البوستة، بالقرب من بوابة الحجرية العتيقة، والناس تدخل وتخرج، والفراشون، وباعة الظـروف و الجوابـات وأقلام الرصاص يتغامزون بها. كأنها إذ تضع نفسها في هذا

المأزق، ترغمه وتقسره على أن يمد لها يده فيأتي. تربطـه بمعنى من الرجولة ليس بوسعه أن ينكص عنه، على الأقل، ففي ذلك خسة لا يقبلها أبدا على نفسه. وكـان نـور آخـر العصر يسقط على جسمها المحبوك أمام الجـدار العـريض القديم، وهي تمسك بحقيبتها مسكة عصبية متـوترة. وميـاه ذهنه تضطرب وتصطفق في دوامة تخبط وجهه من الداخل، هل يقرر اليوم أمره؟ أيأخذها إلى شقة صديقه في الرمل، أم يدعوها للشاي في مكان مـا، يتحـدثان حـديثهما المتقطـع المحرج، ثم يودعها إلى غير لقاء؟

أخذ بذراعها وسارا قليلاً وهما يتبـادلان عبـارات التحية المؤدبة، وفكرهما بعيد عن هذه الكلمات التـي تعبـر الهوة المحفورة بين جسـميهما القـريبين، علـى أرصـفة الشوارع. ونحل نور العصر، واشتعلت مصابيح الشـوارع تشع ضوءها الأصفر في تراب الغروب المعلق حول كراتها المنيرة تحت سماء مغبرة حزينة. ودعا إليه سـيارة أجـرة ودخلا وأقفل باب السيارة عليهما وألقى إلى السـائق باسـم محطة في الرمل.

ورد زجاج النافذة التي تفصل بينهما والسائق، فسقط عليهما فجأة جو حميم مغلق من بطانـة السـيارة الجلديـة الوثيرة. والسيارة تقوم مسرعة في المدينـة التـي خفتـت أصواتها من وراء الزجاج، كأنها عالم وحده يجـري إلـى مصيره الخاص، عالم غريب عـن شـوارع هـذه المدينـة وأرصفتها ومارتها الذين يظهرون ويختفون، كشخوص دمى تهرول وتلوح وتشور بأيديها وتفتح أفواهها بلا صوت.

وتزحزح مقتربا منها بل ملتصقًا بهـا وجنبـه إلـى وركها المقبب الصادر من بطن يلفه الفستان فيحيك استدارته الفنية. وامتدت ذراعه تحيط بخصرها الممتلئ وتتلمس طيات جنبها الآخر. فترمقه بنظرة وامقة ثقيلة، منتظرة، كأن فيهـا لهفة مكومة واطئة، كأنها قطة مكومة في سخونة انتظارهـا له. وارتفعت ذراعه تحيط بجسمها، وراحة يده تنفتح تسـتقر على جانب من ثديها البعيد عنه، وقد وقعت أصابعه على زر صغير في خياطه الفستان فنفذت منه تتلمس طراوة اللحـم، وتضغط هينة داعية تنادي من داخلها ردا. فتقبضـت يـدها على يده الأخرى تتلمسها وتضغطها وهي تهمس: السواق.

والتاكسي يجري بهما في الشوارع التي لا تنتهي، والمصابيح تتعاقب، يتعلق بزجاجها المشع تراب أصفر من نور الغروب الباهت. والتاكسي يبطئ قليلاً أمام عسكري المرور، فتهبط يده إلى جنبها تنشد الحماية من نظرة العسكري، تحت الباب المقفل، وتنفتح كفه، مبسوطة إلى أعلى ملتصقة بأسفل الورك المستدير مضغوطة بينه وبين المقعد، وهو يحس أنفاسها السريعة تصعد وتهبط بصدرها الملتصق بجنبه، كأنها سفينة مبسوطة الشراع تجري بها رياح رخية على الأمواج السخنة. والعسكري يمد ذراعه بشارته البيضاء، في آخر الغروب، والمارة يتمهلون بالقرب من زجاج النافذة، ويرمقونهما بنظرات غريبة، ويلوحون بأذرعهم وأيديهم.

ثم يتحرك التاكسي، ويجري في طريقه الذي لا ينتهي بين المصابيح، ويفاجئان نظرة السواق مثبتة عليهما من مرآته الصغيرة العاكسة. نظرة ثابتة محايدة مترفعة.

وهو ينتبه، دفعة واحدة، إلى هذا الظهر المعطى لهما، من وراء الزجاج، صلبا قويا، ساكنًا، لاتهمه مغامرتهما الصغيرة في الطرقات. وهذه النظرة التي تمسح الشارع

أمامها، وتسمرهما مع ذلك في داخل نطاقها ولا تفلتهما أبـدا من سيطرتها.

إنه يوجه قدرهما الآن، مقابل المبلغ الـذي سـوف يرقمه العداد بعد قليل، ويسودهما.

حياتهما بين يديه الماسكتين بالعجلة في حـزم، فـي شيء من الاستهتار قد نشأ من عادة القيادة الطويلـة، كأنـه يقود هذه السيارة الصغيرة التي تشق طريقها، إلـى مصـير غير محدد، منذ أزمان لا بدء لها، منذ أزل قديم تقصر عنـه الذاكرة. وسيظل يقودها إلى متى؟ إلى أيـن؟ هـذا السـائق الصموت الهادئ.

وهو لا يستطيع أن يتذكر وجهه الآن. ولا يرى منه إلا هاتين العينين، بلا عمق، بلا معنى، جامدتين، كأن فيهما كل الأسرار. كم رأى لا شك من أسرار وحوادث ومآس في سيارته. والناس يهرولون إليه فينقلهم إلى لهوهم أو مـوتهم، إلى الحزن أو الرقص، إلى المستشفى أو السينما أو الكنيسـة أو المقبرة. يفتح لهم الباب، ثم يغلقه بعدهم، ويقبض الـثمن. ويعود يقود سيارته. وهو لا يستطيع أن يتذكر الآن وجهـه. إنه يذكر أنه رأى غضونًا في وجه حليق، رأى شـابا بهـذا

الشباب الذي لا يأتي عن الحداثة، كان الزمن يقصر عنه، ولا تمر به أمواجه أبدا. وجه هادئ التقاطيع هدوءا لا ينم عن الراحة، بل يأتي من البعد عن الراحة والتعب معا. أين يذهب بهما؟

وكأنهما لن يصلا إلى جهتهما أبدا. وما وجهتهما؟ يكاد أن ينسى الآن ...

وضمها إلى جنبه بشدة كأنه يهرب من الحضور الماثل أمامه. هذا الظهر الراسخ، لا تبدو منه إلى عينان منفصلتان عنه، ومرتبطتان به مع ذلك، بشكل غريب ليس من هذا العالم، تطلان عليهما من مرآة صغيرة عاكسة، وتدخلانهما في حساب طرقات المدينة كلها بمبانيها ومصابيحها ومفارقها، تدخلانه وصديقته كعنصر ليس بالتافه وليس بالقيم، لكنه هناك، بلا تقويم، وسط عناصر أخرى لا عداد لها. ولا تقويم لها أيضا.

ضمها إليه بعنف إلى جنبه، حتى استدار وجهها إليه في دهشة خفيفة وشيء من السرور.واهتز شعرها إذ تدير رأسها إليه، فمس جانب خده وشم الأنفاس التي تعمر خصلات هذا الشعر الكثيف الأسود، وارتفعت يده تضغط

اللحم على ضلوعها، وتجوس تحت جانب ثديها، كأنما لتدفن نفسها وتخفي سرها.

ثم انحنى فجأة إلى الأمام، ودفع الزجاج الذي يفصل بينه والسواق، وقال له شيئًا بلهجة ملحة.

ولم يرد السواق، ولم تختلج في وجهه نبرة. وظـل ظهره معطى لهما، هادئًا، راسخًا، محايدا، ونظرتـه مثبتـة بهما، وبالطرقات.

والتاكسي يجري بهما في سرعة صـامتة، يحسـان العجلات تغني تحتهما أغنيتها الرتيبة وهي تكشـط أسـفلت الطريق المصقول. والمصابيح تجـري إلـى جانبيهمـا ولا تنتهي، محدقة إليهما بعيونها المنيرة البيضاء التي لا تـرى. وفي السماء حمرة متربة.

في داخل السور

ـ هنية ... هنية.

استيقظت على الصوت الوهنان العجـوز، المثقـل بحمل من حنو الأم وضعف السن وحيـاة طويلـة متعبـة. والصوت يأتيها من الباب الموارب، عبر جو الغرفة وعتمتها الصباحية الهامدة، ونور الشارع يرتعش على الجدار، واهيا متميعا ليس فيه حدة، وما زال في الغرفة كلها نفـس الليـل وزهومته الدفيئة المحبوسة المشبعة بريح النوم.

وهي تتقلب على المرتبة القديمة، وتلف حول وركيها الغطاء الخشن المريح وقد اكتسب من طول التفافه بجسـمها قربا منها كأنه أصبح بضعة حميمة من جسدها، فهي تحسـه يحيطها، إذ تأتي بذراعيها حولها وتثني ساقيها لتضغطا على ثدييها، فتنعم بالتفاف أطرافها حول بعضها البعض، وتقفـل جسدها على نفسه، آمنة إليه وادعة به. مستريحة إلى حسـه المألوف الطيع، لا خطر فيه بل لحظة من الأمان والحـب، فتندفع، في متعتها بنفسها، وقد التفت في البطانيـة الـوثيرة الخشنة، تدفن فمها وذقنها في حجرهـا، وشـفتاها تمسـان

ركبتيها وفخذيها، وقد غرق وجهها في جسمها، واطمأن فـي موجة صاعدة دافئة لدنة القوام من لحمها، فلن يتأتى لهـا أن تحس أبدا بهذا القرب وهذه الطاعة وهذه اللذة السهلة المشبعة من شيء، ولا من أحد أبدا. لا شيء يشبه ذلك. لا شيء أبدا يقرب من هذا الاندماج البحت التام. فإن الانفصام موجود في كل السكرات الأخرى، والشرخ موجود، يصدع كـل تحقـق وكل وفاء.

حتى أمها، تلك التي توقظها الآن، وقد أوهنتها السن، فهبطت بصوتها إلى حنو عجوز يائس مجهود.

ويقبض الآن على قلبها مس رقة بنت تحـب أمهـا، وتشترك معها في مشروع خطر يكاد يشفي على الجريمـة. وهي تشفق عليها من التهديد الغامض الذي يحـوم حولهمـا معا، غير محدد وغير معروف، لكنه مترصـد بهمـا فـي الخارج، حولهما، وفي نفسيهما أيضا.

لكن أمها مع ذلك بعيدة عنها، شخص آخر. وخطوط الشيخوخة التي تشقق جلدة وجهها الطرية، وتميـع عينيهـا المشتتين الوانيتين، وتجفف هذه القبضة من الشـعر الأملـح الذي يتعلق برأسها فتخفيه في منديلها الباهت القديم، كل ذلك

يضع بينهما بعدا لا يستغرق، ويعطي لحنانها نحو أمها عمقًا آخر، كأنه حمل من معنى رساله تأتيها من شخص يحبهـا، لكنه بعيد يقطن بلادا أخرى.

وتمطت في فرشتها، ثم تكورت في حركة مترفـة، ورفعت وجهها من بين ركبيها، ودفعته مغمضـة العينـين، وهي ملفوفة في ملاءاتها، إلى حضن مخدتها الندية السـخنة من طول التصاق خدها بها في الليل، ونشقت من بين كثافـة المرتبة والمخدة، تحت الأغطية، ريح جسمها الشـبعان مـن النوم والدفيء، ريحا معجونة بتقلبات اللحم وعصارات الليل، ثقيلة حريفة دسمة بدسامة الأحشاء والشهوات المدفونة. نعـم ليس لها إلى هذا الجسم وما يحتويه، هذا الجسم الـذي يمـلأ العالم كله، فلا يوجد أبدا شيء خارجه، الحجـرة والشـارع والناس والسماء، ليست كلها فيما تحس - إحساسها الغامض الثخين - إلا أبعادا تحد جسمها وتنتهي على حدوده. فلـيس يوجد ثم خارج لهذه الحدود، والعالم كله إنمـا يقـع داخـل خطوط هذا الشيء الذي لها، وهو كل ما لها، لهـا وحـدها، تلفه بالملاءات وتنشق ريحه الزهمة السخنة وتتمـرغ فـي طياته الداخلية.

ولم يوجد أبدا شيء فيما يعدوه. زوجها الذي كان يأتيها في ليله خشنًا جافًا أوشك على مقاربة الكهولة، وعرقه ممتزج برائحة البصل النيئ وتراب المخازن وعفص شوالات الخيش الجاف، فقد كان الرجل تاجر بصل، حتى زوجها لم تكن تحس اعتداءاته عليها اقتحاما لنفسها، وليس عنها إلا شيء طفيف في إشفاق على هذا الكائن المهجور الذي يأوي إلى جنبها، تحت ذراعها، رأسه الساكت المغمض العينين يكاد يقع على ثديها، مستنفدا، نشف عنه كل حياة، شيئًا جافًا من العظم القديم، كأنه قد مات.

وقد مات فعلاً، منذ سنتين. ولم تستطع أبدا أن تحس أنها فقدته. فإنه لم يكن لها في أية لحظة. وعندما رأته في ملاءات موته، ناشفًا ضئيلاً عجوزا مقددا، على شفتيه رغوة قليلة باهتة البياض، لم تشعر إلا بشيء طفيف من إشفاق، وهي معزولة عنه، ترقبه من بعد سحيق.

ورجعت إلى البيت، بيت أمها، وقد كان لها إيراد صغير من بضعة قراريط، واستأنفت حياة بنتٍ أرملة في الصعيد، مقفلٍ عليها بين الجدران القديمة، تروح وتجيء بين الغرفة على السطح والمطبخ فوق السلم.

لكن جسمها كان يتمرد بها، وجنبات العـالم تنـبض بتطلب لا إسكات له. فدفعها هذا التمرد الغـامض لمطالبهـا الخفية أن تفعل ما لم تكد تفعله بنت في العائلـة، فـي مثـل موقفها، وحجتها أنها لم تعد بنتًا بعد.

كانت تخرج إلى الزيارات مكشوفة الوجـه، كنسـاء الموظفين الحضريات، كبنات المدارس من الجيـل الجديـد، وثارت على هذه البردة التي تتلفف بها النساء في البلد، مـن الرأس إلى القدمين، ويخرجن بها إلى الشوارع لا تكاد تظهر منهن إلى حدقات الأعين اللامعة في هذه الخيمة الفضفاضـة المتحركة السوداء، كأنهن أشياء محظورة تتحاماها الأبصار، كأنهن موضوعات محرمة تتجسد فيها قوى غيـر إنسـانية مخوفة.

ولم يكن ذلك خطيرا ـ وإن كان ما زال مهما ـ في البلد. ففيها يصح أن ترى زوجات الموظفين وغيـرهن فـي ملابسهن الأوروبية، عليها مسحة من إقليمية، صحيح، لكنها حضرية في نهاية الأمر. لكن الخطير حقًا أنها كانت أحيانًـا تأتي بهذا الزي إلى القرية، حيث تقع أرض العائلة. وقد كان في ذلك فضيحة وأية فضيحة، لكنها عنيدة وقد ركبت رأسها

فلم يفلح شيء في ثنيها. وليست العائلة ـ وهم أقباط ـ مـن الفلاحين تماما، بل يقومون بالتجارة والزراعـة ويرسـلون أبناءهم إلى المدارس والكيات، وقد تخرج وعاش منهم فـي القاهرة أطباء ومهندسون وصيادلة، ولكن البلد هي البلد. وما كان يصح أبدا أن تأتي ذلك، هنية. وحتى زوجات الأطبـاء والمحامين من العائلة ما كن ليجسرن على تحدي قانون البلد هذا: ألا تخرج المرأة، في الصعيد، وفي القرية خاصـة، إلا ملففة في أغلفتها السوداء الشاملة.

وحتى المحامون من العائلة، وكبار رؤوسها، وهـم قوم مثقفون، ما استطاعوا أن يبلغوا إلى إقناعها شيئًا. ففـي عينيها لمعة تحد، ومتعة بهذا التحدي، وعلى شفتيها الرقيقتين الضيقتين شيء يتلاعب بأطرافها كأنه سخرية خفيفة، كأنهـا تعرف ـ وهي التي لم تكد تكمل تعليمها الابتدائي ـ أشـياء لم يجسر أحد من هؤلاء الناس على معرفتها، وتواجـه فـي معرفتها تلك حقائق يفرون منها دائما، وهي فـي حركتهـا العصبية المستوفزة، وجسمها الصغير المتوتر بحدته التي لا تكاد تخمد، وضحكتها الجريئة، ومشـيتها الواثقـة الرقيقـة الأنثوية، تفحمهم جميعا، لا بالكلام بل بمجـرد حضـورها

وبدفق حيويتها، لا بل هي تثير فيهم دائما خوفًا وقلقًا، كأنهـا تضع أصبعها على جروح مقفلة، قد رمت على حساسية غير مستقرة، فتمسها وتؤرثها وتكاد تفتحها، تكاد تفتح فيهم أبوابا قلقة على تيارات كانت حياتهم كلها مجهودا متصلاً لقمعهـا. نظرتها اللامعة اللامبالية ـ نظرة قطـع فرعونيـة ـ مـن عينين سوداوين مفتوحتين على آفاق من الجسم تريان كل ما فيه، ولا تريان عيبا فيه، وجسمها كله الذي يعرف نفسه ولا يخاف من نفسه، ذلك هو الخطر الذي كـان يتهـدد هـؤلاء الناس فيغمضون عنه أعينهم، ذلك هو الخطر الذي كان يحيق بها أيضا، ويرود أطراف حياتها.

ومعرفتها الخاصة الخفية لم تعد اليـوم سـرا، فقـد تناهى إلى العائلة، وتواتر بين الناس، خبـر علاقتهـا بهـذا الفلاح المسلم الذي كان يزرع لهم قراريطهم فـي القريـة. والشائعات ملحة لاذعة تطن حول الرؤوس كذباب عنيد.

هل يبيت هذا الفلاح ليلته، حقًا، في بعض الأحيـان، بالبيت؟

مستحيل، وأمها ...؟

هل يرى، صحيح، وهو يخرج مع الفجر من الشارع الضيق في البلدة النائمة ...؟

وما سر انتقالاته المريبة من القريـة إلـى البلـدة، وتردده الكثير على البيت؟ للحساب؟ ومناقشة أحوال الزرع؟

لم لا يذهب إلى كبار رجال العائلـة الـذين كانـت مهمتهم دائما أن يتولوا هذه الأمور؟ لم يذهب يناقشـها مـع هاتين المرأتين في بيتهما الضيق المعزول؟ هل هو يـذهب حقًا، على أية حال، كما تصر الأقاويل أنه يفعل؟

الأم، بصوتها الواني المجهود، تنكر كل ذاك جملـة، والبنت لا تكاد تسمعهم حتى تضحك ضحكتها العصبية تلـك المثيرة، وتنفي كل شيء في استخفاف، فتزيحه عنها ببساطة، ودون انفعال، اتهامهم ذاك، دون مبالاة.

ـ هنية، جومي يا بنتي الوجت راح.

فرفعت رأسها عن المخدة، وتهدل حولهـا شـعرها الأثيث، ما من أحد يدري من أين جاءت بهذه الثـورة مـن الشعر الأسود الثقيل الكثيف، على رأسها الأسـمر الـدقيق الملامح، كأنها بنت من مصر القديمة.

ونزعت الملاءات عنها، فدخلت نفحة من ريح الغرفة الدافئة بين ساقيها العاريتين تحت جلبـاب نومهـا الأسـود السابغ، وهي تهب نازلة من على السرير، فتقع خفيفة مرنـة على قدميها، وتحس وبر الكليم الصوفي الخشن يدغدغ باطن قدميها، وهي تبتسم لنفسها ابتسامة خاصة، غريبة.

ـ الساعة كام يامه؟

نعم عليها أن تسرع الآن، فقد أوشـكت الحمـوة أن تعلو، وقد تأخرت في الفراش.

وعندما طلعت إلى السطح، سقطت عليها فجأة سماء الصعيد، ثقيلة، مسدودة، كصفحة من رصاص أزرق كـاب، لا تطاق. وقد توقف الهواء تحت هذه السماء، كأنه مشـدود حتى ليكاد ينقطع في مجهود يستهلك منه آخر طاقته، مجهود احتمال هذه السماء، يتوتر تحتها، مهتزا دون لحظة راحـة، تحت حمله الذي لا يكاد ينهض به، كأنه عضلة تبـذل كـل عصارة قوتها للقيام بثقل رازح لا يرتخي عنها لحظة واحدة.

وعبرت ساحة السطح إلى غرفة الفرن كأنها تشـق موجا من الحر والجهد يقاومها في ثبات مسدود لم يصل إلى توازنه القلق إلا بجهد جهيد.

ورأت أمها أمام الفرن، مقعية ترمي إليـه بـالوقود، وتعد عدتها لإشعاله، تحركها حياة صغيرة منشغلة مهمومة، مطوية. وعاودها مس تلك الرقة المحزنة التي تداعب قلبهـا في لطف لا صبر لها عليه، في حساسية مرهفة كلمسة شفرة حادة عذبة المقطع، كجرح فجائي في غاية الرقة، وحلو.

لكنها وقفت بباب غرفة الفرن، مع ذلك، تسلم علـى أمها من بعيد. فلن تستطيع أبدا أن تذهب إليها، وتحيط كتفيها الواهنتين بذراعها وتقبلها، وإن عذبتها الآن رغبتها في ذلك. حركة مثل هذه ليست بالمألوفة بين البنت وأمها، عنـدنا، ولا معرفة لها أبدا بها أيضا. لن تعرف أبدا كيف تنقل إلى أمهـا رسالة هذا الحنان الذي يقطع في روحها جرحا الآن، ولـن تعرف أمها شيئًا وستذهب.

واستدارت تشق موجة السماء الحارة الثقيلة المتوترة أبدا باهتزاز عزم سخن مسفوح حتى آخر قطرة.

وخف عنها حملها إذ تسير في ظل البيوت القديمـة المتقاربة في شارع البلد، وهي تخطو على التراب المرشوش في الطريق، وقد انزاح عن كاهلها لحظة، عبء حبها لأمها وعبء السماء، فراحت تذرع الشـوارع الضـيقة الملفوفـة

المتراكبة البيوت، نشطة في ثيابها الأوروبية المنسرحة على هيكلها الضيق الممشوق، وقد انشغل ذهنها بمهمتها.

بالأمس جاءها من زكري خبر يدعوها للذهاب إلـى الجنينة في الغد؛ لتسوية حسابات الموسـم ومناقشـة أمـور الأرض، مع بقطر ابن عمها، وشفيق.

وقد كان الذهاب إلى الجنينـة، فـي أرض العائلـة، يشوقها دائما ويثيرها. كأنها ما زالت تحتفظ بسحر نزهاتهـا الطفلية فيها، وهي لا بد اليوم راجعة بشيء مـن الفاكهـة، هدية، وربما قبضت شيئًا من حسابها وحساب أمها. وقد كان يمكن أن يأتوا لمحاسبتهما في البيت، هذا صحيح، لكن فكرة الجنينة، والفسحة، والظل البليل تحـت الأشـجار الضـخمة العتيقة وخرير المياه الطينية القليلة في الترعة الضيقة التـي تنسرب، كالخيط الملتوي، من الساقية، هذا الصوت المـائي الرطب في الظهر الحار المفتوح المنفسح أمام نسيم الخـلاء، ذلك كله يدغدغ في أعماقها حسا بالتشوف واللهفة، والنزعـة إلى الانطلاق، ويهدهد مع ذلك مخاوف مبهمة. إنها لا تخشى هؤلاء الناس، أقاربها، ولكن تشعر أمامهم بالغربة، كأنمـا لا يربط بينهم جميعا دم الأسرة الواحدة، كأنها لا تعرف من هم.

وهي لا تنظر إلى عيونهم مرة إلا رأت عالما بعيدا مقفلاً لا صلة لها به. وأرقامهم وحساباتهم وهمومهم التي لا تنتهـي عن المحصول والبيع، والإيجار والرهونات، لم تحاول أبـدا أن تفهم شيئًا من ذلك كله، وكان يبدو لها كل هذا الهم عنـاء سخيفًا لا ضرورة له، ولا وزن له علـى أي حـال. وكـان يسئمها ويضجرها الحساب، ولا شك أنهم يغشونها، لكـن لا يهمها ذلك، بالرغم من أن كل قرش، لا شك، ينفع.

واجهت النيل فجأة، فنزلت من على شارع البحر إلى رصيف المعدية التي تعبر بها النيل إلى أرضهم فـي الشـط الآخر، ومنها إلى الجنينة. وكان على الرصيف بضعة أفندية يلبس أحدهم طربوشًا وبذلة حائلة،ويحمل أوراقًا، ربما كـان محضر ا، أو من رجال الإدارة أو المحكمة، والآخرون تجار ومزارعون وفلاحون، يجر أحدهم معه جاموسته يعبر بهـا النيل، ذاهبين إلى القرية التي تقع على بعد قليل من الجنينة، وامرأتان أيضا في بردتيهما السوداوين، متلففتين في سخونة الضحى العالي، مندفنتين في الأنسجة الثقيلة الحالكة، حتى لا تراهما أعين الغرباء.

وجاءت المعدية فخطت إليها، وشـعرت بأرضـيتها القلقة تحت قدميها تتأرجح هينة على صـفحة مـاء الشـط، وتهتز فتشعرها، تحت جسمها الواقف في توازن حرج، بهذا الخطر الخفيف اللذيذ الذي يلعب طافيا في رقة هشـة لكـن متماسكة، على مياه النيل.

وإذ تحركت المعدية هب الهواء آتيا من على النهـر العريض الفسيح، ومياهه تجري تحتها فـي جـلال هـادئ، تشعرها بشيء من الرهبة لا يكاد يستبين، وقد انزاح تمامـا عبء السماء الثقيلة عنها، كأن في النهر سحره الإلهي القديم، فإذا بالسماء ترتفع عن أكتاف الناس طالما كانوا بين ذراعيه ـ وإذا صدورهم تنشق هواءه إلى أعماقها، رحبة منفرجـة الآفاق، تمتد في داخلهم حرية ممدودة شاسعة.

وكانت المعدية العريضة تضطرب فوق تيار المـاء العريض المليء، والجاموسة تخور فجأة رافعة رأسها نحـو وقدة الظهر تحت السماء، ثم تعود تجتر ويتساقط من خطمها على خشب المعدية خيط أبيض من لعاب طويل.

وهم يقتربون من الشط الآخر، وقـد بـدأ النخيـل والشجر في أكوامه المتقاربة يكبر رويدا ويتضـح ويتحـدد،

ويقبض على قلبها شيء كالخوف مرة أخرى، إذ تنتقل من عالم مألوف إلى أرض مجهولة محفوفة بالتهديدات تترصدها بين الأشجار الأثيثة التي تترقبها كعيون جائعة من عالم آخر. كأن هذا النهر سوف يلقيها، ويهجرها، وحدها، على هذه الأرض، وسوف يسترد لنفسه ما أعطاها لحظة من حرية ورحابة وامتداد فسيح في الصدر، ثم يذهب في طريقه، غير مفهوم، إلى مصيره الذي ليس من مصير الناس.

أما هي فتقع على الشاطئ، بجسمها الصغير الذي هو كل ما لها هنا في العالم، كل ما لها في أي مكان. جسمها الضيق النابض الذي تنطبق جوانبه على جوانب العالم مرة أخرى، فتخطه وتحده وتقفله. وأحست بالسماء تعود فجأة فتنحط عليها. لقد انتهت الرقية. وهي إذ تخطو على تراب الطريق الذي يفضي إلى الجنينة، تهبط السماء عليها كيد صلبة، تطحن كتفيها، وتكاد تغور بها في الأرض. نعم، قد تأخرت، وها هي حموة الظهر قد علت وقد عاد الجو مسدودا، في حرارته المرتعشة، بين غيطان الذرة تحيط بها كجدران من الخضرة المرتفعة المتراكمة يعلوها التراب.

وهي تكاد تشهق وتختنق في الهواء المترب المشـدود بـين الأرض والسماء المنطبقة.

وكان الفلاحون يماشـونها بضـعة مـن الطريـق، بوجوههم السمراء الصفراء، تنفتح فيها، ولما تكـد، عيـون مسحوقة جائعة فيها كل الحزن وكل الخرس وكـل الشـقاء الذي لم يبحث أبدا لنفسه عن معنى، ولم يشتبه أبدا في وجود شيء آخر، شقاء بليد من طول رسوخه، وهو قـوام الحيـاة كلها. وأحست بنظراتهم تماشيها، وفيها ألمهم الجاف الصلب الذي نزل عن كل اتهام وعن كل رغبة في الفهم أو التبرير، هذا الألم الذي ليس له إطلاقًا غير ثقله الرازح الوطيد الـذي لا يطاق، والذي يستمر مع ذلك، ويطاق، دون أن ينال منـه أقل أمل، فهو ألم صرف خالص لا يعي شيئًا إلا ثباته الـذي لا يتزحزح أبدا.

ثم انشعب بهم الطريق، فمضى الفلاحون إلى القرية، وأخذت هنية ممرا ضيقًا إلى الجنينة، وارتاحت الآن من هذه النظرة التي كانت تقع عليها كأنها تقع على حيوان غريـب، غير مفهوم أيضا كل شيء، فكل ما يحيط بهم غير مفهـوم،

ولا رغبة لديهم في أن يكون مفهوما ـ حتى هذا الثقل الذي هو وزن حياتهم.

نعم، أحست الآن أنها ليست شيئًا. هذه النظرة التـي ترودها، وتتخايل لها من تلك الوجـوه الصـفراء المسـودة الناحلة، وهذه السماء الفادحة الثقل، تعود فتشعرها أن لـيس لها شيء. ليس لها حتى هذا الجسم الذي تهده حرارة الظهر ونبضة الإجهاد في دماء بطيئة سخنة، وهذا العـرق الـذي يلتصق به التراب وينضح تحت إبطيها، وفي داخلها، بخوف غير واضح لكنه يعتصر عقدة صغيرة صلبة عنيدة في نسيج أحشائها، خوف من الغيطـان المتقاربـة الكثيفـة الضـيقة المسالك، من قصص العصابات والقتلى والخطـف والفديـة التي دارت في هذه الطرق الضيقة بين الغيطـان، هجمـات الرجال الذين يطبقون على فرائسهم، متحركين بعنف بـدائي وحشي، بتمرد الإنكار الكلي، بالدم الـذي يقـامر بالسـماء والأرض جميعا في يأس لم يعد يقبل الخضوع الذي لا نهاية له.

وهذا اليأس، ورغبات الرجال، مـا زالـت هنـاك. تحسها متعلقة بهذه العيدان مـن الـذرة المليئـة المتضـامة

المكسوة بتراب خفيف. كأنها قد انفصلت عن الرجال - تلك الرغبات الناهشة اليائسة - وتعلقت بحرارة الظهر، نـزوات لا ري لها ولا استرضاء أبدا، شـهوات التمـرد وجمحـات الخطف والهبش والسلب والعدوان خارجة من ظلمة أركـان النفوس التي سدت عليها كل السبل، اغتصابات اكتسبت حياة مستقلة عنيدة غير ملموسة، تبث في الظهـر كلـه أنفاسـها القابضة المتهددة اللاإنسانية.

وهي إذ ترمق الغيطان خلسة، وينوشها هذا الخوف، في عمقها، تطأها ضآلتها فلا تعود تحس بقيمة، أيـة قيمـة، لنفسها. وتسير إلى الأمام تتعلق بأطراف شجاعتها القديمـة، تتشبث بها كخشبة في بحر غرقها.

وهي تسير وحدها في هذه الوحشة المصمتة التي لا فراغ ولا هواء فيها، وتشق هذه الامتلاء الثقيل السخن الـذي لا يكاد ينفتح لمرورها حتى يوصد ثانية، أمامها وخلفها ومن كل ناحية، كأنه، إذ تنسل في قلبه،يعود ثانية فيحيط بهـا، لا يعترف بها، وإذ تشق شرخها الرفيع فيه، يعود فيلتئم علـى الفور من حولها، ينكرها، ويلفظها باستمرار، ويمحوها.

ووجدت أمامها سور الجنينة فجأة، على غير انتظار، كأنه قام في نهاية الطريق، في لحظة واحدة، ونهض من التراب قبالتها، ضخما بأحجاره القديمة الصلبة لم يكد طول مر الأيام أن ينال منها. كانت الجنينة ميراثًا لعائلتهم من قديم، ولعل أحد أجدادها اشتراها من أحد كبار الملاك من زمن بعيد. وكانت رصيدا من الفخر والكبر للعائلة كلها، هذه الجنينة الواسعة العتيقة الغنية، على أرضها المرتفعة شيئًا، بسورها الضخم المتين.

وردت لوحة الباب الخشبي العتيق فصر على مفصلاته الصدئة. وتركت قدماها تراب الطريق الضيق الخانق إلى فسحة من طريق واسع، تنمو الأعشاب والحلفا الشائكة على جوانبه، تحت الأشجار الغليظة الوارفة ذات العضلات الخشبية المتينة.

وكانت الحديقة خالية، صامتة، واسعة، تتبدى في نهايتها، من بين جذوع الشجر المفتولة والسامقة، أحجار السور العتيقة المحملة برسالة ملغوزة لا تنطق. وارتفعت من أشجار اللبخ الممشوقة، فجأة، صرخة غراب يفزع إلى السماء، وأجنحته تصطفق.

ودارت بنظرها في هذا الامتداد الخـاوي. وسـارت إلى سقيفة في آخر الجنينة، وهي تحس أنها وحدها في العالم، وحدها حتى دون خوف، ودون أمل، ودون رغبة. وحـدها تماما كأن العالم كله قد أفرغ مرة واحدة من الناس جميعا، بل كأن الناس لم يمروا قط على صفحته، كأنهم فكـرة مغـايرة أجنبية لم تخطر له على ذهن، ولم يكن من الممكن أن تخطر على ذهنه ـ الناس ـ عنصرا غريبا عنه، لا صلة له به.

الوحشة، وهدوء الأرض التـي تتـنفس حرارتهـا المتربة الخاصة، والطرق المصنوعة كي لا يمشي فيها أحد، والساقية تدور وحدها، تجرها هذه البقرة المعصوبة العينين، دون توقف، منذ أزل لا بداية له، دون أن يسيرها أحد، كأنها انبثقت هناك، من تلقاء نفسها، تجوب دون انتهـاء دائرتهـا المقفلة المتصلة.

كانت وهي تسير نحو السقيفة تشعر بشيء كأنه سلام الرضا والتسليم وقناعة بهذه الحديقة الواسعة المهجورة منـذ الأبد، بأشجارها العتيقة الملفوفة العضلات، وطرقاتها الفسيحة الترابية، وأرضها غير المستوية، وأكوام ترابهـا، ونخيلهـا

السامق، والمعوج، وسمائها البعيدة الزرقاء المحايدة، وهـذا السور الذي ينتهي عنده كل شيء.

وانحرفت، وهي تسير كأنها ليسـت هنـاك، نحـو السقيفة التي ينتظرها فيها أقاربها.

بقطر، ابن عمها مباشرة، يكبرها بعشر سنين، وهي تعرف ذلك، وتحفظه، كأنها تجد فيه شيئًا من الفخر، وصـلة أخرى تربط بينهما. وكم هو قوي متين الأسـر، فيـه تلـك السمرة الرائقة، ولخطوط وجهه استقامة وصـرامة، وفـي عينيه نظرة ثقة وتملك، طويل فارع الطول، ونزيـه. وهـو أبرز رجال العائلة وآنقهم سمتًا أيضا. وهو الوحيد فيهم الذي لم يكد يكلمها بشيء في موضوعها ولم يكد يوجه لها سـؤالاً أو نصحا أو لوما، أكثرهم قصدا في كلمته، وأكثرهم إدانـة لها، بنظراته المتغلغلة التي يسودها بها، ويحيلها أمـاه إلـى شيء صغير. وهو الوحيد أيضا الذي تستشعر أمامه هبوة من الخوف تتطاير في نفسها، وإعجابا فسيحا.

أما شفيق فقد كان قد رجع من الجامعة منذ سنوات، وهجر ملابسة الأوروبية، واطمأن إلى بيته وأطيانه وجلبابـه الواسع، واكتسب لحما رهلاً يحيط بكرشه وذقنه، وهو يكـاد

يكون ناعما، وتقاطيع وجهه بسمنتها وبياضها رخية دسـمة، تتألق فيها عينان صغيرتان نائمتان. وقد كانت تحس عينيـه مع ذلك تعريانها، دائما، تشتهيانها وتحومان حولها، تـدوران على سطح جسمها، دون جرأة على لمسها أو الدخول إليهـا. كانا نِدين من عمر واحد. وكانا - قبل أن يذهب إلى القاهرة في الطفولة الباكرة - يلعبان معا. لكنه تزوج امرأتـه تلـك النحيلة الممصوصة، لأطيانها. وتركها تقـع علـى زوجهـا الشيخ، وأمن إلى الدعة والراحة في بيته الكبير، وإلى ليـالي السكر التي لا تنتهـي إلا مـع الصـباح. وهـو إذ يـأتي موضوعها، عصبي يتدفق بالثورة والشتيمة والتهديدات.

يبقى زكري. رأس العائلـة فعـلاً وأكبـر رجالهـا المعدودين سنًا ومقاما وهو لا ينتهي مـن أعمالـه، تـأجير ومزارعة وإدارة ووكالة، ولا يزال رائحا غاديا يهد الأرض تحت قدميه الغليظتين، بجسمه القصير السمين. لكن شخصيته القوية تنتزع الاحترام، وحيويته لا تنفد ولا تهمد، وصـوته الأجش المبحوح فيه عمق من ذكاء، وهولا يحـول عينيـه لحظة عن المصلحة والمكسب. وهو أرقهـم لهـا حـديثًا إذ يكتسب صوته تلك النبرة الأبوية الملاطفة الوقور، ينصـحها

ويدعوها أن تراعي على الأقل ما يتقول به الناس، ومركز العائلة. والمسيح الرب يدخل ويخرج من حديثه، وشرف الآباء، وموقفنا كأقباط، ترفرف كلها كالأعلام، عالية فوق كلماته المبحوحة التي تسقط في النهاية إلى الملال وما يشبه اللامبالاة.

سيحاسبها الثلاثة، كل فيما يتعلق به، عن محصول الموسم. نعم، وستنتهي من الحساب سريعا، وتخرج برمانتين وسباطة بلح، وترود الجنينة وحدها. وتشم هواء العصر.

ودهشت قليلاً، قليلاً جدا، من أنها لم تلحظ السقيفة قبل الآن، هذه الحيطان العريضة المنخفضة المكسرة الأطراف تغطيها فروع من النخل الجاف، وحصر، وأعواد حطب القطن المجدولة المرصوصة. لم تلحظ أن السقيفة هي هذه الحيطان المنخفضة المكسورة.

ودخلت السقيفة دون أن تلقي حتى نظرة أخيرة على الثروات المهجورة التي تخلفها وراءها، هذه الأشجار والنخل، نازعة نحو السماء بلا جدوى، وهذه الساقية تدور دون توقف، دؤوبة مستمرة صامتة منذ زمن لا تاريخ فيه.

ودهمتها إذ تخطو إلى الداخل عتمة خفيفـة مشـبعة برائحة التراب والظل الرطيب.

وجابهتها المسوخ الثلاثة في العتمة البليلة الترابيـة. وتجمدت نفسها على الفور. وفارقتها كل مقدرة على العمل، حتى على المشي خطوة واحدة أيضا، وقفت على الباب، ولم تعد تملك لنفسها شيئًا كأنها هنا أيضا ترقب نفسها من بعيد.

وكانت تحيط بهم جميعا رهبة نهائية قاضية لا فكاك منها. شفيق بعينيه اللامعتين في وجهه الدسم المندى بعـرق خفيف، كأنما يغتصبها الآن بعد طول انتظار. وزكري بعيد، كبرج خلفي من هذا الهيكل المنخفض الضخم الثابت القـديم الذي يواجهها الآن، والذي عليها أن تدخله. وبقطر هو عمود هذا الصرح، وقد وقف في غير تعجل، وألقى بسيجارته إلى الأرض في حركة هادئة، وهب شامخًا كأنه كاهن فتي قـوي في كنيسة عتيقة أثرية. وبوجهه الأسمر نبل مصمم صـليبي فيه بشعة الحكم، وحتمية لا انحراف عنها، لا مفر أمامها، لا تخطر بالذهن أمامها، على الإطلاق، فكرة الهرب ـ فهـي تسحق، دون أدنى جهد، كل مقاومة، وتقبض على ما هو لها منذ البدء في ملكية واثقة نهائية.

وسمعته يقول كأنها في حلم، من آخر هـذه العتمـة التي تتضح لها قليلاً قليلاً في نور غريب:

ـ تعالي يا هنية.

ولم تستطع أن تفتح فمها، ولا أن تحـرك قـدميها. وخيل لها أنها ستنهار الآن، في أية لحظـة، زايلتهـا كـل شجاعة كأنها لم تكن أبدا تلك البنت الجسور الساخرة التـي تخط طريقها بنفسها في وسط المدينة، وبالرغم من الجميـع. لكنها لم تقع، وهذا الانتظار الحميم يشغلها عن كـل شـيء، انتظار أن تقع الآن، هـذه اللحظـة، علـى الأرض. لكـن اللحظات تمر، وهي لا تقع بل تقف معلقة أبدا علـى حافـة الوقوع، مهتزة في توتر يستنفد منها كل طاقة، ولـيس فـي مقدروها شيء على الإطلاق.

ورأته يقترب منها بخطوات واسعة ليس فيها حدة، بل واجب، ورأت تقاطيع وجهه قريبة فجأة من عينيها، مكبـرة ألف ضعف، وفي نظرته تصميم لا نهاية لعمقـه. وأحسـت حركة مضطربة، وإذا بيدين تقبضان فجأة على يديها، ويدين تقفلان فمها، ويدين تطبقان على عنقها، وإذا فمهـا ينسـحق

فجأة على صدر قوي، فتسد شفتاها إلى الأبـد، وإذا بيـدين تأخذان رجليها، فترتفع مرة واحدة عن الأرض بين أجسـام الرجال، محاولة فجأة في شبكة من الأيدي والأصابع القوية. تحيط بها كلابات حية غائرة فـي كـل أطرافهـا، والأذرع والصدور أسوار وجدران قابضة مطبقة.

عندئذ، في لحظتها تلك الواحدة، انفك الأسـر الـذي كان يلفها من الداخل، وانبثقت في أحشائها نزعة حارة نحـو الحياة، لهب كاوٍ مشرق غير عاقل يحرق داخلها شوقًا إلـى البقاء، توقًا إلى الاستمرار، رغبة في مواصلة امتلاك هـذا الجسم الذي يقع الآن أسيرا في أغلال من الأيـدي القابضـة التي لن تنفك. وهي الآن قد انفجرت كتلة متخبطة متملصـة من الأطراف والعضلات الحية تناضل بين هؤلاء الرجـال وتبذل مجهودا لم تكن تعرف من أين تستمد القوة عليه، فـي تصميمها على التفلت، في عزمها على الانطلاق، في نزعتها التي لا ترد إلى الخروج تحت السماء، إلى الانفلات من هذه الأذرع والصدور. الانفلات. الانفلات.

وصوتها الذي تريد به أن تملأ جنبات العالم لا تخرج منه إلا حشرجة تختنق في عمق حلقهـا. ويـداها تكـادان

تتكسران في يدي زكري هذا لذي يضغط ظهرهـا بكرشـه حتى يمتلكها تماما. وضغط هائل متركز فـي أصـابع مـن الحديد يقبض الآن على عنقها، وهي تحدق في وجه بقطـر الأسمر العنيف المكبوح النافر العروق الذي لم يعد إنسانيا في جهده الضخم المبذول، جهـد كـل جسـمه وجهـد يديـه المعتصرتين، بل كل أجسام الرجال في كل الأراضي في كل الأزمان، جهد كأنه يأتي من جسم العالم كله، وهـو يطبـق عليها، ويسد مسالك التنفس عليها، يخنقها دون هوادة ويتزايد كل لحظة، ويثقل وطؤه ويطبق ضغطه، وهي تحـس فجـأة رجلين تنفذان بين ساقها العاريتين المعلقتين، مـن الـداخل، ويدين تضغطان على كاهليها في مسكة متوترة كأن فيها ثملاً غريبا مميتًا، وهذا جسمها الذي تريده بكل قواها أن يتمـزق مفلتًا،يستسلم الآن بالرغم عنها لضغط متماك من جسم آخـر طالما عراها بنظرته، يستسلم له كأنه يقبله ويعنو له.

لكنها ما تزال تصرخ، ولا صـوت يخـرج منهـا، صرخة صامتة تهد جنبات العالم، وتنفلت في تمرد لن يقبـل أبدا ولن يخضع أبدا. وتخبط بقبضتيها المغلولتين على أحجار

سور لن يستسلم لها ولن يخضع ولا تني مع ذلك تخبط عليه وتدقه وتحطمه، لكي تنفذ منه إلى الفضاء تنطلق. وما تـزال تضرب الأرض بقدميها في عناد وإصرار لن يهدأ إلى الأبد. لن يهدأ.

أسقط الرجال ما بقي في أيديهم منها، علـى الأرض ـ وخرجوا ينشقون نسمة هواء، ويشربون سيجارة، تحـت السماء المغلقة المحايدة.

أبونا توما

كانت ليلة في أول الشتاء، القمر مشرق فـي سـماء الصعيد، والصحراء تئن فيها الريح، والدير يبـدو بأسـواره الضخمة ومنكبيه الكبيرين، نصفه غارق في الظلمة، ونصفه متوهج بنيران القمر البيضاء، كحيوان خرافـي مـن رؤيـا يوحنا. وكان أحد الرهبان يطوف على السـور العـريض، للحراسة، معلقًا إلى كتفه بندقية عتيقة، حتى إذا وصل إلـى القبة الكبيرة جلس تحتها، مستندا إلى الليـل فـي العتمـة. والنجوم القليلة تلمع بعيدا عن القمـر فـي حجـر السـماء الحريري.وثم عواء ذئب يسري بين الرمال.

وعلى مبعدة من البناء الضخم تتناثر أبنية صـغيرة قليلة متداعية، يتكوم معظمها في صمت، مهجورة. علـى أن النور يشع في صومعتين متجاورتين منها، باهتًا في ضـوء القمر.

وبين الدير الشامخ وبين هذه الأبنية المبهمة كالمقابر تتخذ الحجارة والأنقاض أشكالاً غريبة في الليل المقمر، كأنها أجسام متصلبة في كابوس، ترمي بأذرعها متشنجة. فـاغرة

أفواهها بلا صوت. وثم جماجم قديمة مرمية، بيضاء من طول التعرض للشمس، تبتسم أبدا عن نواجذها وعن عيونها المفتوحة بلا راحة.

كانت الذئاب الضارية، في القديم، تقف على أبواب هذه الصوامع في خشوع، لتحرس سكانها القديسين. وكان الرهبان يقضون فيها أيام التجربة على الأرض، في وحدة مباركة بالروح. لكن الرهبان هجروا هذه الصوامع شيئًا فشيئًا، وهجرت الذئاب هذه الناحية من الصحراء، أما البذور التي ألقاها الزارع الصالح فلم تهلك كلها في الرمال والصخور. بل نمت وترعرعت منها نبتة طيبة أو اثنتان، وها الضوء الأصفر ما يزال يشع من هاتين الصومعتين، في انتظار ملكوت السموات، في هذا السفح الموحش المهجور إلا من الثعابين، والثعالب التي تأتي أحيانًا فتقف على الباب بهدوء وتمضي وهي تقرقر بأسنانها.

وأبونا توما وأبونا متّى لا يفتآن يصليان، يترنمان بكلمات ا وتسابيح الآباء والقديسين. كانا يذهبان في الأعياد إلى كنيسة الدير، ثم يعودان محملين بزاد روحي من التقوى، وبقفف مملوءة بالخبز الجاف يأكلانه على مدار السنة مبللاً

بالماء الذي يمتاحانه بأنفسهما من البئر في صحن الدير - كانا يعيشان في عزلة النساك الأقدمين - ثم يتناولان القربان المقدس وينالان بركة الأب الرئيس.

وكان أبونا توما يرجع بكمية كبيرة من الورق السميك الأصفر، وحزمة من بوص الغاب للكتابة، وزجاجة كبيرة من الحبر الأسود ومثلها من الحبر الأحمر. فقد كان ناسخًا يقضي أيامه ولياليه - بعد أن يفرغ من قراءة الكتاب وأداء الصلوات والترنم بالمزامير والتسابيح - في نسخ الكتب المقدسة والأشعار التي قيلت في تمجيد الحمل الوديع وتقديس أم النور، وفي زخرفة الحواشي بالرسوم الطاهرة، وتدوين سير الشهداء والقديسين. وكان يحب أن يرسم العذراء وعلى ذراعها الطفل الإلهي، وحول رأسيهما هالات من النور بالحبر الأحمر، تحيطهما الغصون المتشابكة وأوراق الشجر والزهور المستديرة الحمراء، كأنها تترنم باسم القدوس.

أما أبونا متى فكان يعود وملء يديه سعف النخل وخيوط الكتان والخوص والإبر ونحوها من أدوات خصف القفف وصناعة الأقفاص. فقد كان بعد أن يؤدي واجباته

الروحية كلها يبارك المواهب المتواضعة التي منحهـا إيـاه الرب يسوع، يعمل بيديه في ابتهاج، مقلدا النجـار الإلهـي، مترنما بالتسابيح، ليعود في العيد التالي إلى الدير وعلى كتفيه وملء يديه السلال المجدولة بشكل ساذج وجميل والأقفـاص الخشبية من سعف النخيل في غاية القوة والرقـة، والقفـف المخصوفة في دوائر تامة الاستدارة.

وعلى هذا النحو كان أبونا توما من ناحيته يعبر أيامه ولياليه، حالما في غيبوبة من الكلمـات المقدسـة، يردده‍ـا بصوت خفيض وهو ينسخ في غيامة من جمال يسوع وطهر العذراء، ونعيم الملكوت في أورشليم الآتية.

أما أبونا متّى فكانت صومعته فسيحة ومنيـرة فـي سقفها فتحة واسعة يرى منها السـماء والسـحب البيضـاء الطائشة تطفو على أمواج الضوء الزرقاء، وتلمع فيها نجوم السماء وهو يخصف ويسبح، في صوت جهير.

كم مرة توجه الراهبان فيها إلى الكنيسة في العيـد، وصليا في الهيكل، واعترفا بخطاياهما؟ لا أحد يدري علـى وجه التحقيق. لقد امتلأت مكتبة الدير بالكتب الجميلة التـي نسخها الأب توما، وامتلأت الأروقـة والصـوامع بالسـلال

والقفف، وما من راهب في الدير إلى وهو يذكر أنه عندما جاء الدير لأول مرة، كان الراهبان في صومعتيهما المنعزلتين، لا هما بالشابين ولا بالشيخين، كأنهما لا يعرفان معنى الزمن.

وكانا يتناديان أحيانًا من وراء جدران صومعتيهما، ليذكرا مجد الرب أو يتعجبا لآياته التي يظهرها ليل نهار لأعيننا الخاطئة، نقاوة القمر أو رقة السماء أو لطف النسيم في أول الليل، بعد يوم حار.

وما يزالان يعملان، هذا يخصف ويجدل، وذاك ينسخ ويرسم، سعيدين بالروح، ظافرين بالجسد، متغلبين على الشيطان، ببركة يسوع المصلوب، ونعمة الأم المقدسة.

وفي تلك الليلة من بابة كان أبونا توما يفكر في الشيطان. ألم يدع الآباء القديسون إلى التفكير في العدو، حتى نتخذ منه حذرنا ونعد له عدتنا، ونقهره بالروح؟ وذكر الأب توما كيف كان الشيطان يجرب الرب إلهنا في البرية. لا تجرب الرب إلهك. لا تجرب الرب إلهك. ولسوف يتغلب رب الجنود على قوات الشر، ويحبس الشيطان ألف سنة، يسود فيها السلام، في أورشليم المجيدة الآتية. ألف سنة؟ كان

ذهنه مضطربا الليلة. وبعد هذه الألف؟ لم يكن يذكر تماما ماذا يحدث بعد هذه الألف سنة. وعيناه مظلمتين قليلاً لأنه كان يرى أورشليم الماضية، أيام نزل الرب أرضنا هذه في القبور القذرة الموحشة يهيم بينها من مسهم الشيطان، أولئك التعساء يجرون بين المقابر وهم يمزقون شعورهم، مهلهلين بلا طعام ولا مأوى، بأعين متألقة وأصوات مبحوحة، يعوون إلى الرب يسوع، إذ يمر على المقابر، أن يخلصهم من الشرير.

وكان يتحنن عليهم المخلص، ويأمر الشيطان فيحل في قطعان من الخنازير التي تنطلق فجأة من على الجرف، وهي تعوي بدورها وعلى أشداقها الدم والزبد، تتدافع إلى البحر وتسقط في الماء وهي تشرق وتغوص، وهي تقبع وتعوي وتموء. وهزته قشعريرة وهو ينظر إلى الظلال المحمرة التي تلقيها الشمعة على جدار صومعته. هذه الظلال التي عمرت ليالي حياته تبدو له هذه الليلة غريبة. وهو يفكر في النباح والجوع ذي الأعين المتألقة، والشياطين تأتي لترقد في الظلمة خارج صومعته، وترسل العواء عاليا يمزق الليل. لماذا الرب يتركها؟

هذه الشياطين تعوي في الليل، وتطأ الروح بأقدام من الشوك. تطلق الدماء والرغوة إلى الأشداق ثم تختنق في الماء بعد أن تسقط من الجرف. لماذا الرب يتركهـا؟ لا تجـرب الرب إلهك. مكتوب في الكتاب لا تجرب الرب إلهك.

كان الراهب خائفًا، وكانت الريح تزف. وأدرك أنـه يعاني تجربة ليست من ا . فمتى يهدأ قلبه ومتـى يتقـوى بالروح؟

ركع وراح يصلي ويستغفر الرب، مغمضا عينيـه، والتهب وجهه كأنه شرب خمرة شريرة، والصلاة زادته الليلة حمى وقلقًا وجوعا إلى ا . جوعا لعل الشيطان نفسه فتحـه في أحشائه. إنه لا يدري. إنه حزين هذه الليلـة، وضـعيف بالقلب، كأنه طفل في لفائف أمه.

وأمسك قلمه فجأة وأقبل على الورق، يكتب رسـالة من الرسل، معقدة لم يكد يفهم لها معنى، على الرغم من أنه يحفظها عن ظهر قلب. ثم توقف. إنـه لـم يرسـم علامـة الصليب على وجهه عندما انتهى من صلاته وأقبـل علـى كتابته، ولأول مرة في حياته. فرسمها فـي تعجـل ويـداه ترتعشان هذه الليلة لا تنتهي.

واستحال خطه رويدا إلى تلك الكتابة الجميلة التـي ملأ بها مكتبة الدير، وهو يحلم من غير أن يحس ـ رسـالة إلى أهل تسالونيكي، إلى رومية، إلى كورنثوس، وأفسـس. هذه المدن التي ما زال يعيش فيها الراهـب، إذ لا يعـرف غيرها. مدن واسعة وثنية فخمة فيها قصـور مـن الرخـام الأبيض الناعم، والحمام في الشجر، ورجال ضالون يهرولون في شؤونهم الدنيوية، والنساء في ثياب حريرية هفهافة. وقد نسي كل شيء عن أزمة ليلته، وعن تجربته. وكانت الرياح تعصف بالخارج.

ثم سمعها فجأة، تتأوه في أنات عميقـة ممتـدة مـع الريح، متهدجة في شكاة:

ـ يا بونا توما ... بونا توما ...

ورفع رأسه في دهشة كاملة. من تلك التـي تناديـه بهذه اللهجة؟ وهجم عليه الخوف دفعة واحدة. وهبت الزوبعة تئز في نفسه بعنفها كله. هذه التي تهتف باسمه في تلك النبرة الطويلة الدافئة المرتعشة، يا يسوع، من هي؟

وأشرق الجواب في ذهنه فجأة، كترياق ينصب في روحه المظلمة المسمومة، إنه متّى، هذا الأبله بجواره، يناديه والريح تحمل إليه النداء فتغير من نبراته. الأحمق.

وخرج من صومعته، وعصفت الريح بثيابه السوداء الفضفاضة، وهو يصيح:

ـ واى يا بونا متّى. عم بتنادي ليه؟

وجاءه الرد في صيحة مندهشة مبغوتة:

ـ بسم الآب والابن والروح القدس. بتجول إيه يا بونا توما؟

ـ واه، عم بتنادم علي ليه؟

وسمع الإجابة الضاحكة:

ـ جبر يا بونا جبر. بنادم ليه؟ دي الريح يا واه. وأنا هاعيط عليك الساعة دي ليه يا خوي؟

ـ به. الريح؟!

إذن فهي الريح من أول الأمر لآخره. وليس ثمة نداء. وامتعض وحنق على نفسه، وهذا الأبله متّى يرد عليه هازئًا. وهو يضرب الحصى بقدميه راجعا تضرب ثيابه السوداء الفضفاضة.

ـ جبر يا بوشنوده جبر. دتاري سرك باتع صح.

وهو طفل في الصعيد في قريته البعيدة. وسمع أمـه من أمام الفرن، ذات صباح، وقد رأت عقربا ضخمة شـائلة تنطلق نحوها من تحت أقراص الجلة الجافة، فـي سـرعة عمياء. وصاحت أمه بالقديس أبو شنودة ـ شفيعها إذ يلم بها الخطر ـ أن يوقف هذا الفزع الداهم، صارخة بأعلى صوتها كأنما تريد أن يسمعها في السماء، ومن حرارة ذعرها:

ـ وجفة يا بوشنوده وجف.

وسمع الراهب صرخاتها تتردد في جنبات طفولتـه، وهو يعود إلى صومعته. وقد وقفت العقرب كأنما الصـرخة العالية سمرتها بالأرض، كأنما القديس شلها على الفور. ولم تتمالك الأم في طيبة قلبها أن تهتف، وهي تهبط على العقرب بأقرب شيء وقعت عليه يدها: قرصا جافًا من الجلة، فتقتلها، وينكسر القرص.

ـ جبر يا بوشنوده جبر. دتاري سرك باتع صح.

ودخل صومعته فأحس ريـح الليـل تتسـلل معـه، وتعصف بذبالة شمعته كانت أمه تقول إذ يأتي ليل الخريف:

ـ بابه خش واجفل الدرابه.

وكانوا يحكمون إغلاق الباب والنوافذ جميعا، ويقعد جار أمه بجنب الفرن، وإناء العدس الأصفر يملأ المكان بعبق لذيذ، بين الدجاجات النائمة التي تنق في أحلامها، والماعز، والجاموسة في طرف القاعة تجتر طعامها وهي ناعسة في كسل، تنبعث عن جسمها الضخم وروثها ودفئها رائحة حريفة ثقيلة طيبة.

ومد يده يلتمس دفء الفرن من الجهة الشرقية، ووقعت يده على فراغ. ففرك عينيه المتعبتين وهو ينظر أعلى أكوام الورق والزجاجات القذرة من الحبر يكسوها الرمل الناعم الجاف، وأعواد الغاب تحت السكين التي يبري بها أقلامه.

هذه الذكريات الباطلة. والخوف والوهم والأكاذيب التي في القلب، وعلى شفتيه كالنار المتقدة.

وما زلنا في أول الليل.

وركع يصلي والشمعة تذرف آخر نورها، وطوته الصلاة بين ذراعيها، حارة متصاعدة تتدافع، ومشاعره تتدفق وتتهضب. المشاعر المكومة المحبوسة تنبجس وتنفجر، في

كلمات من الحمى. يدعو إلهه أن يخلصه، أن يمـد لـه يـد معونته. وإلهه لا يسمعه.

يا يسوع إنه فقد صوابه هذه الليلة. وسحابة شـريرة أغرقت روحه بالخيالات. هذا النداء الشهي. هذا النداء الشهي كم مرة ينبعث له. له وحده. يدعوه. مرة من الظلمة في ركن الصومعة، خافتًا متآمرا يقظًا في الليل. ومرة من الريح فـي الخارج، ضاحكًا معابثًا، ناعما بتلك النعومة اللاعبة المرحة، يرتعش لها جسده، كرعشة الموت. ومرة في صـوت أغـن يشكو ويعاتب. كيف يصده؟ كيف ينحيه؟ ويأتيه النداء ضارعا في لهفة كأنه يموت من الشوق ثم يصمت، لكي يراوده فجأة في أنين مسترحم عميق. ذلك الأنين تهتز له أحشـاؤه، فـي رعدة تتنزى كانبثاقة الحياة نفسها فـي لعـازر القـائم مـن الأموات.

والرب نسيه. ويسوع الـذي عـرف آلام المجدليـة فرحمها وغفر لها، لم لا يصغي لندائه الآن؟ لم لا يسمع لـه وهو يقرع بابه بانسحاق؟ وكم من مرة وضع حـول رأسـه هالة من النور، بالحبر الأحمر الجميل، وكم من مرة أنشـده

التسابيح والأشعار. فلماذا لا يراعي دمعه، الآن، ويطرد عنه الروح الشريرة؟

وارتفعت إلى عينيه سحابة باردة من الـدموع. ثـم ذابت في حرارة من الملح المؤلم. لكن الثقـل الـذي يفـدح صدره لم يرتفع. والدموع لم تنهل بعد. وهناك شـيء مـا. جائع. جائع. ينهش قلبه وينز في دمائه، ويلقي به في نوبات متعاقبة من القشعريرة والسخونة، تلفحه وتكتسـحه. وهـو يصلي كأنه يحتفر حفرا في أغوار نفسه، ويتكسر كأنه فـي زلزال، والصور الشريرة تقترب وتحوم حولـه، ولا يجـد رحمة، وربه قد هجره في محنته وتركـه يصـارع العـدو بالأيدي العارية.

ـ أبونا ... توما ... توما ...

تدعوه وتحتضنه بين ذراعين حريريتين، وتقبله على شفتيه بقبلة هادئة ندية كملمس زهرة غضة. يا ربـاه. هـذه الطراوة. هذا الدفء اللين.

وضم حول صدره الناحل ذراعيه لكن نفسه مثلوجة صادية.كلا يا إلهي. كلا. هذا الشيطان، يجربه.

وانحدر رأسه على صدره. ونظر إلى قلمـه علـى الأرض في يأس وراحت يده تتلمس شيئًا بين الورق كأنهـا تبحث عن شيء تعرفه، حتى وجد صليبا فضيا صغيرا كـان قد أهداه أياه رئيس الدير. ونظر إلى الصليب قلـيلاً بعينـين شاردتين. وقربه من شفتيه المرتجفتين ببطء. رويدا. وشفتاه يشعفهما شوق ممض كالملح. وفي حركة حادة مفاجئة اكتسح الصليب بشفتيه وقَبله في عنف مر، قبلة متحطمة مهروسـة، ومرة ومرة وأخرى، ثم دفن رأسه بين ذراعيه بقوة. واهتـز جسمه وتساقطت الدموع من عينيه أخيرا، حارة منتزعة كفلذ ممزعة من روحه ما زال يقطر منها الـدم. وهـو يشـهق شهقات عميقة خشنة، خاف لها هو نفسه، ويرتعش.

ولفظت الشمعة آخر أنفاسها، وتركتـه فـي ظلمتـه يبكي. كلا. كلا. إنه يريد أن يعيش مع المسيح، يريد أن يحيا في الكلمة المقدسة مع ا . لا شهوة له في العالم الباطـل. لا يريد إلا يسوع الذي أحب وتألم، وغفر لمن أحبوا وتألموا.

امح من قلبي يا إلهي خطيئتي واغفر لي معاصـي، روحا مستقيمة جدد في يا ا ، وقلبا نقيا اخلق في داخلي.

وهدأ نشيجه رويدا واستند إلى جدار صومعته المظلمة، من غير أن يفتح عينيه. واستسلم لهذا الضنى العذب الذي يملأ روحه الآن. هذه الغفوة الكئيبة الممتعة، وهو يهمهم شبه نائم بترنيمة قديمة حزينة من آلام المصلوب ودموع العذراء الواقفة تحت الصليب.

- يا بونا توما ... توما ...

في صيحة محبة. صيحة حبيب قديم وجده نائما بعد أن بكى، فضمه إلى حضنه، كأنها أمه تطايبه. وأراد الرجل أن يريح روحه الجريح بين الذراعين الناعمتين.

وكان النداء ينبعث إليه خافتًا متكررا لا يستكين إلى صمت، من الأرض ومن السماء ومن دمائه التي تنز بالتعب الساخن. والنداء يتعلق بعنقه في ارتعاش، ويدعوه.

وخرج إلى السفح ينظر مرة أخرى إلى السماء، وإلى الدير الكبير وتنهد في سأم وصبر. هذه الليلة التي لا تنتهي.

لكن لا. أبدا. لا شك هذه المرة. إنه متّى يناديه. هذا الصوت مقبل من ناحيته ليس ثمة شك.

ولم يجب على النداء هذه المرة، بل تسلل إلى الصومعة المجاورة في خبث ساذج، ووقف بالقرب من بابها.

وانبعث إليه النداء من داخل الصومعة.

قفز إلى الباب. ووجد زميله ساهرا في عبادة الـرب يخصف سلة كبيرة من جدائل صفراء وخضراء، وهو ينغّص رأسه، ويترنم شبه ناعس، وضوء القمر ينير صومعته. نظر إليه برهة ثم قال بصوت واثق، هادئ، من التهديد:

ـ أبونا متّى. أنت كنت عم بتنادم المرة دي.

وكان الراهب الصالح لم يشعر بعد بوجـود زميلـه على الباب، فانتفض بذعر، والتفت يرسم علامة الصليب:

ـ بسم الآب والابن والروح القدس. مالك يـا بونـا توما يا خوي؟ جرى لك ايه الليلة دي؟ رح صل يا بونا. أنا ناديتك يا خي؟ كلمة مسيحية ما ناديتـك الليلـة. رح صـل وارسم الصليب على وشك. واطرد الشرير عنك يا بونا.

يصلي؟ يطرد الشرير؟

وقف بالباب صامتًا، ينظـر إلـى زميلـه، والشـك يعتصره، والغضب يغمر أحشاءه بالدم وهو يسـمعه يقـول كلاما عذبا، مسيحيا، كثيرا عن حيل الشرير ومقدرة الـرب يسوع، ونفسه تخرج عنه إلى الليل كتقطيع ممسـوس مـن الخنازير تندفع إلى الجرف وهي تعوي وتصئي.

ودار فجأة بلا كلمة، وذرع السفح إلــى صــومعته، وهو لا يرى ولا يسمع، ومسح شفتيه الجافتين.

انحدر القمر أخيرا نحو الغروب قبل مطلع الفجــر، يلقي بأشعته الشاحبة الاحمــرار وظلالــه الطويلــة عبــر الصحراء. وعلى البناء الكبير بقبابه المتتابعة، وقد ضاع في ظلها الراهب الحارس، وعلى أنقاض الصوامع المهجــورة، والعظام، والأحجار على السفح.

وكان الأب توما في صومعته يكتب بلا توقف، يكتب في مد طويل متصل يرتفع أبدا، لا يفكر إنما ينسخ كلمات لا نهاية لها، وجسمه ينبض بالتعب.

كان نائما، وقلمه في يده، مستمرا في حلمه بالكتابة. وما أبعد هذا النوم عن لياليه السابقة، حينما كان يأوي إلــى الراحة، وهو يحس البر، وأنه أدى واجبه في محبة ا . لكنه الآن لا يستريح. بل عليه أن يكتب في نومه بلا توقف كــأن شيئًا يلاحقه، وهو مطحون، وعظامه تنز بالانحطام.

ـ توما ... بونا توما ...

كينبوع من العسل واللبن، ينفجر فجأة من صــخر. كقبلة، كلمسة من النار، كصرخة هاتفة من اللذة المتطلبة.

وقفز واقفًا من نومه، في لمح البصر، وقد صفا ذهنه صفاء باهرا، وكل عصب في جسده متوتر كأنه كان ينتظـر هذه الصيحة. كأن شيئًا شده فجأة إلى يقظة قلقة مرهفة تخز في العظم وتبريه، وهو يختطف السكين التي يبري بها أقلامه ويده تتقبض على الكتاب المقدس الصغير بلا إدراك. ولفحت الريح وجهه، وعصفت بجسمه المرتجف، وسوف يخرس هذا الصوت، سوف يخرسه، ولم تمض بعد لحظة واحدة منذ أن استيقظ من نومه. أبدية من الغضب والعزم.

وتراجع الأب متّى عن سلته التي يخصفها في دهشة، ووقف نصف وقفة، وصرخ صرخة واحدة يا يسوع، وعيناه مفتوحتان من الذعر والدهشة وقبض عليه الراهب وتلمسـه بيده، وارتفعت السكين الحادة ثم شقت الهواء فـي عصـف وهي تسقط، وغاصت في الصدر بين الضلعين اللذين يحميان القلب، وكان كل شيء يسطع.

وعبر بذهن الأب توما، في خطفـة بـرق، أن رداء الأب متّى ممزق وقديم. ألم يكن الأبله يسـتطيع أن يرتقـه؟ وعنده كل هذه الإبر وهذا الخيط؟ وخيل إليه أنه يضحك بـل يقهقه بملء صدره، يملأ جنبات العالم بقهقهته.

وتمزق الرداء تماما، وارتفعت السكين ثـم هبطـت مرة، مرتين، ومرة أخرى.

وسقط الأب متّى على ركبتيه وتفجرت من صـدره الدماء وخرجت من فمه حشرجة ممتزجة برغوة من الـدم. وهو ينهج في النزع. وانفتح الصدر، وتهدلت إلى الخـارج العضلات الدامية ما تزال تنبض وترتعش كـأن بهـا حيـاة خاصة.

ورمى توما سكينه وهو يتلمس الصدر المنفتح فـي فرح شرس، ويزيح الدماء النازفة بلهفة كأنها الشغف، وهـو يزوم، والدماء تئز في رأسـه، ويـداه الجافتـان الناحلتـان تتلمسان هذه الدماء الحارة الناعمة اللزجـة، وهـذا الجسـد الآدمي النابض الذي يمـوت، فـي لـذة كبيـرة. يتحسـس العضلات اللدنة المتهدلة التي ترتعش تحت أصابعه الغائرة، كأنها الرحم المفتوح.

وترامى في أذنيه نداء قديم كأنه يأتيه من حلم حلـو بعيد:

ـ أبونا توما ...

وهي تبتعد، بنعومتها ودفئها، بصوتها اللين الحريري المتمطي. وهو يتلمس الدماء اللازجة واللحم الساخن. يتغلغل بجمع يده في الجسم الممزق. وهي تتراجع وتبتعد في نغمات أنثوية راضية:

- أبونا توما ... توما ...

وعوى الذئب في الجبل عواء طويلاً خائفًـا، كـأن الفجر لن يطلع أبدا.

الشيخ عيسى

كانت البلد هامدة فـي التـراب، قديمـة ومنسـية، والأرض تنفث طبقة من الحرارة، وعواء كلـب ينـبح فـي الظهر.

وكان الشيخ عيسى مكوما على مصطبته العريضـة تحت تعريشة الخشب التي تتعلق بها فروع العنبـة الناحلـة العجفاء، وقد تدلت أوراقها المتربة، جافة صـغيرة مكتومـة النفس، والشيخ جامد جمود القرية كلها، وقد سـكتت تحـت حمل باهظ ينوء بها، ويطأها في الحر. وفي آخـر الحـوش يبرك الجمل العجوز بجرمه الشاهق، مغمضا عينيه نصـف إغماضه، يجتر طعامه ببطء ويلوك أحلاما لا نهاية لها.

وفي عيني الرجل شعلة صامتة.

وكأنما القرية قد سكتت، في رهبة من هذا الشـيخ. تخشى منه شيئًا غير مفهوم، وتحسب له ألف حساب.

ـ أهو يعنَى بخوفهم منه الآن؟ يحسبون لـه ألـف حساب!..

تململ في جلسته. وكان يصل إليه عبر السكون القاحل نقيق الدجاج وقد سقط على أرض الحوش وبسط أجنحته من البحر.

ـ الفراخ دي مش حتبطل تنفخ؟ إلهي يخسفها.

ـ إيه يا سيدنا الشيخ، عايز حاجة؟

بصوت جاف مشقق هرم.

كانت أم السعد تغسل الآنية تحت الزير. وصوت ارتطام الماعون وجريان الماء الذي يندلق على الأرض يزيد من لهفة الظهر.

ـ يأ !.. يا رب!.. أنت ياولية يام السعد، هاتي شوية المية.

وأم السعد تمعن النظر إليه من عينين واهنتين، وهي تنحني بصعوبة في ثيابها السوداء الباهتة، تصب له الماء العكر من الإبريق، وقد شمر الشيخ عن ساعديه ومدهما.

ـ يحسبون له ألف حساب!

كان ما زال يعيش في ظل السطوة التي فرضها أبوه على البلد، عندما كان شيخها وعميد خفرها، ومن أكبر أصحاب الطين فيها.

نعم، دوخهم أبوه وسامهم العذاب. ومنذ مات، عاش ابنه وحيدا أو كالوحيد، في الدوار الكبير، يقرأ في مصـحف كبير وكتب الذكر الثقيلة الصفراء، ومعه كبرياؤه، وجراح لم تندمل.

كان قد عام من المعهد بطنطا، وقد كف عن الدرس بعد سنين طويلة لم يحصل فيها على شيء، وعـزف عنـه القرويون، وتوالدت حواليه مخاوفهم، كالحلفا تنمو على شـط مصرف ضيق. فقد كانت له عين تصيب كل شيء في مقتل، وتفلق الحجر.

وأدرك الرجل قوته، وامتلأت نفسه مـرارة، وازداد كبرا. وأصبح شيئًا يلهم أهل البلد بالوهم والهول، ولكن فـي رعبهم منه شيئًا من شفقة وسخرية مستخفية، كأنه مقام شيخ من أولياء ا الطيبين على السكة الزراعية، حيطانه قديمـة مشروخة لكنها حزينة ومخوفة.

كان الشيخ عيسى ينظر إلى الترعة الضحلة الضيقة التي ينفتح عليها باب الدوار، كمن يبحث عن شيء. وجماعة صغيرة من الوز قد اقتربت وسكنت بين أكوام القذر والوحل الذي ينضح عليه الماء في الشمس، ثم حفزها شـيء فهـب

الوز يزعق فجأة وهو ينزلق في الترعـة الضـيقة، يسـبح باستسلام في حلم محبوس. والسماء تفدح كل شيء بكـابوس أزرق صاف ثقيل.

وارتعشت يداه تحت خيط الماء الذي ينسـاب مـن الإبريق الصدئ سنوات شبابه قد انسابت من بـين أصـابعه وتشربتها هذه الأرض.

كان بعد وفاة أبيه تمضه وحدته أحيانًا، فينطلق فـي ليالي الصيف الباهرة، أو في عتمة أماسـي الشـتاء، يعبـر طرقات القرية ببطء، دون ركوبة، بين أكوام السباخ، مستندا إلى عصاه، لا صديق له، يحييه أهل البلد بصوت خفـيض، حتى يصل إلى جسر النيل، وحده في الخلاء الفسيح.

وطار له صيت بأن له صلات خفية مع أقـوام مـن تحت الأرض، وجنيات من البحر، وحكايات مخوفة لا يجاهر بها أحد، وإنما يتسامر بها الناس في مجالسهم الحميمة، حول أكواب الشاي، في المساء.

وفي تلك الليلة رأى جماعـة مـن بنـات القريـة، يضحكن على الجسر المقفر، في الضوء الرقيق، ويتمشـين كعادتهن في ليالي القمر. وقد وقفت جماعة من الفتيان أبنـاء

رؤوس العائلات على مبعدة. وعندما وقع بصره عليها بين البنات وقف بدهشة. وسطع في نفسه وهج جديد أكّال، كنار فرن عظيم يوقد في ليلة مولد مبرورة. كانت مرحة، مرهفة، ورقيقة في جمالها، تشع منها السعادة. وكان منفردا، شقيا، وقويا في كبرياء شقائه.

وطلبها الشيخ. ولم تكن ثم وسيلة للرفض، فهو رضي الحال، بل ذو يسار، وعنده طين كثير وفي عز الشباب، ومن بيت كبير.

والبنت ما دام الشيخ يريدها، مقضي عليها على أية حال. ودخل بها بين الزغاريد، والدموع المراقة في الخفاء، وطلقات النار.

نتر المنشفة من على ذراع أم السعد وجفف يديه في ضيق، واستند إلى الوسادة القديمة الطرية، والظهر ينسحب رويدا، وسرب السحاب يتشتت ويضيع في السماء الضحلة.

ماتت زوجته وهي تضع له "مخلوف". وسكتت صرخاتها التي كانت ما تفتأ تخرج إليه ليلتها في وجع الطلق، من دفء غرفتها المعتمة، تخرج إليه مع رائحة الدم والتبن والشيخ ودخان الكانون، تطعنه بهذا الألم الذي لا

يطاق، هذا الألم الذي ليس فيه خوف وليس فيه حياء، بل لم يعد فيه إحساس، ولم يعد إلا ألما بحتًا صافيا مطلقًا ينفجر مع كل صرخة، بلا حدود. ثم جاءت لحظة من الصمت والسكات الفاجع. وارتفع العويل والصراخ مرة واحدة، ثاقبا، ولطمات النسوة تدق قلبه وتهده. وأشرق الفجر، وحميت الشمس، وهو لا يحس الفجر ولا الشمس، بل تدور به الطرق المتربة بـين حقول الذرة التي تطبق عليه من كل ناحية، وهو مـا يـزال يراها تلهو مع صويحباتها في القمر، ويسمعها تئن طويلاً ثم تنفجر في زعقة الألم، تطعنه مع رائحة الدم والشيح ودخـان الحطب، فيحث خطاه يريد أن يفر، يريد أن يموت، يريد ألا يرى ولا يسمع ولا يحس.

وعادت حياته مقفرة من جديد، ومريـرة، مريـرة، وعاد ثانية إلى مصحفه الكبير وكتبه وأذكاره، وتقلد الخلافة من أحد مشايخ الصوفية، وأصبح شيخًا في البلد.

وجاءه "مخلوف"، كأمه ضعيفًا متسقًا جمـيلاً، كأنـه زرعة صغيرة تنمو في ظل شجرة عتيقة مفتولة العضل. وقد كان الشيخ يحبه.

والشيخ يعالج أن ينسى مرارته ووحدته وكبريـاءه، في سهرات التصوف، وحلقات الذكر التي لا تنتهي، يعقـدها أمام البيت تحت الجميزة العجوز، في لحظة الطعام الغليظ من الفتة واللحم الدسم. ورغوة الشاي الأسـود السـاخن المـر، والبخور الذي يحتوي على العابدين في عباية ثقيلة ليست من هذا العالم، وتسابيح الصوفية تتدحرج حتى مطلع الفجر بـين صفين من الأتباع والمريدين، ينهضون وينحنون في انجذاب متصل على تراب الساحة تحت الجميزة الضـخمة الكثيفـة الورق، وهم يئنون ويزحرون ويصرخون: ا ! ... أ ! ...

يعالج أن ينسى ـ لكن هذه السكرات الباذخة الحلال لم تكن لتنسى الرجل، وما يزال فيه جوع لا يعرف تفسيره. جوع عميق في أحشائه، جوع ملح لا إرضاء له.

وكان ابنه "مخلوف" ينمو بين قريباتـه العجـائز، لا يرى أباه إلى لماما. والشيخ كأنه يقهر الطفل برهبته، كأنـه ولي يهبط ليهيل له أكواما من الحب دائما، والزجر والتأديب أحيانًا، ويملأ نفسه بحلاوى محبته الخشـنة الخـام كحلـوى المولد، ويلهمه مع ذلك بهيبة الشيخ والأب والمؤدب.

ـ إلى جهنم هذا الولد. ماذا عساه يفعل الآن؟ مـاذا عسى يكون شأنه ونادية بنت عبد الدايم؟ أهناك مـا يصـل بينهما؟ أم هي تقولات القرويين الذين لا تهمد لهـم ثرثـرة، كهذا الدجاج الذي ينق في قلة عقله وسفاهته؟

ـ هذه البنت. طفلة ما تزال. ولكن يا ا ، يا لهـذين النهدين عندما يترجرجان. ويا لهذا العود الناعم. هذه الطفلة قد فارت وقامت أمامه فجأة، امرأة مثيرة مشتهاة، شيئًا يتحداه ويدعو فيه الرجل المتماك الذي يمزق، بـل يشـق ويقضـم ويمزع ويعتصر.

وفي هذا الظهر تشتد عليه وطأة رغبـات مسـجونة ساخنة، كالهوب الذي يفوح داخل قاعة مقفلة مهجورة ظلـت الشمس تسفعها طويلاً.

ـ مخلوف؟ ماذا عسى يكـون بينهمـا؟ لا شـيء بالطبع. إن هو إلا نقيق القرويين وثرثرة سفيهة. لا أكثر.

وقد قضي الأمر على أية حال.

فقد كان دعا إليه أباها منذ ليال، وبعـد أن تقضـت السهرة أخذه إليه، وأسر في أذنه بما يطلـب، مـن خـلال دعواته وبركاته، بعد أن كانت قد مهدت لـه العجـائز مـن

قريباته طريق الخطبة، الشيخ موسر ومن أكابر البلد، وعبـد الدايم، وإن كان من بيت أصل، قد غمرته الأيام وأخمل الفقر من شأنه. الشيخ موسر حقًا ولكن العمر تقدم به، والبنت طفلة ما تزال.

فأجاب في تردد:

ـ دحنا خدامين يا سيدنا الشيخ. والبنت جاريتك. لكن دي لسه صغار.

فبادره الشيخ في مشقة، بصوته الأجش:

ـ صغار إيه يا راجل. دي بزتها بجت كـد فحـل الرمان. تأويها بجوالك يا عبد الدايم يا بني. تأويها واخـزي عين الشيطان.

وارتعد الفلاح بالرغم منه، فقد كان في نغمة الشـيخ وفي حركة يده شيء رعبه.

ـ طيب يا سيدنا الشيخ، كلـه علـى ا ، وادحنـا خدامين، ونيجي نتكلم بعدين، على رواج، بعد الجطن إن شاء ا ، السلام عليكم يا سيدنا الشيخ، تصبح على خير.

وانحنى يقبل يده الندية من العرق، يكـاد يريـد أن يهرب، والشيخ يسقط باليد الأخرى حبات سبحته، في بـطء، ترتطم الواحدة منها بالأخرى، بلا توقف، في عناد.

أخذت أوراق العنب يسقط منهـا حفيـف متـرب، والظلال تطول كأنما تتولد فيها حياة جديدة، خبيثة، وواثقـة، والشيخ يهتف بأم السعد، بل يكاد ينبحها، أن تعد له القهوة.

ـ اعملي جهوة، مظبوط يا ولية، عايزها مظبوط يا ولية إنتي سامعة. وا   ما تخيلها حلوة لخلي عصريتك هباب.

كان مخلوف وحده في الجزيرة الرملية التـي تقـوم وسط النيل، قبالة القرية، وقد جلـس علـى الأرض، تحـت جانب من الخص المبني من الحصير وأعواد الذرة وحطـب القطن. والسكون لا يشوبه سوى صوت مياه النيل تذوب في الرمل بحفيف خافت، فتجعل صمت العصر أشد عمقًا. وهـو يسمع نقط الماء تسقط من الزير في داخل الخص، فترن في صفيحة تحته، في إيقاع منتظم لا يتوقف، فهي لن تفرغ أبدا.

وفي نفسه رضا يتعلق بأهدابه قلق غير مستبين، كما لو كان في نهاية نوم طويل عمرته أحلام سيئة منسية.

لم يكن مخلوف محتاجا أن يعمل، فهـو مـن أبنـاء الأكابر، وكان يحب أن يأتي وحده إلى هذه الجزيرة، ومـن طفولته الأولى لم يكن يفْضل هذه الجزيرة عنده شيء آخـر، فيخوض المياه الضحلة الخضراء التي تفصل الجزيرة عـن جسر القرية، في أيام التحاريق، أو يعبر النيـل فـي أيـام الفيضان، خلسة، في قارب عبد الدايم ـ وقد كان له غيط من البطيخ عند أطرف الجزيرة ـ ويجري على الرمال الناعمة البيضاء، حتى تكل قدماه، يطارد الطيور الزرقـاء الرقيقـة الطويلة الجناح ترود الجزيرة وتسف أمامه على الرمال حتى يكاد يمسكها بيده وهو يلاحقها كأنها سهام منطلقة، ثم يلقـي بنفسه أخيرا على الرمل متعبا ينصت في شغف للسكون الحي العميق الذي يمتلئ عليه بالسماء، وبدمائه وهي تنبض.

ثم انبثق في نفسه فجأة يوم قاتم من شـتاء طفولتـه، وقد صحبه أبوه إلى الغيط البعيد. وكـان الصـباح أشـرق صاحيا ثم بدأت السحب تتكوم تحت السماء، والريح تصـفر في السكة الزراعية الخالية. لكنهما كانا قد ذرعا مسافة ليس من السهل بعدها أن يرجعا، ودفعة مرح الطفولة أن ينزل من على الحمار الأبيض الكبير وأن يجري بجانبه متفلتًـا مـن

رقابة أبيه، بين أطراف الغيطان. وهو ما يزال يذكر، ويرى في أحلامه، كيف صرخ بغتة إذ رأى نفسه يتدحرج ويتخبط ويتشبث حتى وجد نفسه في القاع. وكان المصرف مـوحلاً وضحلاً، فلم يصب بكبير أذى، لكنه لم يستطع أن يتسلق إلى الحرف إلى بعد جهد جهيد. وهو إذ يتسلق شيئًا ثم يقع فـي الطين تسقط في نفسه أثقال من العجز ومن التمرد. شـعور حيوان أبي يطبق عليه الفخ وهو يتخبط به يعـض الأقفـال العصية. وأبوه ينظر إليه من فوق كومة من بقايـا ضـريح متهدم على جانب الطريق.

كانت طفولته كنبات رقيق ولكنه شره، يتفتـق فـي جنب من غيط سخن خصيب. وكان طفلاً كثير السكوت سقيم المظهر. وكان يبكي وحده بصمت في الأركان، دون سبب، حتى ينام، بكاء الطفولة الذي يثيـر الشـفقة، لأنـه سـاذج وصبياني لكنه قاس. قاس.

وأحلى ساعات طفولته عندما كان ينسل إلى بيت عبد الدايم، حيث يقبلونه بلا كبير احتفال. ويسره هذا لأنـه سـئم الإشفاق والتدليل والتخويف، وسئم أطفال القريـة يخافونـه وينفرون منه، وهو حساس حاد الكبرياء. كان يجلـس بـين

أطفال عبد الدايم وأقربائه، يختار مكانه دائمـا بـين ناديـة، ومرضعته أم السعد. وينصت فـي شـغف وخـوف إلـى الحواديت التي تحكيها الجدة العجـوز. وأم السـعد تتثـاءب وتنغض رأسها في ركنها بجانبه. وكان ينسى نفسـه تمامـا فيهتز للشاطر حسن، ويبغض الغول، هذا العملاق الأعـرج الأشعر يتلفف بعباءة سوداء كأن فيه شبها من أبيه. فإذا عاد الشاطر حسن إلى قصر السلطان وظفر بالأميرة الموعـودة أرسل الولد تنهدة ارتياح متعبة وصافية، لكنه لم يكن يهلـل قط أو يهتف مع الأطفال الهاتفين، بل يبتسم. لم يكـن يرفـع صوته غالبا، فقد كان خجولاً، منزويا في عالم معتم كئيب.

وكانت ترتفع على جدران نفسه نباتات غريبة طفيلية من العفاريت المتهددة والغيلان والحسناوات والجنيات. وهو إذ يجري في جزيرته الرملية إنما يسافر كالشاطر في بـلاد ا لعباد ا ، ويعود دائما ببنت السلطان وقد خلصها من جب الغول، لكنه أبدا لا يأمن جانب الشرير الـذي عسـاه يشـق الأرض في أية لحظة، كالعفاريت، ويخطف منـه حسـناءه غيلة، ويترك له على الحائط آثار أصابعه الخمسة المغموسة في الدماء.

وكان يهرب معظم أيامه من المدرسة ـ كغالبية أطفال القرية. ولم يستطع قط أن يحفظ أو ينجح، وانهار فيه أمل أبيه. فلن يكون مخلوف قاضيا ولا مأمورا، بل هو يتسكع طفولته في الجزيرة وبين أركان أحلامه التي لا يعرفها أحد. فلم يكن مضطرا أن يشتغل ليكسب عيشه، وأخذت تدوم في نفسه رياح جائحة مترية، ترتطم وتنكسر في العتمة، في بلده تلك التي نسيها الزمن، وتركها تتعفن في الطين.

وهذا القلق في نفسه غير مستبين، يذكره بتلك الليلة من الشتاء الماضي كان يحس قلقًا أيضا ودوارا ليلتها، وحمى في دمائه تستوفز، وكان أبوه قد نام فراح يتسكع في سكك البلد الملتوية المعتمة، حتى رجع فرأى جماعة من جيرانه جالسين حول نار موقدة تحت الجميزة العتيقة، جنب كومة من السباخ، وهم يعدون شايهم ويسمرون، ويتضجرون. كان يحس حنينًا يجرفه نحو شيء آخر، شيء ناعم شرير لا يعرفه، ولا يجد راحة إليه، ودماؤه تنزو تمور.

جلس معهم. وكان معهم ذلك المغني الطواف، وألح عليه أهل البلد، فأخذ ينفث في مزماره. والنار تسطع في

أغصان الشجرة وتنعكس عن عضلها المفتول، والنار تلعـب على وجوههم الخشنة، والنار تلتهب فـي عمـق عيـونهم. وخرجت من المزمار أنغام ساذجة آخذة, منخفضة موحشـة أولاً، ثم ثاقبة تتلوى وترتمي في طلب شـيء مـا، ويائسـة تتقلب في شكاة وتتمرد بلا جدوى وتمزق الليل في أنين جرح موجع طويل، كأنها تفتح أعماقًا حراما، من غير أمل، كأنها تنتهك عرضا غير مستباح. ثم صمت المغني وشرب الشاي، وارتد القرويون إلى أنفسهم وفيهم نزوع منهوم أكـال. هـذه النغمات قد جاءتهم مثيرة بوحشـتها ويأسـها، تعـض فـي الأحشاء. ورجعوا إلى منازلهم في تلك الليلة وانكفئوا علـى فرشهم يتململون، ولم يهدءوا في قاعاتهم المقفلة السـخنة إلا بعد أن مزقوا نسوتهم، كمحاريث من الصلب، قائمة مرهفـة النصل.

ولكن "مخلوف" ظل ساهرا في تلك الليلـة. يفـرس جنبه قلق لا عزاء له. وبكى ليلتها، كما كان يبكي طفولتـه. وخجل من نفسه.

كان مخلوف يذهب وهو صغير إلى بيت عبد الدايم، يستند إلى مرضعته أم السعد، ونادية بنت عبد الـدايم إلـى

جانبه، وفي الدفء النسائي المنبعث من المرضعة العجـوز والبنت الطفلة معا يصغي إلى أسطورة ليليـة غامضـة ذات قوام لين كثيف كأنه لزوجة الأحلام الراسبة في الدم. وعندما كان يرتاد الجزيرة كان يذهب يحوم حول غيط عبـد الـدايم باحتراس، يبحث عن نادية حتى إذا فاجأها أطبق بيديه علـى عينيها وهو يهتف ضاحكًا ويحس ارتعاش جفنيها تحت يديه وتثقل روحه برقة طفلية، ثم يتماسـكان بالأيـدي ويـذهبان ليلعبا، وحدهما أحيانًا، أو مع أخواتها، مغـافلين الأب الـذي يكتشف غيابهما بعد حين، فيروح ينادي بغضب مفتعـل ثـم يطير فيهم بالعصا وهو يلعن ويسب وهم يجرون متسـاوين بالضحك - كان عبد الدايم ما زال في أول شبابه، يكاد يكون صبيا معهم، ولم تكن قد طحنته بعد الأيام - ثـم يعـودون جميعا، لتقليع الأعشاب أو لحراسة الماشية.

ولم يكن أعذب لديهما من شعورهما الغامض أنهمـا معا. حين تجلس ملتصقة به تقص عليه أخبار بنات القريـة، وتحس حرارة جسمه من خلال جلبابها الأسود الفضـفاض، وتثرثر له ثرثرة الفتيات، في مجرى من الكلمات كأنها ترعة صغيرة منسابة، لا عمق فيها وإنما تلعب فيها أضواء بارقـة

خاطفة من لهجتها الحلوة ولمعات عينها، وهي ترمقه بغتة ثم تفحص تراب الأرض بقدمها الحافية، في حياء واضطراب. وكانت تأتيه، بعد أن تربط البقرة إلى وتد قريب أمام كومة من الذرة، ويجلسان أمام الخص، تلازق بجانبه فيغني لها بصوت خفيض موشحات طويلة يحفظها ومواويل لا نهاية لها. عن الفارس الذي صادف ثلاث فتيات، فأحببنه جميعا، ثم نفرن على اليأس منه جميعا، وعاد الفارس حزينًا. عن الفتى العترة وقد واعد حبيبته عند الفجر على حافة البحر الكبير، وكيف تمنى لو أن الفجر طال، لو أن الليل دام، ولو أن النهار لم يشرق قط. والعاشق الذي وجد فتاته بين الخوص وقد قتلها الذئب في أول الليل، الذئب الخؤون. عن الزمن وقساواته والصبر المر. أغنيات يحوم فيها ظل كأنه شبح ما يفتأ يرود مثواه، ولا ينصرف.

كانت المياه تترقرق على ساحل الجزيرة في دفعات صغيرة هينة، كفتيات يضحكن بهمس. وما زال في نفس مخلوف هذا القلق الذي لا سبب له.

وخفق قلبه فجأة عندما رأى أشباحا صغيرة بعيدة تخوض المياه من طرف الجزيرة الآخر. وعلى الرغم من

أنه كان يتشوف مجيئها إلا أن الدماء راحت تضـرب فـي شرايينه إذ تبينها قادمة مع أخواتها وأبيها.

واتجهوا إلى الغيط، ووقف بجانب الخص ينتظرهـا، فهو يعرف أنها آتية إليه بعد قليل. وعندما أخذ يتململ مـن القلق ونفاد الصبر أسرعت إليه، رقيقة في ثيابهـا السـوداء الواسعة، كنوارة هشة تطير بها الريح. كانا قد ألف أحـدهما الآخر منذ الطفولة كأنها أخته وحبيبته فـي الوقـت نفسـه. وكانت قبلتهما الأولى نبتة صـغيرة تنبثـق مـن برعمهـا، طبيعية، ضاحكة، رقيقة وخافتة. كانا يجريان مرة وكانت هي تسبقه قليلاً، واستدارت فجأة بينما كان مخلوف مندفعا إلـى الأمام، ووجدت نفسها تصطدم به ويكـادان أن يقعـا علـى الرمل معا، لولا أن تشبث بها يحتضنها، وعندئذ وجد بـين ذراعيه كنزه. أحس جسمها البض النابض الحار بين ذراعيه وعلى صدره، وهي تنهج من الجري، وجهها مرفوع إليـه. وتوترت ذراعاه حولها كما يتوتر البرعم إذ ينشق لينفتح عن زهرته. وكان وجهها المضرج قريبا من وجهه، ووجد شفتيه بجانب أذنها التي يهتز منها قرط أخضر منطفئ اللون فيـه حرارة وجهها. وفمه يتلمس وجنتها الرقيقة الغضة، يتكشـف

عذوبتها الناعمة الطرية، ويقع بين شفتيها النديتين الحارتين، المفتوحتين لقبلته.

ولم يكررها. لم يقبلها بعد ذلك أبدا.

دخل الخص يسبقها، وتبعته، وشملهما الضوء الباهت المتسلل من خلال جدران الحصير وأعواد الـ ذرة، وتركـ ت الباب خلفها مواربا نصف مفتوح، واقتربـ ت مـ ن صـ دره، ورفعت عينيها إليه، والدموع تلتمع بين أهدابها الطوال، كان وجهها نضرا، خجلاً، رائع الجمال، وهي تقص عليه خبرها في سرعة خائفة طفلية، وقلبه يضربه ويوجعه، كيـ ف كـ ان أبوها ينهي الخبر إلى أمها في أول الصباح ـ وكان لم يـ نم طول ليلته ـ كانت هي تسمعها بالصدفة وهي ترمي الحـ ب للدجاج أمام الباب. كيف أن الشيخ عيسى، أباه، أباه هو، يريد أن يأخذها إليه.

وضمها إليه دون أن يحس، كأنه يحميها.

كانت تريد أن تستمد من صدره القوة والحمى. لأنها كانت تشعر، كما يشعر الطفل، أنها لا حول لها أمام شيء لن يلين، شيء أقوى منها، لأنهـ ا كانـ ت تخشـ ى الاستسـ لام. وتعرف أنه استسلام محتوم، مقضي به من الآن.

وأحس شيئًا في نفسه يكاد أن ينهار. وشدد ضـغطه حولها وامتدت أصابعه على الرغم منه تتلمس، في رقة، ذلك القرط الزجاجي الأخضر الكابي، وتتلمس وجنتيها. وقطرات الماء تسقط من الزير إلى الصفيحة تحته، تـدق فـي وقـع متصل مطرد، بلا اهتمام والغضب يعصف بصدره، والتمرد. لن يسلم هذه الفتاة. لن يسلمها.

لكن لم يستشعر تباشير النصر، وكأنه في الحقيقة لا يرغب فيه، لم يكن لديه ذلك اليقين الداخلي أن الحياة له.

لن يسلمها لأحد. وهو مع ذلك، لا يدري، بـل هـو وجل واجف.

وقد عقد مصيره كله على الاحتفاظ بها. ولكن.. أي قمية لهذا العزم المعقود؟ وارتفعت إلى عينه الدموع، وقلبـه يتدهور، وثقل يحط في روحه واقترب من خدها بفمه، وهـو لا يرى. والتصق بهذا الجسم الرقيق الناعم الذي كـم هـو بحاجة إليه - وهو يفقده مع ذلك. أحس خدها تبلله الـدموع وهو يطبق فمه في يأس، من غير أن يبوس.

لن يدعها. لن يدع أحدا يغتصبها منه. سوف يحارب لها. سوف ينافح عنها، لكنه ليس مـن جـنس المحـاربين.

ووضعت ذراعيهـا وراء عنقـه، ورفعـت إليـه وجههـا، والتصقت به وفي وجهها منحة، واستسلام، وهبة. وكانت بين ذراعيه والدموع تنسل على خديها. ونهداها على صدره كثقل صغير يضغط قلبه. وفي أعماقه خوف وظلمة، وهو لم يعـد يحسها بين ذراعيه بل يعيش لحظة في خدر مضطرب يقلقه ويغلق عينيه عن عطيتها.

تشبثت به وهي تتعلق بعنقه، وثمة بريق غريب فـي عينيها من وراء الدموع، وهو يحس جسدها يرجف ودماءها تضرب وهي تضغطه إليها، كأنما تريد أن تهب الحياة، بعمق رغبتها، لصخر، لعمود مكسور، لنبتة صلبة جففها لعطـش، وهو في حلم مزعج يريد أن ينطلق وأن ينفلت، أن يحطم سدا يطبق عليه بلا رحمة، لكنه لا يستطيع، ولا يفهم.

وسقطت إلى الأرض منهكة فجأة، تبكي فـي نشـيج مخيب منكسر، في ثورة تشفي على التسليم. فهو لـم يقبـل الهبة ولم ينبثق في جفاف نفسه خـيط واحـد مـن المـاء والحرارة. وانحسر ثوبها الواسع، وهي تقع علـى الأرض، عن ساقيها العبلتين الممتلئتين، وهي إذ ترد ساقيها إلى الثوب السابغ يرقص فيهما نغم العضلات الأنثوية القويـة الناعمـة وترفع إليه عينين لامعتين مخضلتين فيهمـا أمـل وغوايـة

ومرارة. وقد وقف ينظر إليها كأن قسوة غير مفهومة قد فرضت عليه حرمانًا لا قبل له به، وعليه مع ذلك أن يقبله. وانحنت بوجهها على ركبتيها في بكاء يخفت رويدا، وقد تيقنت الهزيمة وغشى نفسها جمود اليأس والتسليم، يهز جسمها نشيج ليس فيه دموع.

نظر إليها. لا يفهم أنها كانت قد أعطته نفسها. وأنه رفضها. وتركها مسرعا كأنه يهرب، إلى الشمس الغاربة التي سطعت في عينيه فأغمضهما على نور أحمر يشمله كنار زاهرة لا حرارة فيها تملأ عليه الأفق. وهو يخوض المياه الضحلة إلى القرية، والأفق يمسي ذهبيا بالشفق، والماشية تمضي إلى مباءتها تثير التراب على الجسر، ويسوقها القرويون الذين يؤوبون متعبين بعد انقضاء نهار طويل.

كان الشيخ ووالده جالسين على المصطبة، بعد عشاء لم يعرف له أحدهما طعما، مستندين إلى الوسائد، وصامتين، والمصباح الزيتي الضئيل يحترق في كوته، والجمل على تخوم الضوء والظل، يبرك في الحوش، شاهقًا يجتر أحلامه التي لا تنتهي، كائنا وحيدا يعيش في عالم موحش، كأنه الحقيقة الوحيدة.

وكان الشيخ ينظر إلـى العتمـة بعينـين فـاترتين مسترخيتين، وبيده سبحته تتساقط حباتها في انتظام وجمـود. والشيشة بجانبه تنبعث منها قرقرة راضية بين الحين والحين، قرقرة تدور بالحوش المظلم يربطها بالبيت رقيـة لا فكـاك منها. كان الشيخ يحس نوعا من القلق والتحفز، كما لو كـان يستشعر خطرا مقبلاً، لكن نفسه هادئة، واثقة، متربصة.

وكان مخلوف قد بدأ يتكلم، دون أن يحس أيهما متى وكيف بدأ يتكلم. كأنه يكمل حديثًا ما زال يدور بينهمـا مـن زمن طويل، وصوته متهدج متمايل يثبت رويدا ويسرع. كان يذكر أباه، زوجته الأولى، هيبته ومكانته. كيف يتزوج، فـي النهاية، ببنت تكاد تكون طفلته كيف يتزوج وهو الآن شـيخ القرية، وعلى حافة كهولته

والشيخ يسمع له، من خـلال ضـبابة مـن الحنـق والدوار. أية جرأة! لقد جن الولد. وكان ينكأ أيضـا جراحـا قديمة لم تبرأ، ويثير ذكريات مغفية لم تمت، في غير جدوى.

ومخلوف يحس أنه يتردى. لِم يطرق هـذا لسـبيل الوعر؟ لم لا يتآمر، في خفية عن أبيه. ويحول بينه والفتـاة ... دون أن يعرف؟

نظر إليه الرجل في هدوء، وانحنى على الشيشة يمص فمها فترتفع قرقرة بطيئة الصدى في الفناء الموحش.

ـ أنت عاشج البنت دي يا ولد؟

بصوت أجش هادئ يتضمن ثقلاً. فكأن الشيخ قد نسي ما ينبغي لهذه الأمور من تحفظ وما ينبغي له من وقار، في زحمة الصراع الذي قام في نفسه. أيتكلم عن امرأته المقبلة بهذه اللهجة؟

وسمع صوت نائم متململ من بيت الجار، كأن أحد الصبية لا شك يحلم حلما مفزعا.

وحبات السبحة تتساقط الواحدة بعد الأخرى كدقات قلب. والقرية كلها نائمة في حلم جاف بائس، لا يعير الناس اهتماما.

رد مخلوف عينيه عن الجمل الجاثم في جهد، كأنه مسحور. العالم كله قد تلاشى فلم يبق أمامه إلا هذا الأب الغريب عنه، ينصب عليه ضوء محمر من مسرجة مدخنة. ثم ذكر أن هناك سؤالاً لم يجب عنه.

فليكن، وماذا يحدث مع ذلك؟ أليسا شابين معا، مـن عمر واحد وهو يريدها زوجة تعمر البيت، وما الضير فـي ذلك، أليس طبيعيا؟

وقد كاد يسقط سلاحه لكنه يناضل نفسـه حتـى لا يستسلم.

ومخلوف كأنه يخشى أباه. وكأنه مع ذلك يحب فيـه إله طفولته، ويمقته أيضا. هذا الشيخ أمامه يتعلق بمتعة أخيرة ، هذا الشيخ الشقي.

والشيخ تنبثق فيه فجأة نافورة ألم متوتر قاس، ميـاه سخنة صلبة تنشق عنها الأرض في صميم عظام حقوية. هل يهتم به الولد حقًا؟ هل هو يعنَى بهيبة شيخوخته في القرية؟ ـ يريد أن يخطف منه هذا الأمل الذي عساه يكون أخيرا ...

يريد أن يسد عليه حياته في خبطة أخرى، نهائية. إنه قد حزم أمره من زمن بعيد. لن يقف أمامه شيء.

وصرخ في الولد، في هتفات خافتة مكظومة، ترتفع في بحة الغضب ولا تكاد تسمع مع ذلك، أنه ولد عاق جهول كسول، لا خير فيه، إنه وقح. إنه ليس ابنًا له. فليس له بعـد اليوم أبناء. ولن يكون، لن يكون له ابن عاشق يعره ويمـرغ

اسمه في التراب. فليخرج إذن من بيته. لا يريـد أن يـرى سحنته بعد اليوم. وليس له من اليوم أبناء.

وسقط جدار كان يحدق بالحب الذي يكنه الشيخ لواده وفارت المياه الآسنة المحبوسـة فـي أمـواج مـن الكـره والغضب.

ونهض مخلوف دون كلمة، وبدت قامته الطويلة في الضوء المحمر المدخن، شاهقة وثابتة، كأنها مئذنة في جامع، على وشك الانهيار.

وخرج بسرعة واصطدمت قدماه بعتبة الباب لكنه لم يحسها وعيناه جافتان ملتمعتان وفي قلبه صلابة.

وبات ليلته في الخص، ومياه النيل تحيط به في الليل مظلمة راكدة، وثم ضوء من مسرجة ميتة يسقط على أحلامه التي يحس فيها، وبين شفتيه، قرطًا زجاجيا دافئـا، ويلمـس وجنتها التي تنديها بقايا الدموع الملحة. لكـن أحلامـه ران عليها الظلام، وسقط في نوم ثقيل.

كانت أوراق العنبة ما تزال تتدلى من غيـر حيـاة، والترعة الضحلة تجري بمياهها العكرة تحمل جماعات الوز، أما نادية فإنها مشغولة في الدوار الكبير، وعلى وجهها تعبير

مستسلم صموت، ترمي الحـب للـديك والفـراخ، وتحلـب الجاموس، وتطعم الجمل، بجد وسكون، دون أن يطلب منهـا أحد شيئًا وعلى وجهها بين الحين والحين ابتسـامة بطيئـة خفية.

والشيخ بلا شك ما زال يحبها بعد، حبا لا إيثار فيه، وإنما هو شيء غريب متملك يستخفي فيه عمق من البغض، يهزأ بالشباب. شيء ممزق كاسر، فيه شخيوخة ضـارية لا تستسلم.

ـ ولكن بأي ثمن.

ودارت في نفسه، على مصطبته في حـر الظهـر، زوبعة متربة كأنها الخماسين، وأحس صدره يختنق. ونفذت إليه لذعة من الوجع، والغضب يزحم قلبه ويقبضه. هذا الولد ... ما شأنه الآن به عساه يتعلم الرجولة في الغربة، ويغدو جديرا بالأسرة التي انحدر من أصلابها، جديرا بـأن يقـوم بعمله الآن، هذا الكسول. لو أنه يعود لما تردد في أن يقبله، بالرغم من كل شيء. لو أنه يعود. وسوف يعود علـى أيـة حال، لا شك فيما بعد. إذ ينجاب عن نفسـه هـذا العبـث الصبياني كله.

أما هي فطائعة صامتة، أبدا. عميقة كالأرض نفسها. تستسلم له بلا تذمر ولا امتناع. وهو يسوقها إلى الأمام بسوط جائع، لا يتريث لأنه في النزع الأخير، وهي تعطيه خصبها وتحتفظ لنفسها بأسرارها التي تذبل في أعماق رحمها، بـلا ثمرة فلم تخاف له نادية، وهو يحس أيضا فراغًـا موحشًـا عريضا. من العقم، كأنه أرض فسيحة خلاء، وبور، ينز فيها الماء والملح.

أصبح الصبح ذات يوم، وإذا بمخلوف قـد هـرب، مضى من القرية ، ولم يسمع عنه أحد. وبعـد زمـان جـاء الخبر بأنه في مصر ، وأنه يشتغل في مصنع صغير، وأنـه يقف الآن على مكنة، لوحده.

كانت تعرف، ببصيرة ما، أنها لن تسعد معه، وأنـه سوف يهرب من القرية، على أية حال. وقلبها يسيل له ألمـا وحبا ولكنها ما كانت تستطيع أن تهرب معه، بينمـا أهلهـا وقومها يعيشون في كن بيوتهم الدافئة، بين بهائمهم وسبخهم، وأطفالهم، وخيرات الأرض.

بل هي تحس أنه قد رفضها وأنه ليس لها. فهو قـد أغلق نفسه عن عطيتها، ولم تستطع دماؤها النباضة المتدفقة

نحوه أن تبعث فيه حرارة. لقد خذلها. وهو يحبها حقًا. ولكن أي حب؟ كأنه لا يعرفها. وهما إذ كانا يتعانقان كـأن بئـرا سحيقة بينهما، لا يلمك أحدهما أن يعبرها إلى الآخر، بينمـا يغيب في حضنه.

وانحنت تجمع حزمة من أعواد الذرة وأخذت تطعـم البقرة، ونزلت قطرات من دموعها على الأرض ، وشـربها التراب. والبقرة تخور خافضة رأسها تنظر إليهـا بعينيهـا الواسعتين.

لقد استسلمت.

وفي ليلة الزفاف كانت الفتيات يغنـين ويزغـردن، والفتيان يرقصون وينشدون. والأنوار تسطع، والفرح الشرس يقلق في القرويين يقظة لا تشبع، تتطلب المزيد.

وهي في غرفة علوية من بيتهم قد بكت حتى انهدت. وقد حففنها النساء، وزوقنها، وألبسنها ملابـس الدخلـة، وأم السعد العجوز تثرثر لها، وتطيب خاطرها وسـط النسـاء، وتزغرد ثم تنظر إليها من جنب، وتتنهد خلسة.

وصمتت البنت تنتظر مصير ليلتهـا فـي خشـية، باستسلام فيه شيء من اللهفة والتشوق، وأحسـت ثـم مـا

يدفعها، في قلق مرهف لا يقاوم، لأن تلقي نظرة على الشارع من فوق السلم. وعندئذ رأته ـ هل رأته حقًا ولم تكد تـراه حتى توارى في العتمة.

وعندما خرج إلى الغيطان بدت له البيوت في القرية مكومة منكمشة، وكانت تصل إليه أصوات الفـرح مكتومـة مختنقة، والكلاب تنبح الليل، كأنما القرية كلها يضمها حلـم متململ قلق.

في ظهر يوم حارّ

أخذ جابر يسير متئدا، وشمس الغروب في عينيـه، على شاطئ الترعة المترب المزدحم. كان ينقل خطواته فـي ملل، وكان شعره متشعثًا ملقى إلى الوراء، وقطـرات مـن العرق منعقدة فوق جبهته مصفرة في احمرار حائـل، وفـي عينيه تعب، وفي السماء حرارة مثقلة.

وألقى بنظرة إلى المياه الراكدة تهتز بين المراكـب الشراعية العتيقة وقد انبسطت أشرعتها المرقعة تتلمس نسمة من الهواء، ولمح في جوف مركـب قريبـة جماعـة مـن المراكبية، بأجسامهم القوية السوداء وثيابهم الباهتة المزرقة، راكعين أمام موقدة من الفخار ينفخون فيهـا وهـم يطهـون عشاءهم، والعدس الأصفر يبدو، وهم يحركونـه بمغـارفهم الخشبية العتيقة، عجينة كثيفة تضرب إلـى لـون الغـراء، وكأنهم يفيدون منه في شد ألواح مركبهم القديمة بعضها إلى بعض، حتى تتاح لها مهلة أخرى للحياة.

ومضى في طريقه تحت أشجار الجميز الضخمة التي تظلله كما لو كانت عالما منعزلاً منفردا بذاته من الأغصـان

الملتفة الأثيثة الورق، والعصافير تتواثب في أرجاء هذا العالم باضطراب، تودع النهار بزقزقة عالية حادة النغم، وقد شرد ذهنه رويدا وهو يسير في الحرارة الخانقة التي تسبق طراوة الغروب، وعاد مرة أخرى إلى القهوة المعتمة المزدحمة التي تطل على الترعة، تتدلى من بابها زرعة صغيرة صفراء من اللبلاب، مهملة وجافة تناضل باستماتة في سبيل الحياة.

كان ينتظر دقة الجرس الأخير في مدرسته، بصـبر واسع رحب، بصبر جميل، جميـل. فـإذا انتهـت الحصـة الأخيرة وأطلق سراحه، اندفع هو ورفيق أو أكثـر، خـلال الطرق الضيقة، يثيرون التراب بين المنازل التي تتظـاهر، من غير كبير نجاح، أنها أنيقة كمنازل الحضر، حتى إذا مـا وقع بصره من بعيد على اللبلابة الجافة الصفراء، وعـرف جمعا من صحابه في القهوة، صاح بأعلى صوته:

ـ عم متولي هات لنا طاولة اعمل معروف، الطاولة بسرعة وحياتك.

ويذهب إلى ركنه المعهود، أكثر أركان البؤرة عتمة وبعدا عن العيون، حيث يجثم الراديو الضخم، أسيرا بجانـب مواقد الجاز التي تزأر وتفح في إعداد الطلبات للزبائن.

كان يسير على الترعة وهو يعيش في هـذا الحلـم اليومي مرة أخرى، حلمه السوقي المبتذل الذي يخلص حياته. فرأى نفسه وقد ألقى بكتبه التعسة إلى أقرب كرسي، ورفـع الراديو إلى أقصى ما يبلغ صوته من ارتفاع، وراح يلعـب الطاولة في حماس لن يفتر، يلعب وقد ابتدأ يغيب في غيمـة غامضة مريحة من وهج الحرارة وسحب الـدخان المنعقـد المتصاعد من جماعات الفلاحين والأفندية، وقهقهـات عـم متولي المليئة، وصياح الراديو، وأقراص الطاولة تصـطفق وتقرقع، وصوت باخرة صغيرة في الترعة تطلق صـفارتها الحادة. فجأة فتصخّ الأذن وتترك خلفها طنينًا هادرا يئز مـع المواقد ويعوي مع المذياع ويقرقر مع شيشة قريبة ثم يقهقـه ويبصق ملء الفم ويقسم بأغلظ الأيمان.

وإذا هو يندمج مع القهوة كلها في كيان واحد، داكن حارّ، وينسى المدرسة وسخفها وفـراغ حياتـه وجمودهـا، وتضيع حواسه في غيبوبة من العتمة والسخونة والصـخب، وتنسل منه نفسه في خدر ضـاغط مـؤلم لذيـذ ومعربـد، يستغرقه ويلاشيه.

ـ خالي جابر، خالي جابر

في صيحة حادة نزقة.

وقف فجأة ودفع رأسه إلى الوراء في حركة مباغتة، وقد انتزع من حلمه على غرة، كما لو كان قد هجـم عليـه طارق مفاجئ. وانتبه ينظر إلى ابن أخته الصغير، فلفل، وهو يناديه خارجا من بيت قديم حائل اللون، من تحـت السـماء الموحشة بالغسق.

طفل ضئيل ناحل، يرتدي جلابيته الواحدة التي كانت في يوم من الأيام بيضاء ناصعة، أما الآن فعسير أن تحـدد لها لونًا على وجه الدقة، أهي رمادية مغبرة نوعا ما، أم هي تميل إلى شيء كالزرقة الكامدة، أو لعلها أن تكون رصاصية باهتة قذرة، من آثار وحل لم يشأ أن يزول، أو بقـع زيـت منسكب، أو بقايا شاي أسود، أو دماء حائلة من جرح قـديم؟ أم هي مزيج معجزة في اللون من ذلك كله، وغير ذلك كله؟ عسير أن تحدد، على وجه الدقة.

طفل مستوفز نشيط، يبدو في عينيه الواسعتين، على الرغم من التراب والذباب، نوع من ذكاء شقي متقد. ـ خالي جابر، اعمل لي مركب ويا بينا نعومها في الترعة، يا بينا هنا كويس، لأ قدام شوية أحسن، يا هه مد شـوية. وهـو

يشد طرف جاكتته في إلحاح يغريه أن ينزلا معا، كما اعتادا أن يفعلا في بعض العصاري، إلى الشاطئ المنحدر، يختاران لهما مجلسا على العشب الأخضر الوافر، ثم يرمـي جـابر حمله المدرسي إلى جانب، وقد انتقى منه كراسة يقتطع منها كمية كريمة من الورق تستحيل توا إلى أسطول يغزو ميـاه الشاطئ الضحلة الموحلة، مركبا ورقية بعد مركب تتقدم مع الأمواج الصغيرة المهتزة، تميل وتطفو وتغـوص وتجاهـد الماء حتى تنقلب أخيرا وتمتلئ فتنفرد في الماء، وتعود قطعا مبللة مهيضة من الورق. وهما يصيحان ويهتفان ويضحكان، يديران حركات أسطولهما ومناوراته في الأصـيل السـاكن الهادئ.

وكان الطريق متربا وقفرا في هذه البقعة، وقد امتلأ بالشمس ونسمة العصر.

ـ لا يا فلفل معلهش النهاردة، أنا تعبان شوية، بكرة بقى.

ولكن فلفل يتذمر في كلمات متداغمة طـب مركـب واحدة والا اتنين بس، شوية صغيرة يعني إيه. وكان جـابر يحس إرهاقًا مثقلاً وما زال بينه والبيت شقة، فاسـتند إلـى

جذع جميزة ضخمة جافة منسية لم يبق لها إلا الجسم اليابس المكسور العتيق.

ـ لا يا فلفل بلاش النهاردة قلت لك، أنا تعبان مـن المدرسة ودروس المدرسة وقرف المدرسة، اسمع بكره مش حاعملك مركب واحدة ولا اتنين حنعمل مراكب كتير، كتيـر ... مالهاش آخر.

كانت ثم صداقة بسيطة تربط بينهما، ألفـة وتفـاهم مستتب لا تعبر عنه الكلمات، كعنـاق أخـوي لأن كليهمـا يشعر، دون أن يدرك تماما، بالغربة عينها في بيئة معاديـة، كلاهما ضائع.

وكانت الشـمس تنحـدر وراء أشـرعة المراكـب المتزاحمة التي تبدو من بعيد كأجنحة سوداء في حمرة الأفق، والأمواج الصغيرة تصطفق بأخشـاب المراكـب، والنوتيـة يعدون عشاءهم فيتصاعد بخاره الأبيض من القدور القديمـة المستديرة، والبهائم على الطريق، تعود في صفوف طويلـة، محنية رؤوسها، تخور إحداها فجأة خوارا طويلاً متعبا، كأن فيه شكاة، وأصحابها يتبعونها بلا اهتمام، في سـحابة مـن

التراب، تنسكب عليهم موسيقى نزقة مرحة مـن العصـافير المشقشقة بين هامات الشجر.

ونظر جابر إلى الصف الطويل من الأوكار الريفيـة التي يسميها أصحابها، بحسن نيـة: منـازل، تلـك البـؤر المتداعية ذات الطلاء المتساقط والشرفات الخشبية المعوجـة والأبواب الفاغرة. تبدو في العتمة الداخلية كأنها تغوص قليلاً قليلاً في تراب الطريق، يدوسها الغسق.

ووقف عند بيت أخته، وبدا له في الضوء الخابي من فتحة الباب، حصير وأدوات منزلية غامضة المعالم ركنـت إلى الحائط، ومعزى مربوطة إلى وتد في الفنـاء، ودجـاج يروح ويغدو بين أقدامها يلتقط من الأرض، على أشعة النهار الأخيرة، ما يجد من طعام، وينق لأنه لا يجـد شـيئًا، ولأن الظلمة قادمة.

وارتفع بصره إلى الجدار الخارجي، بطلائه الأصفر القديم، وسور السطح المائل المتداعي، والنوافـذ المسـدودة بالخشب الخام، فتكوم في نفسه السخط والضيق والغضـب، وارتفع، وانفجر في داخله كما ينفجر لهب مكتوم.

هذه الزرائب يعيش الناس فيها؟

ـ آه، إيه يا خالي بتقول إيه؟

رأى عينين واسعتين عميقتين تطلان بتسـاؤل فـي عينيه، عينين يتوقد فيهما ذكاء شقي حاد، سوف يتثلم حـده، وعمق سوف يضمحل، ويتوقد فيهما مع ذلك شعاع غـامض من حزن وإدراك.

من يدري؟ قد يتحول هذا الشعاع إلى لهيـب كبيـر يغدو محرقة، ويلتهم هذه الزرائب وما وراءها فـي ألسـنة النار، لهب قد يخمد ويختنق بين الرمال والحطام، وقد ... قد تثب منه النار قوية فتيـة ... أو تطفئهـا دمـوع العجـز، والانسحاق وقطرات العرق الباردة المتربة تسقط من جبـين كليل.

لكن ماذا يهم كل ذلك الآن. طال به الوقت منذ ترك القهوة، وعليه أن يذهب يتعشى سريعا ويكمل عشرة طاولة، وسوف يمر في الغد على فلفل، يصنعان مراكب من ورق.

ـ لا ما فيش حاجة يا فلفل. ما فيش حاجـة. ابقـى استناني بكره العصر ، هنا برضه.

وأكد له الضوء المتألق في عيني الطفل أنه ليس في حاجة إلى من يذكره وأنه لن ينسى، في الغد.

انحدر في الزقاق الضيق ، واصطدمت قدمه عفـوا بكومة من السباخ وأفلت كتكوت من تحت حذائه بمعجزة لكي يلحق بقبضة من الكتاكيت تنق وتتنادى وتجري فـي عقـب النهار ، ونفذت إليه أصوات عراك ، بقية عراك الأمس، بين محضر الحكومة وزوجته السليطة.

وصعد إلى منزل أبيه عتبة رخامية متآكلة مدفونة في تراب الشارع وترك الباب مفتوحا ليجلب قليلاً من الضـوء وقليلاً من الهواء.

وألقى نظرة غريبة إلى داخل المنزل، يتأملـه كمـن يراه لأول مرة. هذا البيت الذي ولد فيه وعاش تلك العشرين عاما من حياته، وقف في الغسق يحدق إليه كغريـب، ورأى السلم الصاعد إلى الدور العلوي، بدرجاته المكسوة بطبقة من التراب المتحجر الجاف، وحوض المياه الجديد تحت السـلم، وأواني للطبخ مهملة تحت الحوض، وماءت قطة كانت تنسل تحت الحوض إذ سقطت على رأسها قطرات من الماء.

ووقفت عيناه على الباب المقفـل دون شـقة عبـد الجاوي، البقال الذي يستأجر الطابق الأسفل كله، فيما عـدا حجرة جابر، يساعد أباه بهذا الإيجار على العيش.

كان أبوه مزارعا في عزبة البيه، وأفق آماله الذهبي يحيط بولده جابر، إذ يتخرج من مدرسته ويصبح هو الآخر ناظرا، أو مهندسا، أو صاحب عزبة. لم لا؟ ليس علـى ا شيء ببعيد.

ولم يستطع جابر، في وقفته الغريبة بالباب، أن يحول بصره عن أرض البهو الصغيرة القذرة والـبلاط المتكسـر تنبثق من شقوقه حشائش صغيرة، وروث بهيمة لعلها مـرت في طريقها إلى الزريبة بالفناء الداخلي، وفضـلات دجـاج تحيط بالبركة الطينية الصغيرة المتخلفة عن مـاء الحـوض فوق البلاط.

وانفتح الباب فجأة، وخرجت منه نجية، زوجة عبـد الجاوي، وفي يدها آنية نحاسية تمسح عنها بقايا الطعام، بلا اكتراث، لكي يلتقطه الدجاج.

وباغتته وهو ينظر إلى الأرض، وعلى وجهه تعبير ممض. ونظرت إليه بدهشة فتدارك قائلاً:

ـ سعيدة يا نجية.

ـ سعيدة يا خويا، واقف كده ليه، فيه حاجة مالـك، عيان ولا إيه

ـ لا أبدا، بس أصلي، أصلي تعبان شوية، من الحر. أصل الدنيا حر النهاردة.

واستطاع أن ينقذ نفسه أخيرا، بعد تلعثم، بهذه الكذبة.

وابتسمت، وقالت كلاما تقصد به النصـح، أو لعلـه ترفيه، أو كلام عن الجو أو شيء من هذا القبيل، ثم ذهبـت إلى الحوض وفتحت الصنبور اللامع الجديد، تغسل آنيتهـا، وتمهل يرقبها لحظة لمحة بصر.

لم تكن جميلة. وكانت تكبره في السن قليلاً، لكنهـا كانت عذبة. ووهج الشباب يشع عليها نوعـا خاصـا مـن السحر، أخاذًا. وعيناها ... عيناها كل شيء فيها، عميقتـان، مصريتان، فيهما حساسية وذكاء وعطـف. ولهمـا لونهمـا الخاص الرائع. لون مياه النيل فـي بقعـة صـافية، عنـد الفيضان. مزيج من السماء والطمي والعسل. وكانت ذراعاها عاريتين وقطرات من مياه الصنبور تتساقط على سـاعديها وتتعلق بمرفقها الأبيض. وعيناها فيهما نظرة حانية، لأنهـا بعيدة ومقهورة، حائرة ولا تقع على شيء.

لكنه لم يكن يولي نجية كبير اهتمام. لم تكن تسترعي انتباهه.

ودخل غرفته وأقفل بابه وأوقد مصباح الجاز على مائدة كتبه. وأخذ المصباح يشيع في الغرفة نوعا من الضباب المنير القاتم، بين الصفرة والحمرة الشاحبة، وفي هذه السحابة من أزيز المصباح، وهو يتقد في أذنه، جلس على مقعده، وألقى برأسه بين يديه وأخذ يتحسس جمجمته المصدعة، رأسه يكاد ينفجر. أمريض هو: كما تساءلت نجية؟ أم الحرارة حقًا هي التي تنال من كيانه كله وهي التي فتحت في نفسه ببطء أبوابا ثقيلة، وشاهقة، عن آفاق شاسعة خواء، كأنها أبواب المدن النحاسية في ألف ليلة؟ أذاك مرض أم طارئ جديد غامض، ذلك الذي اندس بين عظامه أخيرا يبث له السم في كل شيء، يجرعه مرارة، ويصهر أيامه في حمى بطيئة خامدة - حمى السأم والاستياء الذي لا سبب له، حمى التطلع بعيون دفينة محرومة إلى ذاك الذي لا يمكن الحصول عليه.

- مرض أو عفريت. ماذا يعنيه الآن من ذلك كله. لا أهمية لشيء ما.. لأي شيء.

وبالطبع كان ذلك كله يعنيه بل يهمه. ولكن ما بوسعه أن يفعل؟

لا يزال قبل العشاء ساعة أو أكثر، وليس أمامه مـا يقتل به هذا الوقت.

رفع فتيلة المصباح وترك البترول في جوفـه يئـز ويتقد، وفتح كتابا ـ بعد اختيار دقيق ـ من كتبه المدرسية. وأقنع نفسه بأنه يقرأ، ثم أفاق بعد لحظـة فـإذا بـه يقلـب الصفحات الواحدة تلو الأخرى، دون أن يدري، وفي ذهنـه ضباب لازج.

ـ كم هو بائس، بائس وتعس. ما جدوى حياته مـا قيمة هذا الوجود السمج التافه. بلا طعم، ولا معنى؟

واختلطت الأشياء أمامه، وصعد إلى عينيـه غيـام يرتفع عن ينبوع دمع متحجر، لا يريد أن ينبجس.

وانطلقت من فمه ضحكة مرة، هي حشرجة قصيرة تشبه الضحك.

ـ أهو مشفق على نفسه إذن يبكي؟ يربـت نفسـه ويمسح كتفيها، وينوح على حظها التعس، كما يفعل المرء مع قطة هرمة مريضة؟

وضحك مرة أخرى من نفسه، في سخرية كـالعلقم، يرثي لنفسه ... هه ...

ورن في أذنه صوت حريري ناعم، أوه. مِرسي. أشكرك.

فرفع رأسه في حركة سريعة وارتسم على شفتيه شبح ابتسامة آملة خائفة، وتألق في عينيه ضوء بعيد. لكنه لم ير شيئًا هناك. لم ير سريره المزوي في ركن، ولا الصور القديمة التي سودت جوانبها خيوط الذباب الراقد في الليل، ولا مائدة كتبه تسبح في ذلك الضباب من مصباح الجاز، بل انفتح أمامه أفق مشرق يانع في صباح حار. والطريق الزراعي يفضي إلى العزبة. وهو وأبوه وخفير العزبة وجمع الفلاحين يسرعون لاستقبال سيارة سوداء فخمة كانت قد انشق عنها الأفق، وهي تقبل مارقة في سرعة متهورة، وقد كادت أن تنقلب في الترعة وهي تتحاشى جاموسة مهرولة ثم أفلتت، وهي على حافة الترعة، بأعجوبة، وانطلقت على سرعتها تصفر وتثير التراب، حتى وقفت فجأة، بعنف، حيال جرن العزبة.

كانت تلك بنت البيه، أقبلت بلا شك من مصر في سرعتها تلك المتهوسة. وكان واضحا أن هما عاجلاً يثقل صدرها الأنيق الرقيق، وأن شيئًا ملحا حيويا ينتظرها في

القاهرة، كانت تنظر إلى ساعتها بسرعة وقلـق، وأنفاسـها تتابع، وهي تتطلع من نافذة السيارة في نفاد صبر. فتاة نحيفة ممشوقة، لها نوع من الفتنة المترفـة، بعينيهـا الزرقـاوين وشعرها الذهبي المجموع في عقصة باهرة.

واكتسحت جمع الفلاحين بنظرة واحدة، بلا مبـالاة، واستقرت العينان الزرقاوان على أبيه، وهو معرفة قديمـة، وبادرته في لهفة، قبل أن يجد الفرصة ليلفظ كلمـة ترحيـب واحدة:

- بابا هنا يا عم حنفي؟

وأخذ العجوز الطيب القلب قليلاً. لا تحية ولا سلام. ثم أجاب سيدته الصغيرة أن نعم. البيه في السـراية، وأننـا جميعا في غاية السرور لرؤيتها وأن ... وكيف صحة الآنسة ... ولعلها بخير؟

ونظرت إليه لحظة من داخل السيارة، فـي تفكيـر شارد، ومن الجلي أنها لم تسمع شيئًا بعد كلمة نعم. ثم بـدا لها، فتذكرت أنها لم تحي الرجل بعد، فابتسمت وسألته عـن صحته؟

وفتحت حقيبة يدها على الفور، قبل أن تكمل جملتها، والتقطت منها قلما، وبحثت عن شيء ما، ثم أخرجت رسالة زرقاء ألقت عليها نظرة واقتطعت من آخرها، على جنـب، طرقًا من الورق. وراحت تعبث بقلمها في زجاج النافذة، في سهوم، بينما الجمع ينهال بوابل مـن التحيـات المضـطربة والتمنيات المؤدبة يختلط بعضها بالبعض.

وفتحت باب السيارة فجأة، ثم قفزت إلى الأرض في حركة نزقة، وفي يدها القلم وقطعة الورق، وأحدثت سـرعة حركاتها تلك نوعا من الصمت المفاجئ. وراحت تدور فـي الجميع بنظرة باحثة، فعبرت بنظرها حشد الأطفال المحدقين إليها بعيون حمراء، يتعلقون بثياب أمهاتهم في خوف وتطلع، وجمع الفلاحات المخفيات أسفل الوجـه بـالطرح السـود، والفلاحين المبتسمين عن آخر نواجذهم في تطلع خشن، وأباه الفائض بعبارات الترحيب. ثم استقرت عيناها عليه أخيرا ـ هو. لحظة أو لحظتين، في نظرة متسائلة، كمن يجد في جمع مألوف من الحيوان، حيوانًا غريبا جديدا.

واتجهت إليه في حدة، وسألته بغتـة: هـل يعـرف القراءة والكتابة؟

وبهت ولم يستطع إلا أن يجيب بنعم، هزيلة خافتـة من أقصى حلق جاف.

وقد عجب لنفسه بعد ذلك. نعم؟ أهذا كل شيء؟ ألـم يستطع أن يقذف في وجهها بعبارة حاسـمة نافـذة. تسـأله أيعرف القراءة والكتابة؟ هو، بكل ثقافته وقراءاته؟ لقد أعـد لنفسه بعد ذلك ألف نوع من الإجابـة السـاخرة والبارعـة والرائعة والمستهترة. أتته في وحدته حينما كـان الموقـف يتمثل له، مرات بغير عد، وفي كل مرة إجابة جديدة نفـاذة، حادة كطعنة أو رقيقة كقبلة. أو متعالية. لكنـه فـي المـرة الحقيقية الأولى لم يستطع إلا أن يجيب: نعم، هزيلة مبحوحة خافتة، كأي جلف فلاح.

وأعطته القلم والورق. وطلبت منه أن يكتـب لهـا، وهي تمليه، قائمة مصروفات.

واتضح السر، إذن فهي قادمة من مصر تطلب مـن أبيه والدها كمية أخرى من النقود، ثورة صغيرة بلا شـك، متذرعة بقائمة المصروفات، كأنها لم تكن تستطيع صـبرا. ولم يكن لديه ما يسند إليه الورق ليكتب عليه. فاحمر وجهـه واضطرب وتفصدت على جبهته بسرعة قطرات من العرق،

ووقع بصره على نافذة السيارة الزجاجية فأسرع يسند إليهـا الورق.

وأخذت تملي عليه، وهـي تفكـر، قائمـة نفقاتهـا الأسطورية. أرقام ضخمة مزعجة. لكنه لم ينزعج ولم تأخذه المفاجأة. كان يقرأ المجلات ويعرف أرستقراطيات المجتمع، كان فتى عصريا، وأسماء النوادي والمحلات الكبرى فـي مصر لم تكن لتدهشة. فهو يعرفها جد المعرفة قـرأ عنهـا بإلحاح، ويحلم بها.

ونظرت إليه في دهشة خفية مستغربة، فلم يرفع إليها بصره، في تساؤل وارتباك، كما كانت تنتظر، كأنمـا كـان على خبرة بما تملي عليه.

استعاد هدوءه، وثقته، وهو يكتب، وبدا وجهه منعكسا على زجاج النافذة شاحبا مكبوحا كمن يعاني ضغطًا جسمانيا، ثم لمح في طرف الورقة الزرقاء، على الوجه الآخر، خطوط كتابة سريعة أظهرها الزجاج الشفاف ولكنه لـم يسـتطع أن يقلب الورقة بالطبع، ولم يستطع أن يتبين الكتابة، وقد حفـزه فضول لا يقاوم، فراح يحاول قراءة الكلمات المقلوبة، مـن

على الزجاج، وهو يكتب في الوقت نفسـه، وركـز جانـب بصره في هذا الركن.

وسطعت الكلمات لذهنه فجأة، مـن خلـف الورقـة المقطوعة، ـ الماضية وألف قبلة ـ وثـم بدايـة إمضـاء مضطرب منقطع.

هبط قلبه دفعة واحدة ثم اندفعت الدماء إلى وجهه في نبضات سريعة قوية، وقد أشرقت الكلمات أمام عينيه، بكـل معانيها، بكل حيويتها.

ـ وألف قبلة.

ترى ممن جاءتها الرسالة وما قصتها؟ إنه ـ هو ـ في حياته كلها لم يكتب لفتاة. ولم يرسل قبلات لأحد.

كانت تقول له شيئًا لم يسمعه، ورددت فـي ضـيق عصبي، إذ لم تلحظ أنه قرأ الكلمات الأخيرة من رسـالتها، تسأله أن يجمع لها القائمة. لم يكن لديها وقت أن تجمعها من قبل.

ـ شوف إلى المجموع.

ثم صمتت لحظة. وتذكرت أن تقول، بأدب، خيل إليه أن فيه سخرية خفيفة:

ـ من فضلك؟

وأخذ يتمتم ويمر بالقلم على الأرقام الكبيـرة، وقـد عاوده اضطرابه، فساعده أبوه في المهمة الشـاقة. وتمـت العملية المجيدة في النهاية، ومد لها بالقائمة يدا خجلة ترتعش، لا تتقدم ولا تملك أن تتراجع. واختطفت منه الورقة، ومرت ببصرها على القائمة وهي عاقدة حاجبيها الرقيقين، مقطبة في اهتمام، ثم تحولت إلى حيث أقبل الناظر يسبقها إلى والـدها البيه، فأفسح لها الفلاحون الطريق.

ونظرت خلفها بلا اهتمام فرأته ينظـر إليهـا كمـن ينتظر منها شيئًا، وشرد ببصرها لحظة ورن الصوت النـاعم الحريري:

ـ أوه. مِرسِي أشكرك.

وابتسمت ابتسامة حلوة. ومضت.

وأسرع خلفها الفلاحون، مدفوعين بفضـول غيـر مفهوم، وهرول أبوه في الركاب، واستمر النـاظر يرحـب بسيدته في وقار وجد.

لكنه هو ظل في مكانه أمام السيارة يحدق في الفراغ، ويقطب ويبتسم لنفسه، ويلمس زجاج النافذة بأصابعه دون أن يدري، ويبتسم ويقطب مرة أخرى.

وبعد فترة من الزمن عادت إلى سيارتها، بخطواتهـا الرشيقة المتلاحقة، وألقت عليه نظرة متسائلة لا مبالية. تماما كما لو كانت تنظر إلى الغفير، أو إلى جاموسـة عـابرة، أو كلب العزبة أو شجرة في الطريق. نظرة بلا مضمون، بـلا اكتراث، دون أن تعطيها تفكير لحظة واحدة.

ثم انطلقت السيارة الفخمة السوداء، تصفر في سرعة وتثير خلفها سحابة من التراب.

كان يسمع صوتًا منغوما يتكلم من بعيد، مـن وراء ضباب الماضية. وألف قبلة. وبدا له الصوت مألوفًا والحديث مفهوما. وسياق الكلام مطمئنا طبيعيا. تلك الذكريات. الأيام. المرات الماضية. وألف قبلة. لكنه لا يستطيع أن يتذكر تماما.

ـ مالك يا جابر. أنت عيان ولا إيه. أوه. مِرسـي. أشكرك. وصوت أبيه. آه صوت أبيه يتكلم. ولكنه يقول كلاما طويلاً بنغمة مصقولة مرحبة. كيف صحة الآنسـة ولعلهـا

بخير والراديو يصرخ ويعوي ومواقد الجاز تئز. لشـد مـا كانت مواقد الجاز تئز.

ـ شيش بيش. جهار. دوبيا. شوف إلى المجموع من فضلك؟

وقهقهة وبصقة تنطلق ملء الفم. وصفير حـاد مـن باخرة في الترعة ـ اعمل لي مركب ورق. معاش واحـدة بس ولا اتنين ... وهو يحدق في ضباب بارد ... في بخـار أبيض يتصاعد من بعيد من قدر العدس. وكتكوت يجـري وهو يصوصو، ليصطدم بكومة من السباخ، لكنه يغوص في داخلها كأنما تتلقفه وتطويه في ترابها. وهو لا يندهش، كأنه قضى عمره يرى أكوام السباخ تلـتقم الكتاكيـت الهاربـة. وقطرات الماء تتساقط على ذراع غضة عارية، بيضاء فـي ظلمة الغسق، وتسقط من طرف الكوع الناعم، وهناك عينان تطلان بتساؤل في عينه. وكان مهموما يسائل نفسه في قلـق وحنق، لأنه لا يعرف، عينًا من؟ عينا فلفل؟ نجيـة؟ أم ـ عيناها؟ أية غباوة. إن عينيها زرقاوان. إنه ليذكر ذلك جيدا. وليستا في هذه السعة والرحابة. بل زرقاوان فيهمـا نظـرة ضيقة لا مبالية.

والعينان تلوحان في إصرار من خلال سحب الدخان.
وتحدقان إليه من مياه الترعة الحمراء التي تصـطفق بـين خشب المراكب. وسحابة من الغبار تثور خلف السيارة فـي طريق مشمس مترب. والحرارة خانقة في الضباب. والعينان تتسعان، تتسعان أيضا حتى يسود الظلام. وحرارة المواقـد وهي تفح.

وعندما نادوه للعشاء ولم يجبهم أحد، فتحـوا بـاب غرفته فإذا مصباح الجاز أخذت فتيلته ترتعش وتدخن وترسل لهبا عاليا محمرا ثم تنخفض بسرعة وتتـابع، فـي نوبـات متعاقبة محتضرة.

كان نائما على مائدة كتبه، ورأسه على كتاب مفتوح، وشعره يكاد يشيط من المصباح القريب. حـرارة متقبضـة، وضباب مرتعش من العرق البارد على جبهتـه، وأصـوات تتنادى. وفتح عينيه وراح يحملق أولاً في تبلد، بـين النـوم واليقظة. ثم فهم، فأجاب في ضيق وكسل:

ـ حاضر. جاي أهه.

وصعد إلى الدور العلوي ليتعشى مع عائلته، يـؤدي ضريبته.

كان مضطجعا، نصف قاعد على سريره الحديـدي القديم، وهو ينظر إلى النافذة المقفلة التي يشـع عنهـا فـي الغرفة ضوء شاحب مشبع برائحة السباخ الحريفـة الجافـة. وكانت الشمس تسطع على خشب النافذة من الخارج، تصليه حرارة، وتلقي من خلاله على أرض الغرفة خيوطًا مستقيمة متجاورة يسبح فيها الغبار الدقيق. والغرفة المقفلة تبدو مفعمة بنوع من النور. غريب شفاف، يعطي للمكان رحابة وسكونًا مرهفًا، كأنه صومعة مقفرة صحراوية، معلقة النفس.

لم يكن يحب أن يدع النافذة أو الباب مفتوحا، عـادة مستحكمة، أن يحيط نفسه دائما، ما دام ذلـك ممكنًـا، بجـو محكم وثيق. ويحس نفسه تتشتت منه ما لم يحكم سدها.

وتقلب على سريره إلى جنب. ومرت أصابعه بشعره في عنف ضيق، وضم رجليه إلى صدره، كالجنين يتململ في رحم أمه، فالحجرة حارة مبهورة، بل هي تـنهج وتشـرئب بالنفس. ولا جدوى من فتح النافذة في شمس الظهر هذه.

يوم الجمعة، ينتظره والده طول الأسبوع في صـبر نافد, ثم يضيق به إذا جاء، كأنه عذاب لا يعرف المفر منه.

وسمع وقع أقدام تقترب من غرفته، وتقـف بالبـاب هنيهة، كأنها تتردد. ودهش قليلاً، ثم رأى الباب ينفتح فجأة، في عزم وحدة ترتفع بلا قصد إلى حد العنف، فاعتـدل فـي جلسته، وزادت حرارة الغرفة بما يملأها من هـواء سـاخن مترب، فهز رأسه كأنما يزيحه عنه. وابتسم ابتسامة باهتة.

وقفت نجية قليلاً ويدها على مقبض الباب، وكأن في مظهرها ثم شيء غريب جعله يعتدل تمامـا فـي جلسـته، ويحدق إليها.

كانت تأتيه كثيرا في غرفته. تطلب إليه شيئًا أو آخر من الحاجات المنزلية الصغيرة. فقد كان يحب أن يعيش فـي غرفته تلك منفردا عن عائلته أو يكاد، يكفي حاجاته بنفسـه بقدر ما يستطيع. كانت تطلب منه أحيانًا قليلاً من الجـاز أو الشاي، إبرة وابور أو صحيفة قديمة. لكنها الآن تبدو غريبة، كأنما يحيطها وهج منبعث عن مصدر خفي. وفـي وقفتهـا بالباب تبدو كتمثال يفور بحزن مكبوت جامد، بلا صـوت. وتذكر دفعة واحدة تلك المناقشة - الحـادة - التـي دارت بالأمس، فسمعها من خلال جدار غرفته، بعد العشاء، وكـان

قد أذلها فيها زوجها، ودفعها في النهاية إلى البكاء، ملتاعـة تخافت بدمعها. كذلك كانت تنتهي مناقشاتهما عادة.

كانت حياتها الزوجية مأساة قديمة مبتذلة متكـررة. زوجت في السادسة عشرة من نجار لم تكن تعرفه ولا تحبه، وجاءته بولد علمها كيف تعرف، وكيف تحب. وابتدأت تذوق طعما للحياة. ولكن الطفل مرض. مرض ومات فـي آخـر الأمر، في ظهر حار في مثل هذا الظهر. وخيـل لزوجهـا الأول، بصورة لا تفسير لها، أنها هي التي أفقدتـه طفلـه، وعندئذ انسلت في حياتهما امرأة أفعى، زوجة أخرى، نصف، داهية. وبعد شهور من الذل طلقها النجار، وعادت تعيش مع أبويها الفقيرين. ولم يكن بمقدورها أن تستمر عالة عليهمـا، فرضيت بزوجها الثاني. هذا العبد الجاوي. وكان ناجحا فـي نوع عمله، ومن خير ما يوجد في السوق لهذه السلعة التـي هي جسد الشابة المطلقة. كان الرجل يعيش في عالمه الضيق من الحواس الخشنة، عمل وامرأة وطعام. وهو أيضا نصف عمر. طلق امرأته الأولى لأنها لم تنجب له ولدا، وهو يشتهي الولد. رأى لداته يذكرون أبناءهم، في حفظ ا ، فـي نغمـة

هادئة من الرضا، ويعيذونهم من العين بالخميسة الزرقاء من الخرز؛ فاشتهى أيضا أن يكون له النسل يستكمل به حياته.

وها قد مضت سنتان أو ثلاث منذ تزوج للمرة الثانية. ولم تعطه نجية بعد ولدا. وهو، عند أتفه نزاع، يهددها في بساطة بأن يسرحها، أو على القليل يستجاب له امرأة أخرى، ضرة، تخاف له.

وفي ليلة الأمس كاد عبد الجاوي يلفظ بكلمة الطلاق، كاد أن يقضي عليها. ومثل لها مستقبلها، مطلقة للمرة الثانية، وقد جاوزت شبابها الأول. من يرضى بها عندئذ إلا حشَاش، ربما، أو عربجي، ثم يطلقها بدوره، أتستحيل بعد ذلك إلى امرأة، تبيع جسدها بالتالي، في الحلال، لمن يدفع الثمن التافه، طعامها ومأواها لبضعة شهر؟

على أن لها بالطبع أن تبقى بلا زواج إذا شاءت، بلا طعام تقريبا. أو ... هذا المصير المظلم كله.

لذلك كانت تتعلق في يأس بشقائها الراهن وبزوجها الجافي، لذلك بكت.

وأدركت أنه يفكر ـ معها ـ في ليلة الأمس. وكانت منفعلة ولمع في عينيها ما يشبه دموع المرارة، علـى أنهـا استطاعت أن تبتسم.

كانت واقفة بالباب، ممسكة بمقبضه، والنور المـبهم المعلق في الغرفة كأنه يدعوها، وثم حنان غامض ينبعث عن حرارة المكان، وكانت ترتدي فستانًا قصيرا من نسيج خفيف، يتفجر تحته لحمها الممتلئ بالشباب، وشعرها الناعم ينسـدل في خصلات سوداء غير منتظمة، ووجهها غـض مضـيء بنور داخلي لماح. وعيناها، عيناها العميقتـان بلـون النيـل الطامي، ذلك المزيج من ضوء السماء ومياه الفيضان وعمق غريب آخر ـ عيناها الحزينتان العطوفتان. وصدرها يبـدو زاكيا متمردا على فتحته، يرتفع ويهبط كموجة آتيـة علـى جسر النهر، من بعيد. وحاولت أن تبتسم أيضا، لكنها كانـت ابتسامة شيء محتضر يقوم بجهد أخيـر. ابتسـامة واهنـة متهافتة.

وتدافعت إلى وجهه الدماء، ثم فرت منه بعد لحظـة، وتركته شاحبا يتنفس بمشقة. لم تكن قد وقفت بالباب أكثر من لحظة، ويخيل إليه أنه يراها هناك منذ الأزل، كان كل شيء

يجري في نطاق المألوف العادي، لكنه يلوح في جو غامض صوفي كأنه حلم من أحلام التخلق الأولى.

تقدمت إليه، كالعادة، تطلب منه علبة كبريت، وحاول كلاهما أن ينسى تلك اللحظة المشحونة، فأخذ يبحث في جيوبه وهو يسألها مازحا عن معركة الأمس. لماذا تهيج الرجل الطيب بهذا الشكل؟ وتجعله يصرخ في الليل، كدب جائع وأجابته بشيء تافه وهي تضحك، ثم سألته، كالطفل، عما هو الدب كأنها لا تعرف ... وأخذ يشرح لها، مغتبطاً بسعة علمه، كيف أن الدب حيوان ضخم خطر يعيش في البلاد الباردة البعيدة، ويشبه - يشبه ماذا؟ يشبه الفأر السمين حين يكبر ويكبر حتى يصبح أكبر من الجاموسة.

وترددت ضحكاتهما المتهافتة الضحلة. وتلامست يداهما وهو يعطيها علبة الكبريت. كان من العبث أن يتجاهلا ذلك الشيء القائم بينهما. كانت الدماء تضرب في شرايينهما معا، كرصاص مصهور.

وكانت الحرارة تخدر حواسها، والنور الغامض يدعوها، وأمسك بيدها ونظر إلى عينيها برغبة، بانسحاق.

والأزيز الكثيف يطن في رأسه، وهو يسأله في لهجة مثقلـة، ملهوفة:

ـ اسمعي يا نجية، طب وإن ما خلفتيش يعني، مـا هو دا اللي حيحصل يا نجية، حتعملي إيه؟

فأفلتت تنهدة صغيرة يائسة، في سخرية، وهي تستند إلى قائم السرير. وفي يدها علبة الكبريت الصغيرة الحمراء، ويدها الأخرى قد تركتها في يده، وهزت كتفيها:

ـ حاعمل إيه يا خويا، ما هو حيطلقني ... آل آدي الفولة وآدي كيالها. آل يا عور ضروبك على عينك ...

ومصمصت بشفتيها، وهي ترميه بنظرة.

وجذبها إليه في لهفة، مندفعة ومترددة، وتركت نفسها تطيعه، وهي لم تعقد عزمها بعد، وقال في لهجة مكبوحـة، بصوت أجش، وأنفاسه متسارعة:

ـ نجية.

فشهقت وهي تقول بصوت خافت فيه خوف وضحك ولهفة:

ـ ياختي ...! يا شيخ بلاش هزار إعمل معـروف، بتعمل إيه!

وطارت في جسدها زوبعة، وشملها الضوء المرهف المعاق. واحتضنهما نوع من الدفء والغمـوض والحنـين المبهور. وكانت مسكته بيدها رفيقة، فيها تملك مـع ذلـك. وهزت رأسها تزيح خصلة من شعرها المنسدل على وجهها السخن، وحاولت أن ترى وأن تفكر، لكنهـا كانـت مجـرد محاولة، مجرد إرادة للمحاولة، وانسدل على عينيهـا قنـاع متموج حار من نور الغرفة وضوء عينيه، وحرارة الأثـاث الخشبي المصطلي في الشمس، وحرارة يده التي تضغط على يدها في هدوء وحنو ونداء لا يرد. ورفعت إليـه بصـرها، كانت عيناه مستقرتين على منبت ثدييها الوافدين، يبدو مـن آخر فتحة ردائها الصيفي. وقرب إليه وجهها.

واستمرت الظهيرة المتوهجة تسـطع علـى خشـب النافذة، والشمس تدور ببطء بعيدا فـي السـماء، وخطـوط الضوء المستقيمة المغبرة تسقط من النافذة المقفلـة، وتـدور ببطء على أرض الغرفة.

ونسيا الشمس والنهار والسماء، ولم يعودا يعرفـان غير شبابهما المضحي وفورة الحس المكبوح، نسيا العالم في نشوة نابضة مرتعشة متطاولة. وأغمض عينيه. نسـيا هـذا

العبد الجاوي وولدهما المنتظر له، هذا الولد الذي كان سـببا من هذا العمل، سببا مارقًا نبيلاً لهذا العمل الصادق النبيـل؟ ماذا يهمه النبل أو الصفة؟ في ظهر هذا اليوم الحارّ. ورأسه يدور في غيمة كأنها أزيز المواقد. ثم انسـدل علـى ذهنـه سكون حي رائع عميق، لا تقطعه غيـر أصـوات أنفـاس متلاحقة. وهمس كأنه في الحلم:

ـ وألف قبلة.

وتألقت أمامه في حمى، عينـان زرقـاوان وشـعر ذهبي، ورن صوت حريري ناعم. وانطلقت من فمه ضحكته القصيرة المرة، حشرجة تشبه الضـحك، وغاصـت يـداه تتلمسان وتتكشفان طيات الجسد الناعم الحار، وتطبقان علـى ركبتيها الباردتين، يغطيهما عرق خفيف كالندى، وتضـمهما إليه. ونظرت إليه في خوف ودهشة، وأغمضت عينيها تخفي عن بصرها عينيه المتقدتين الهاذيتين. إنه الآن ينتقم. ينـتقم من كل الشعر الذهبي في الوجود كله. مـن كـل الجمـال المترف الباذخ، من كل النظرات الزرقاء بلا مبالاة، ينتقم في روعة لا تحد، من أجساد السيارات الناعمة المنسابة، ومـن ملل الدروس السمجة التي لا تنتهي، ووحشة المنازل الكئيبة،

في ظهر هذا اليوم الحار. يثـأر لمأسـاة حياتـه الخامـدة، وينتصر. فليدع مرارة لياليه تصفو الآن وتروق، ماذا يهمـه من أحلامه الساذجة البريئة التي طالما عمرت فراغ شـبابه، ماذا يهمه الآن؟ فليرو أحلامه الوحشية الظامئة، وهو يجمع بين قبضته الكنوز المليئة، ويضم ملء ذراعيه هذا الحلم الذي يلتوي، ويرتجف، في ظهر يوم حار.

وانطلقت من فمه ضـحكته المريـرة المسـتمتعة. وارتعشت نجية بين ذراعيه وسرى في قلبها رعـب بـارد. وحاولت أن تتخلص منه، فضمها إلى عظام صدره في عنف متزايد ملح، وأنفاسها مبهورة من الخـوف وأنفاسـه لاهثـة وشيء كالمقت يأكل قلبيهما معا. وهو يعصر بين جسـديهما التقزز الذي يرهف أعصابه ويشدها. ووجهه يـدوس كتفهـا الطرية. ألف قبلة، في سورة ضاغطة منبثقة أخيرة. سـورة الراحة.

وما تزال الشمس تسـطع علـى خشـب النافـذة، والخطوط المستقيمة المتجاورة من أشعتها مستلقية في همود شاحب بجانب الباب، وقد دارت كأنها تريد أن تفلت من تحت

الباب، والأنفاس المعلقة المبهورة في جوف الغرفة أخذت تتراخى رويدا.

لم تكن تنظر إليه وهي تسوي شعرها وتحس مرارة في فمها، وألقت على الغرفة نظرة حائرة، ثم انطلقت فجأة إلى الخارج، دون كلمة.

وفي غرفتها اعتمدت المائدة بمرفقيها، وراحت تنظر إلى الأشياء المعهودة دون أن ترى شيئًا ماذا حدث لم يكن بمقدورها أن تعرف. كانت تحس في نفسها فراغًا يتمدد، ويثقل على صدرها. ونظرت إلى نفسها في إنكار، كأنها تنظر إلى شيء لا يمت لها بصلة. وتلمست شفتيها، وحلمتي ثدييها، من خارج الفستان، بأطراف أصابعها. لا شيء. ستنجب الآن على الغالب ولدا، لكنها لا تشعر بالندم ولا الإثم. ليس لزوجها، فيما تحس، أي حق عليها. كانت تعرف ذلك، دون أن تعطي للإحساس وضوح الفكرة، وتحديدها، ولكن هذا الذي حدث؟ لماذا هي مريرة وسأمانة؟ أكان معها - هذا الولد - جابر؟ هذه الضحكات، وهذا الجنون في يديه، وفي أطرافه ...

وطفا في نفسها الضجر، وشعرت بشيء في يـدها، ففتحت أصـابعها المتقبضـة. علبـة الكبريـت الصـغيرة الحمراء. ونظرت إليها نظرة جامدة. وأوقدت في بطء عـودا منها، ولم تجد في نفسها أكثر من ذلك الجهد، فراحت ترقب العود في يدها والنار الصغيرة تزحـف وتتـراقص عليـه. ولسعت النار أصابعها. فألقت بها إلى الأرض فـي احتـدام مفاجئ، وسحقتها بقدمها في غيظ. وبحركة سـريعة أخـذت تعمل في موقد الجاز، وأقبلت على عملها الذي نسيته، عملها تغرق فيه فراغها واختناقها، وهذا الجسد المتألـب عليهـا. وضحكت فجأة. ضحكتها المرة القصيرة. كأنها تعلمتها منه.

أما هو فكان يرتدي ملابسه ويتـنفس فـي جهـد، وخواطره مشتتة. وابتسم ابتسامة جافة. ألم ينقذها؟ لكنه كان صادقًا في البدء. كان يريدها. وكان يريدها مع ذلك أن تتغلب على حظها السيئ.

لو أنه ـ هو ـ تزوجها؟ لا. لا. فيم يفكـر؟ إنـه مضطرب. ليس في حياتهما شيء مشترك غيـر الوحشـة. والوحشة لن تخلق زواجا ناجحا. سوف تنجب ولدا إذن إن لم يكن في هذه المرة، ففي غيرها ... مثل فلفل؟ ذكي وجميـل

لكنه قذر ومضيع. يقضي حياته بين هذه الزرائـب. ومـن يدري؟ قد ينسحق قلبه أيضا تحت نظرة لا مبالية من عينـين زرقاوين، يظللهما شعر أشقر.

وانتبه إلى نفسه يهمهم في غيظ، وهو يسـير علـى حافة الترعة، متجها إلى القهوة، بالعادة.

وكانت الشمس قد توارت خلف السحب المنخفضـة التي انحطت من السماء وانزلقت عليها بسرعة، تدفعها ريح قوية مفاجئة. وأمواج الترعة الصغيرة تتلاحق، والمراكـب الضخمة قد طوت أشرعتها وتركت التيار المندفع مع الـريح يجذبها عبر الجسر المفتوح، وصواريها عاريـة ومحدبـة، كأنها جثث منقلبة لطيور بحرية ميتة انطوت أجنحتها تحتهـا وارتفعت سيقانها الهزيلة المعوجة تشـق السـماء، والـريح تدفعها إلى مصير غير معـروف. والمراكبيـة بأجسـامهم السوداء يجرون تتلاحق خطاهم على حواف مراكبهم، وهـم يضغطون على عصيهم الطويلة يغوصون بهـا فـي طـين الترعة، فتجري المراكب تحت أقدامهم، وخـرق هـدومهم الباهتة يضربها الهواء في عنف، كأنهم مع ذلك في صـورة

فرعونية منحوتة على معبد قديم. صورة حجريـة لا هـواء فيها.

والمنازل إلى جانبـه تبـدو كئيبـة تحـت السـماء المنخفضة، وشرفاتها الخشبية كأنمـا تهـم أن تهـوي إلـى الأرض، من المضض.

وفي صيحة حادة مفاجئة، دهش لها هو نفسه:

ـ عم متولي، فين الطاولة بتاعتك هات لنا طاولة يا خويا اعمل معروف، يا والنبي ...

وراح يرمي الزهر مرة أخرى مع أحد صحابه، وهو يعود يندمج في القهوة، ويفنى في ذهـول دخانهـا المنعقـد. والمواقد المتأججة تئز، والراديو يزأر في موسيقى شرسـة، والمكان يسبح في ضبابة معلقة من قرقرة الشيشـة وقهقهـة الحشاشين، وأقراص الطاولة تقرقـع وتصـطفق. وكانـت صرخات الصبية في الشارع تصل إليه مختلطة بزقزقة حادة مرتفعة من العصافير التي تتواثـب وتضـطرب فـي قمـم الأشجار على الترعة، خائفة من الرياح.

جهار دوبيا شيش. وقهقهة وقسم بأغلاظ الأيمان، ثـم قرقرة الشيشة الطويلة المتأنية تصل إليه من خـلال الأزيـز

المتقد وضجيج المذياع. وهو يفقد العالم، ويفقد نفسـه، فـي غيبوبة غائمة من العتمة والفحيح، والطنين يتفجر في قهقهـة طويلة تقرقع تدوي تصرخ وتضطرب مع العصـافير فـي الشجر.

ألف قبلة.

طلقة نار

كانت الشمس قد غربت منذ زمن طويل، فيما يبدو لهما، والقطار قد طال به السرى في رمال الصحراء، في الخط الغربي. فأغمضت عينيها وأسندت رأسها إلى كتفه، في سأم وتعب، وقد تشتت شعرها، كأنها طفلة صغيرة ملت رؤية أحراش البوص ومتسنقعات المياه الضحلة تتعاقب فوق الرمال، والتلال الصغيرة الصفراء التي لا تنتهي، وهذه السماء المقمرة.

ثم أخذ القطار يبطئ شيئًا، فانتبهت وابتسمت له، وإذا هم يدخلون المحطة الصغيرة وقد وقف القطار ينهج، ويخرج من مدخنته الطويلة القديمة عمودا من الدخان الأسود يرتفع في الهواء الراكد، ويضيع في السماء الليلية ببطء وثقل وهما ينزلان من العربة ويخطوان إلى الرصيف الرملي ويلقيان بنظرة أخيرة إلى هذا القطار المترب الذي سرى بهما الساعات الطوال، ينهج في وقفته وتتقد أحشاؤه في وهج أحمر.

وضغطت ذراعه وهما يخطوان أمام غرفة ناظر المحطة، والبعوض يطن ويهوم حول المصباح الضخم المعلق في السقف. ثم تهب الريح فجأة فتئن أنينًا طويلاً في رؤوس الأشجار العالية المحيطة بالفناء المعتم، وقد ساده سكون غريب بعد أن خفت صوت القطار الراحل في جوف الصحراء، وهذا السكون الثقيل الحار، وضوء القمر، يخلق أوهاما مضطربة وظلالاً مهتزة. وأبنية المحطة المنخفضة تأوي تحت الأشجار الشاهقة، والصحراء القريبة مبهمة.

وأسرع إليهما حمدان خادم العزبة العجوز يسلم مهرولاً ويدعو لهما، في ثرثرة طويلة. ثم قال في النهاية، بتردد، إن الحمير واقفة خارج سور المحطة، بانتظارهما. فعبس أنيس للعجوز الطيب القلب، وساوره الضيق في كبريائه، فهو ما زال ينكر على أبيه أنه لا يرضى بعد بشراء سيارة، واحدة صغيرة على الأقل، فيوفر عليهم جميعا عناء الرحلة في القطار أولاً، ثم ركوب الحمير طيلة المسافة إلى القرية. وهذا العجوز الشحيح ... لكن أباه في الحقيقة ليس بخيلاً - جدا - بل هو كهل رخي القلب متوكل، ما يزال يصر على ارتداء هذه العباية من وبر الجمل، كأنه من شيوخ

القرن الماضي، ولا يريد أن يستمع إلى مجرد فكرة شراء سيارة، أو تجديد البيت الكبير العتيق. على أن العزبة تدر خيرا وفيرا، وأحواله رضية جدا.

وانتبه أمام سور المحطة الحديدي القديم، فإذا حماران فارهان كأنهما فرسان. وكانت سعاد قاهرية لم تر الريف عمرها، ومرحة سهلة، فصفقت وهي تهتف فرحا، وخوفًا، إذ تحاول اعتلاء الحمار يساعدها حمدان باحترام كبير، وبكثير من التسلية. وأنيس يبتسم ابتسامة محرجة مضطربة.

وانطلقت القافلة الصغيرة وتركت أنوار المحطة المرتعشة وشارع البلدة المتثائب، وأمام كل من الحمارين صبي فلاح يجري ممسكًا بعصا قصيرة على جانب الطريق الزراعي، وحمدان ينفخ من التعب والهرولة، ويمسح وجهه الجاف المخدد بكمه الواسع القذر، ولا ينقطع عن الدعاء والثرثرة بعبارات الترحيب.

والحقول الخضراء تتضام متهامسة في ضوء القمر، والترعة الواسعة تتلاحق أمواجها وهي تتقلب بصمت في

حضن إحداها الأخرى، وتشيع في الجو تلك الموسيقى المائية الخفيفة، حلوة في الليل المقمر الحار.

وهو لا يرى الترعة ولا الليل، بل يحس يدا تعتصر قلبه من الشوق إلى المتعة القريبة الماثلة، والخـوف، كأنـه مقدم على مصير يتربص به، بين المغامرة والخطر.

وبدت لهما القرية على النيـل، مـن بعيـد، وهمـا يخترقان إليها طريقًا ضيقة بين الحقول، صغيرة تومض فيها ذبالات المصابيح الخافتة لا تكاد تستبين، يمحوها نور القمر وظلاله الهاربة. وإذا هما يشقان الطرقات الملتوية الغامضـة بين البيوت الطينية، تطل عليهما النوافذ الضـيقة السـوداء وتدور بهما الأسوار المعتمة القليلة الارتفاع. وفجأة يسـطع لهما وهج نور ينسكب على البركة الواسعة التي تملأ جـرن القرية، وقد نزت فيه المياه بعد ارتفاع النيل، ويملأها الليلـة ذهب باهت مشع، من ضوء القمر، واتسعت عيناه وترقرقت فيهما نظر من الدهشة والرقة، ومرت على روحه موجة من السكون مسحت عنها مشاعره القلقة الثائرة، لحظـة، فتـرك نفسه تسيل لشعور من الدعة. ثم عاوده الضيق والألم البعيـد الغور، هو يحس روعة الليلة وذلك النيل في القمر، ويحـس

شيئًا كأنه العار، في الوقت نفسـه، والخجـل، يطـأ نفسـه ويغوص فيها.

ووقفوا أمام السراية المطلة على النيـل، وارتفعـت أنظارهما إلى البيت المبني بالحجارة القديمة الضخمة، والباب الخشبي الكبير ينفتح عن الفناء، وقد بدت في آخـره غرفـة الفرن يخرج منها وهج دافـئ أحمـر، وأصـوات الخبيـز المنشغلة المضربة، والنساء في ثيابهن السود، يعملـن بجـد ويثرثرن ويضحكن، وإذ شعرن بقدوم المسـافرين خـرجن إليهما. وهو يلقي عليهن بالتحية ضاحكًا مداعبا في ألفة، أما هي فتنظر إليهن كأنها في نوع جديد عليها من الحلم، وهـذا الفناء الواسع المعتم في قلب الريف, كأنه صورة قديمة.

كان أنيس طالبا بالطب بالقاهرة. وكان قد سافر إليها بعد عناء، فأمه لم تكد تطيق أن ترى ولدها وقد بعد عنهـا، يعيش في بلد غريب كبير - وهي التي شملته دائما بحبهـا وحماها، حتى لقد عاشت معه في غرفتين بـدمنهور، طيلـة دراسته الثانوية. لكنها الآن لم تكن تقوى، وهـي مريضـة، على مشقة الحياة في القاهرة، وهي كذلك لا تكـاد تحتمـل الفرقة عنه.

وفي القاهرة تفتحت حياة الولد، والتفت حوله شلة من الزملاء، يلهون ويتسكعون ويتمتعون إلى جنـب الدراسـة. دوامة من الأيام المحمومة المتتابعة، طافحة بالمتعة وبالسـأم وبالمزيد من المتعة والسأم، ومستوفزة بالثمل وصعلكة أبناء الأغنياء. وكان أنيس رائدا للجماعة، ومن أكثر رفاقه طلبـا للهو وإغراقًا.

وفي تلك الليلة من الشتاء الماضي كانـت الأنـوار تتعلق بأطراف الضباب المنعقد في جو الكباريه، والضحكات الغزلة ترن ثم تزحف في حنايا النفس، وإذا بموجـة مـن الموسيقى الآمرة تتدحرج في القاعة، وتخمد الأنوار، وترتفع ستارة المسرح عن الراقصة، في انبثاقة مفاجئة مـن النـور الفاضح. وتأخذ الموسيقى تتقلب في احتضار غرامي، وسعاد في تلك الغلالة الشفافة جسدا خمريا من الموسيقى والزبـدة وعجينة الضوء العاري. وهي إذ ترقص تـرتعش رعشـات متطاولة متوترة، ثم تميل في حرارة السحر البدائي المنبعث عن اللحم الحي الحار: كان جسدها ورقصتها شيئًا واحدا، هو ثدياها المنتصبان المرتجفان في غلالتهمـا الرقيقـة وأنـين رحمها المرتعد المجهول وانحناءات ظهـر طويـل نـاعم،

ووركاها يهتزان كأنما يخوضان أمواجا ثقيلة من الرغبة. هذا العري يتقلب وينطوي على أحشائه يتلمس من حمى ظلمتهـا سرا، ثم يدور ويتمدد، وتتفتح حناياه المبللة كأنها تستقبل، في رعشة اللذة، تلك الهجمة المشدودة الفرحة المخصبة.

وذهل الناس لحظة أمام هذه الموسيقى المتدحرجـة عن زبدة الجسد ورغوة الدماء الغنية، وانحبست الأنفاس كأن العالم كله يتخلق لأول مرة. ثم جن جنونهم فهبوا واقفين في صيحة واحدة من الهتاف، موجه متطلبة راعدة متصلة مـن التصفيق، يطلبون المزيد، دون أن يدركوا تمامـا، يجيبـون الأنين الراجف العميق المنادي من ثنايا اللحم السخيّ.

وانسدلت الستارة عن النجاح المنقطع النظير الـذي تقابل به رقصة سعاد كل ليلة، وانبعثت الأنوار تتعلـق مـن جديد بضباب الدخان والضحكات، وأفاق الناس من صـرخة دمائهم إلى خرمهم ورفيقاتهم وأصحابهم، يطفئـون وعـيهم الجديد.

وفي آخر الليل، وقد انفضت الجماعة، كـان أنـيس وسعاد يقطعان طرقات المدينة الهادئـة وقـد شـملها دفء جسمها المتعب وحرارة شهوته، في وهج خافت. وهي تسير

إلى جانبه ملتفة به كأنها تبغي الحماية من عاصفة تكاد تطيح بها.

أهي تحفة وسلعة، كان من حظه أن يظفر بهـا فـي السوق، تلك التي عاشت معه في شقته أسابيع طوالاً، ترضعه روعة السعادة الدسمة بين طيات الجسد الباذخ ونضال الحب الذي كانت تلتحم به لحظات فرحهمـا، أكـان مجـرد بيـع وشراء؟

وهذه الحمى القلقة التي تنبعث عن دمـاء مهتاجـة، وتشق طريقها المشتعل حتى تدفن نفسها في حنايـا الراحـة والسلام النهائي، كأنها موت طري ناعم عميق؟

ثم بدأت المنازعات حول المصـاريف، وهـذيانات الخصام وقبلات الاسترحام وسكرات الصـفح وانـدلاعات الشهوة من قسوة الخداع والمناورات، كـأن الرابطـة بـين العشيقين لا انفصام لها.

ورغبت إليه أن تـذهب تـرى العزبـة، وأراد أن يصالحها ويسليها، وشاقته هذه اللعبة الجديدة، فما بلغه أن أباه الكهل قد غادر القرية إلى مصلحة له في دمنهور، حتى انتهز

الفرصة وأسرع بها يقضيان معا أجازة يومين فـي القريـة وزعم لأهله أن زميلة له في الكلية ستأتي معه تزور العزبة.

لكنه الآن يحس مرارة وشيئًا كالأسى يثقل صـدره، ونوعا من الشغف القلق المتحدي. والنسوة يجتمعن عليهمـا في الفناء يسلمن بأيد مغطاة بأطراف الطرح السوداء، وقـد نزل عليهن فجأة سكوت تقطعه التسليمات الخافتـة، وهـن ينظرن إليهما بعيون تطـرف قـد أكلهـا دخـان الأفـران والكوانين. ورائحة العجين الطازج تملأ الفنـاء مـع نقيـق الفراخ المتهيج وقد أيقظتها الحركة الغريبة في الليل.

وهما يرقيان السلم ، وقد عرفا أن أمه المريضة نائمة فلن تستقبلهما ، فاتجهت سعاد إلى غرفة جانبية تغسل وجهها في طشت كبير ، وتصب لها الماء المصفر صبية مليحـة ، من إبريق في لون البرنز القديم.

أما هو فقد وقف إلى جانب الستارة المغبرة المتهدلة على نافذة غرفته ، والطنين يدوي في أذنيه والدماء تتدفق إلى صدغيه ، وبه اشتهاء جديد كأنما حفزته تلك النقلة إلى ذلـك الليل في قريته ، وفي غرفته. وحواسه مرهفة تلتقط صـوت

المياه تنصب في الغرفة الجانبية ، وأصوات الخبيز الخافتـة تتناهى إليه مع موسيقى الريف الذي يغتسل في القمر.

وإذ تعشيا أوى كل منهما إلى غرفته وقـد تـذرعت صداعا ورغبت في أن تنفرد في غرفتها. ثم تقدم الليل وهو ساهر. وسمع وقع أقدام رشيقة خفيفة مسترقة. وارتفع الدوي في أذنيه والتهب وجهه وأحس صدره يتفجر. ثم صوت الباب يرتد في هدوء. واستدار ليراها تحت المصباح الزيتي الكبير يصب ضوءه من السقف ثقيلاً حارا. ووقف كلاهما لحظـة ، كل منهما يحدق بالآخر كأنه لا يعرفه ، ثم تقدمت إليـه فـي تردد وارتمت بين ذراعيه فجأة في جرأة وقوة. كان يـتلمس بشفتيه خصلات شعرها ويدفن فمه في عنقها وكتفها ، كمـا يدفن الحيوان المصاب جرحه في تـراب الأرض الدافئـة. وكانت ترتدي شيئًا خفيفًا ما ، وهو يحـس بنـبض جسـدها يرتعش من التعب والحنين بين ذراعيه.

وأمسك برأسها بين كفيه وحدق في عينيها. ووجهها نضر ملتمع يبدو آسرا في جماله الحميم كأنه حلم حلو مـن فجر طفولته. وفي عينيها جوع ولهفة واستهتار ، وفيهما ألـم أيضا ، كأنها حيرانة تبحث عن شيء. وشـفتاها ترتجفـان ،

كما لو كانت موشكة على البكاء ، ولكن فيهما إصرارا مـن الرغبة ومن التشوق ومن المرارة. ثـم ضـحكت ضـحكة صغيرة كأنها قبلة مضطربة ، وأهدابها ندية. وفي نزوع حار التقت الشفاه وانهرست في نشوة طرية متلمسة المـرة بعـد المرة تتكشف في ظمأ لا يرتوي ، وتمص ابتلال الريق كأنه من ينبوع أصل الحياة. وهو يرضع من ثدي غير مشبع لـن ينتهي جوعه إليه أبدا لكن الملح على شفتيه لا تنطفئ له وقدة ، وظمأه لا نهاية له أبدا.

أما هي فقد كانت في خدر من الضوء الحار والليلـة الصيفية.

وأعينهما محترقة مثقلة بالسرور ونوع من العـذاب، واللهب يخبو في وجهيهما ويضطرم. ثم اندفعا يميلان فـي موجة كاسحة من الأذرع والسيقان المتشابكة.

وأحسا السلام يتفجر بينهما مرة أخـرى ، والهـدوء يجري مع الدماء المرتاحة بعد لأي. وهما ينهجان.

وكان القمر الفضي الصغير قد ارتفع فـي السـماء يصب في الحجرة ، من وراء الستارة المهدلة ، ضوءا أزرق يضيع في النور المحمر ، وعندما تلاقـت أعينهمـا بـالقمر

اضطربت فيها شعلة خجلة مندهشة. أما هو فقد أحس كأنـه انتهك عرضا حراما أو جدف با . وشعر بشيء كأنه الإثـم القديم يتنفس في داخله.

واستندت برأسها إلى كتفه في تعب ، وهمست إليـه في صوتها الطفلي، كبنت صغيرة ، أن يذهب يقفل النافذة.

كان ينظر إلى السحب البيضاء المهلهلة فـي سـماء الليلة المقمرة ، والريف تحته مرة أخرى عريان ، كامرأة تنام ، ونسمات الخلاء هنية خفيفة. وهو يسير على جسر النيل ، في عتمة داخلية خاصة به ، لا يحس السماء ولا الغيطان.

وتأملات مرة تهاجمه ، وهو يحلم كمن ألف الحلم فلم يعد غريبا عنه. لقد انقضت في تلك الفتـرة القصـيرة أيـام المتعة والعبث. وتمرس الولد الآن بالوحدة والألم ، والحلم.

كان أبوه قد عاد فجأة ، علـى غيـر ميعـاد ، مـن دمنهور. وفي جيب عبايته الواسعة تلك مـن وبـر الجمـل خطاب جاءه من مجهول محب لخيره وحريص على سمعة عائلته وقد حرص علـى أن يـذكر ذلـك كلـه صـراحة وبالتفصيل والخطاب يشرح له الأمر كله. كيف كـان ابنـه يعيش في القاهرة مع راقصة ، في الحرام وفي الفجور. بـل

يذهب فيأتي بها إلى بيت العائلة دون حياء ... إلى آخر مـا هناك من غيرة على الأخلاق ودعوة إلى التأديب.

وانقلاب الشيخ السمح يرغي ويهـدد ولا يسـمع إلا صوت الحنق الذي يأتيه من الداخل ، مشحونًا بشحنة غريبة من القوة.

هذا الولد يلوث البيـت ، ويلطـخ الأسـرة بالعـار ويستهتر على هذا النحو بكل بقية من حياء؟

وكان وجه الشيخ فتيا يتضرج بنيران محتبسة.

ـ والولد لن يعيش معه بعد الآن ، في هـذا البيـت الذي استباح حرماته ، بل لن يريه وجهه بعد اليوم. لا دراسة في القاهرة. هذه المضيعة. المسخرة. بل يبقى فـي العزبـة كأبيه وأجداده من قبل. فبـئس الدراسـة وبـئس الكليـات والجامعات. إن هي إلا فضائح.

أما أنيس فقد وجد نفسه مربوطـًا إلـى القريـة. لا يستطيع العودة إلى القاهرة من غير مال ولا سند.ولكنـه لا يقبل أيضا أن يبقى في بيت أبيه فاختار بيتًا من البيوت التي كانت تعد لعمال التراحيل ، في القطن والمواسم ، واتخذ منه سكنه ، في حمى من العناد والإباء. ورفض كل مساعدة من

القرويين الذين أسرعوا لخدمته ، في خفية عن أبيه. ودفعتـه الصدمة إلى نوع من التحدي. فكان ينام في بيته ذاك الحقير على حصيرة قديمة ، لا يقبل شيئًا ولا يطيـق شخصـا ... ويرد كل رسل أمه وأقربائه. حمدان فقط يأتيه بطعـام مـن طعام الفلاحين ويجلس إليه يهون عليه بحديثـه ويجهـد أن يؤانسه ، وهذا الكبرياء يهول القـرويين ويلهمهـم شـعورا غامضا ، كأنه التمرد ، والسخط ، على قدر كأنه هـو نفسـه مصيرهم من قديم. قدر يفرض عليهم الحرمان والجفـاف ، من غير اختيار.

ولكن ثم ما يطلق الألسنة كلها بثرثرة سعيدة لا نهاية لها ... والهمسات والحكايات تدور حول مواقد الشاي ، وفي غرف الفرن ، وأمام الكوانين. فالمدهش أن سعاد لم تطـرد من القرية بل ظلت في السراية. والقرويون يتكلمون في فزع أخلاقي بهيج عن هذه الفضيحة. كيف يسمح البيه الكبيـر أن يعيش ابنه في ذلك الكوخ ، كأنه عامل أجير ، والست الكبيرة ، قد ألح عليها المرض ، فلا محل لها اليوم في البيت ، ولـم يبق لها في الحياة إلا أن توفد الرسل إلى ولدها حتى يصالح أباه. والولد أبي لا يعود. وتلك الراقصة في السراية.

لم يعد للست الكبيرة محل في البيت. وهو أيضا ... لا محل له هنا ، في العالم.

فكر في احتقار وتسليم ، وهو يسير ببطء في القمـر الفضي.

وبهرته فجأة ، صورة قديمة مـن حياتـه ، مشـرقة فياضة بالنور. كيف كان في طفولته يعبث في جرن القريـة الواسع الجاف ، ذات صباح خريفي مشـمس بـين أكـداس الهشيم الذهبي المتخلف عن دريس القمح. وأبوه يرقبه وهـو يحاسب الفلاحين. كيف كان يقفز فوق الهشيم الناعم فتغوص فيه قدماه الصغيرتان ، ويتدحرج علـى الكومـة الكبيـرة ، متمرغًا فيه بترف. وأبوه يضحك فجأة ملء فمه تلك الضحكة القوية تملأ عليه الأفق بالدفء والأمان. تلك الضحكة القوية نفسها ، وقد اكتسبت رنة قاسية ، سمعها بالليلة الماضية وهو يمر ببناء السراية في آخر الليل ، مؤرقًـا كلـيلاً. وتـدفقت الضحكة فجأة مع الضوء الحار الثقيل الذي يأتي عـن تلـك النافذة العلوية. تدفقت إليه تملأ دماءة ببرودة مقشعرة ، كأنها من الحمى.

وطفا في نفسه شيء من المر. هجرته تلك البنـت ، ونسيته ، كأنه لم يمر بحياتها قط ، وانتهت إلى أبيـه. كيـف أغوته ...! لقد وجدت الآن برجا يحميها وتستنيم إليه. شيخًا كأنه أبوها وما زال إلى الآن لديه مع ذلـك فتـاء الرجولـة الأخير.

وهو - هو الآن وحده في عالم جامد مقمر فضـي، غريب.

ورنّت في أذنيه مع ضحكة أبيه ضـحكتها. ناعمـة متمددة ملساء ، كأنها جسد عار يتمطى في راحـة. ضـحكة تسيل إليه من تلك النافذة المضيئة ، فترسل الدم يتوهج فـي ظلام شرايينه وتملأ عينيه بملح الغضب والحبـوط ، بمـر التسليم والاندحار.

وهؤلاء القرويون ما يفتأون يختلسون إليه نظـرات مشفقة خائفة. أبحاجة هو إلى شفقتهم أيضا ، في نهاية الأمر؟

تيقظت نفسه على القسوة. ولكنه تيقظ لكي يجد نفسه منسيا في قرية ميتة ، والتراب يتساقط في روحه ، والوحشة تثلج نفسه حتى النخاع. بلا وطن ، وبلا محبة.

وهو قد مر الآن بجنون الألم وهوس الشك المتقلب ، وأحس طعنات الهجر التي لا تطاق ، ثم تيقن أن تلك الغانية قد نبذته فعلاً وقطعا. فأحس اليتم ، وأنه وحده. بـل أحـس السماء قد أزيلت من فوقه ، ولم يعد فـي الكـون كلـه إلا الخواء. لم يكن الأمر مجرد رفيقة تهجره. بل كأنـه يحـس صدمة الفطام على جفاف حياة مرة خشنة.

وتعاقبت عليه الليالي الطويلة المحمومـة ، المليئـة بالعذاب. لا تنتهي. تهدأ العزبة في الليل فيجلس في الظلمة ، على عتبة بيته ذاك الحقير ، في آخر الشارع. وتعصف بـه في وحدته تلك الدموع وتمضه شقوته فـلا يكـاد يطيقهـا ، ويسند رأسه إلى الحائط الجاف. لا كبرياء الآن. ولا تحدي. بل تلك الدموع. تلك الدموع. يبكي روحه المنكسر ، ويبكـي آلامه. وهو أيضا يسخر من هذا العذاب ويحتقر ضعف تلك الدموع ، ويخجل منها ، ويومض في نفسه برق من اللهفـة إلى التشدد والصلابة. برق لا يفضي إلى مطر بـل يختنقـه الحبوط. ثم يشعر بعد البكاء ، بدوار كأنه الغيبوبـة ، كمـن شرب خمرا هادئةً مريرةً. ويحس شيئًا كالراحة المضـناة ، فيسلم نفسه على عتبة البيت ، وهو في جلسته ، لنوم مرهف

حاشد بأحلام قلقة. وتلك الأحلام الطفلية كأنه ما يزال صبيا ، تتراءى له في الليل ، تهاويل الوحوش التي تكاد تهـم بـه ، والغيلان والسباع تحيق به ، والحفر العميقة تنفتح فجأة تحت قدميه. فيتقلب في فراشة ويستيقظ ، وما زال يشعر بعد يقظته ، في عمق الليل ، بخوف جموح متماك لا يعقـل ، ورهبـة الكابوس تملأ ليله. فيأوي إلى الداخل ، كطفل خائف ، لكـي يستيقظ على رعشة البرد في أواخر السحر. وتسطع الشمس مرة أخرى على عالم واسع متحجر لا شيء فيه. ويمر اليوم الطويل. نعم يمر ، ينتهي اليوم. فما كان في الصبح ليرى له نهاية.

وفي المساء يدفعه القهر ، في وحدته ، إلى ما يشـبه هذيان الممسوسين. فهو يهيل السخط والسخر والحقر لنفسـه ولألمه ولعالمه. ويشعر بشوق غالب لأن ينشد مـن يكلمـه ويؤنسه ويشعره بحرارة الرفاقة والزمالة. ويحن إلى زملائه بالقاهرة حنينًا لا يحتمل ، وإليها. ولكـن الكبريـاء والعنـاد يصفدان قلبه بالقسوة. فيذهب إلى بيته ويرتمي على الأرض في عتمة الحجرة الخاوية ، ويبكي مرة أخرى كأنه طفـل لا يطمئن إلا لآلامه وفي حمى دموعه.

وعندما يجفوه النوم ولا يجد راحة ، يجلس على العتبة يحدق في النجوم الصغيرة اللامعة التي لا عدد لها. ويحس رقة غريبة تتسلل إلى داخله وتعزيه في اهتزازات هادئة ؛ فيقوم يتمشى في الليل ، بين الحقول ، يسمع الرصاص يطلقه الخفراء من بعيد ، للإرهاب ، أو ليطردوا النوم من أعينهم. ويحس كآبة صامتة طويلة كأنها السلام أو كأنها نوع من الخدر والجمود. وعندها يذرع طول الجسر على النيل يصغي إلى هذا النشيد القديم الذي يسري معه مياه النهر ، ثم ينداح في نفسه ، فجأة ، ألم ضيق مرهف حاد ، كأنه جرح. لكنه الآن لا يجد حوله إلا الفراغ ، ولا يحس شيئًا. ولم يعد إلا التراب يتساقط في نفسه بهدوء.

وهو متعب مجهود ، يجر قدميه ببطء ، وفي نفسه سأم كأنه الصفاء ولا صفاء هناك وإنما ثقل وملال.

لم يأكل طيلة نهاره شيئًا ، ولعله لا يذكر ، في الحقيقة ... وهل قضى سحابة يومه يمشي على هذا النحو، بلا غاية! لا يعرف. وهو لا يهتم. إنما يريد أن ينتهي الآن منن كل ذاك.

كان يقترب من القرية ، وضوء القمر ينسكب علـى البيوت القلائل وعلى أبـراج الحمـام الشـاهقة البيضـاء ، وأطرافها شائكة بالسنان المشرعة إلى السماء. رأى جماعـة من الفلاحين ، فيهم حمدان ، وقد التفوا في حلقة حول نار من قوالح الذرة يعدون عليها الشاي.

وانطلق نباح الكلاب ، ولمح الفلاحين ينظرون إليـه ويتبادلون همسا سريعا. ثم عرفته الكلاب ، فأخذت تهر فـي سعادة خافتة وتتواثب حوله تتمسح برجليه. وارتفعـت فـي نفسه فجأة ، مع ذلك التعب المتهالك ، رحمة رقيقة نحو هـذه المخلوقات كلها – وقد أحس نفسه منها – هذه الكلاب التـي تلحس يديه وتحمحم في قناعة ، وهؤلاء الفلاحين بوجـوههم الخشنة المجعدة تنعكس عليها ألسنة النار الهادئة ، كأنها فـي حلم متكسر من المحبة. وعجب لنفسه ، فهو لم يحس تجاههم حتى الآن إلا النفور أو اللامبالاة ، أو ألفة السيد بـالأجراء ، كأنه لم يعرفهم قط.

ولم يره الفلاحون أبدا كما كان فـي تلـك الليلـة ، يضحك ضحكة كبيرة غير معروفة عنه ، كأنها ضحكة أبيه. ويحكي لهم عن مصر ، وقد جلس معهم يأكل كوزا من الذرة

المشوية الطرية ويشرب الشاي. ولكنهم مع ذلك يستشعرون شيئًا في الجو ، كأنه ريح أمشير على وشك الهبوب في يـوم مشمس حار. شيئًا غريبا يتولد.

ثم هب واقفًا فجأة ، وألقى علـيهم التحيـة بجفـاء ، وبشيء من الصرامة وذهب إلى البيت في آخـر القريـة ، وحده.

كان النسيم يأتي إليه من النيل ، والجداجد تصفر في الليل ، وعصفت بروحه طاقة غير ملجمة جموح. هو يحـس قلقًا. فانحنى فجأة يخلع حذاءه ويحمله في يديه ، بلا تفكيـر. ووطئت قدماه نعومة التراب الساخن من أثر شمس النهـار. وأحس حنانًا وحرارة تنبعث من الأرض إلى دمائه وتشعشع فيها بلذة غامضة ، إذ تغوص قدماه في جسد الأرض الدفيئة. ثم وجد نفسه يسرع في سيره متجها إلى غير وجهة ، وجاءه الألم وشيكًا ، والضيق. وصور من العنف والتدمير تلمع في ذهنه ثم تنطفئ. وضحك من نفسه.

ـ يمشي حافيا على الأرض ...

والقلق يهيجه ، وشيء يشبه الخوف.

ـ لماذا مرت حياته على ذلك النحو ، لا معنى لها؟

خيبة واحدة كبيرة متصلة. وكذبة لم تأت إلى شيء. مجرد هذا الشقاء الذي يحط في أحشائه بكل ثقلـه ، عميقًـا وراسخًا كأنه أصل وجوده ، وهو الدليل على أنه قد خـاب. كأنه في حاجة إلى دليل ...!

وصفاء نفسه يضطرب. وغاب فلم يعد يفكر أو يحس شيئًا ، وهو ينحني يلبس حذاءه ويسرع في سيره. وانحرف ، عن غير قصد تماما ، ليطأ عقب سيجارة مشتعلة لعل أحـد خفراء القرية ألقاها على الأرض ، هـذه النقطـة الحمـراء المختنقة ، تحدق إليه من التراب كعين مفتوحة بـلا جفـون. وكأنه ما يزال طالبا بالطب بالقاهرة ، خلي البال ، يذهب إلى غرفته لينام بعد سهرة مضنية ، ويطأ فـي طريقـه عقـب سيجارة.

ووجد نفسه على عتبة البيت ، وكل شـيء هـادئ ، وخرير المياه في الترع يصعد إليـه ، وصـفير الجداجـد ، والكلاب تنبح الليل من بعيد ، والقمر. وهو يستنشـق مـلء رئتيه من هذا الهواء المعطر برائحة الزرع. وابتسم ابتسامة قاتمة يصور لنفسه انتقاما ينزله بأبيه الشيخ ، وسعاد. وسوف يتعذبان. وسمع ضحكة غريبة تنطلق بجواره فالتفت بدهشة ،

وهو يفيق من غيبوبة الدم المثقل المتقلـب. ثـم أدرك أنهـا ضحكته هو. وأحس خجلاً من نفسه. لا ، لن يفقد أعصـابه الآن. ليس الأمر انتقاما يرتفع من دمائه الموحلة في ضحكة لا تعي. والموت يبدو غامضا في سحابة مضـطربة ، شـيئًا بعيدا عنه لا يهمه. وبعد ذلك لا يدري. ولا يهتم. وليس الآن وقت هذا كله. تبدو له المسألة من أولها لآخرهـا كخـواطر هذيان في حمى قديمة، هذيان غير واضح ونصف منسـي. لكن هذه الحمى ما تفتأ تلح عليه كأنه على وشك أن يتعـذب من جديد. وشعر بالدموع تصعد من أعماقه دفعـة واحـدة وتملأ عينيه فجأة بنافورة مرارتها المغرورقة ، فتحجب عنه كل شيء. ويحدوه نزوع لا يقاوم لأن يترك الآن ذلك الأمر كله، لأن يرتمي فقط على هذه الأرض ليبكي. يبكـي نفسـه وحياته كأنه ينعاهما. والهواء حلو بعد حرارة اليوم المرهقة ، ملء رئتيه ، والحياة تبدو كأنها ما تزال مقبولة.

وفي جهد حبس عن نفسه راحـة الـدموع ، تلـك الخدعة. ووقف يهتز في العاصفة التي تريد لتحمله. إنه لـو بكى فلن ينتهي إلى شيء. لو بكى لواتته الراحة التي تعقـب

الدموع. راحة الاستسلام التي تجعل الحياة محببـة ، كأنهـا الأسى الشائق في السماء الهادئة بعد المطر.

وهو لن يستسلم بل هو لا يفكر الآن فـي شـيء ، وليس به حاجة أن يقرر شيئًا ، فكل شيء قد انحسم من زمن بعيد ، قديم ، موغل في القدم.

وانفجرت عن نفسه تلك الزوبعة التي كان ينتظرها ، متمردة وحافلة بالخبال. لكأن العالم كله يتمـزق ويـدوي ، ويتكسر في زلزال متدحرج متدهور. وآتته فجاة نزعة ثاقبة في أن يضرب ويخرب ، أن يصنع شيئًا لا يجسر أحد علـى النظر إليه ، أن يسحق كل شيء ، بضربة واحدة ، كل شيء ، حتى الفتات.

ودوت في العزبة النائمة طلقة نار.

وظن القرويون وهم يتقلبون في نومهم الثقيل أن أحد الخفراء يطلق بندقيته ، للإرهاب ، أو من الملل.

حكاية صغيرة في الليل

كان الليل وديعا ، تقلق سكونه أنغام رخيصة بذيئـة، تتراقص مع الأنوار المنسكبة من النوافذ العريضة ، والهواء يلعب بالأستار الرقيقة ، والفيللا قد سقطت في حضن الليل ، وأمامها النيل ينطلق في جلاله القديم من وراء الشارع ، بعد أشجار السور.

وكانت تقف على باب الفيللا المطل على الحديقـة ، تشيعه بنظرها وهو يعود ، بطيء الخطو ، محنيا قليلاً إلـى الأمام ، ينظر إلى الأرض.

ثم سارت خلال الممرات التـي تلتمـع حصـباؤها البيضاء في الليل ، وجلست في مقعد فـي أحـد الأركـان ، ووجهها يضيء في العتمة ، كوجه تمثال يلمع فـي بيـاض خامد.

ونزعت عن عينيها نظارتها الطبية وأسندت رأسها ، مغمضة العينين ، إلى جذع التوتة الشاهقة خلف المقعد، وهي تتنهد تنهدة صغيرة.

كانت الليلة عيد مـيلاد قاسـم بيـه. عيـد مـيلاده الأربعين. وكانت قد رقصت كثيـرا ، وضـحكت كثيـرا ، وشربت ، ثم بدأ يسري التعب والسأم في ساقيها وروحهـا ، فاستندت إلى حائط الغرفة ودارت بنظرهـا فـوق أمـواج الراقصين والراقصات في ثيابهم الأنيقة ، وفي الجو رائحـة التعب والجسد العطر ، وعرق الأيدي على الظهور العارية ، والأجسام الأنثوية المحبوكة توقظ في أعين الرجال شـهواتها القديمة.

ـ هدى ، أنت تعبانة باين عليك. تحبي تتمشي شوية في الجنينة بعيد عن الزحمة والدوشة دي؟

كان من المدهش ، دائما ، أن يعرف قاسم بيـه مـا يدور بنفسها. كأن بينهما نوعا من الفهم الخـاص. فنظـرت إليه. وقد تحرك في قلبها شـعورها القـديم نحـوه ، هادئـا عطوفًا رقيقًا به قليل من الضجر وقليل من الإعجاب، مزيجا من محبتي الأم والبنت.

كان قاسم بيه رجلاً كأنما طردته الحياة إلـى داخـل نفسه ، بعيدا عن زحمة الحياة في الأسواق. وقضى شبابه كله يعيش في كتبه ، يهرب من المرأة ، كأنما هو موقن أنها لـن

تكون له. وكان حزينًا ، كأنه لم ينس أمه التي ماتت عنه في الخامسة من عمره ـ ولكنه كان قد نسي فعلاً ، وانبسـطت حياته أمامه ، ممهدة مسطورة ، وقد كان دائما في حمى مـن عنف الحياة. فعائلته ميسرة الحال ، وقد انتقل من الكلية إلـى النيابة ، ومن النيابة إلى القضاء ، كان قاضـيا فـي إحـدى عواصم الصعيد ، يمضِي الصبح في المحكمة يفصـل فـي قضاياه بصوت متعب ملول، ثلاثة أيام من الأسبوع، وبقيـة وقته في المنزل، يقرأ قضاياه ويكتب كتابه في القـانون. ولا يكاد يلم بالنادي حتى يسأمه فيعود إلى أوراقه المرتبة التي لا تنتهي. وحياته تنسرب منه ، كأنه لا يحس بها. حتى مرض فاستقال ، وسوى أمره ، وعاش في فيللا بالجيزة ، يستشـفي من مرض رفيق هين لا يفارقه ، ويكمل كتابة الكبيـر فـي القانون ، منفردا ، لا تؤنسه إلا أحلام قديمة متحجـرة غيـر متحققة.

وفي ذلك الصبح الخريفي عندما دخل قاعة المحـل التجاري الرحبة ، وقد شملها ضوء باهت سقيم يشـيع فيـه عطر خفيف ، ونفح المظهرات ، وأنفاس البضائع المخزونة، لم يكن في القاعة إلى عدد قليل من المشـتريات يتناقشـن

بصوت منخفض مع العاملات بثيابهن الزرقاء الفاتحة. ودخل قاسم بيه يمشي على مهل ، ويتلفت في حذر خجل كأنه يعتذر من وجوده.

كان يريد شيئًا من الورق الأبيض لمذكرات كتابـه. وشرد ذهنه قليلاً وهو يفكر أن حياته كلها تمضي مع الورق. حياة صومعية. وأحس حنقًا قديما مألوفًا على هذه الحياة التي لم يبق لها إلا أن تنتهي ، كأنما بلا معنى. وأخذ في أثناء ذلك يسرع خطوه ، ناسيا تردده وخجله ، يبحث عن طلبته.

وكانت هدى مستندة إلى منضدتها المصقولة اللامعة ، تنظر إلى السقف المرتفع ، والشرفات الداخليـة المنسـقة بالبضائع ، وثم تناسق غامض بين شعرها المسترسل الحالك ، ومنظارها الطبي الحريمي الأنيق ، وفستان العمل الأزرق المحبوك ... وأحست شيئًا فالتفتت فجـأة ، إذا بهـذا السـيد الكهل الخجول يحدق فيها.

وتلعثم شيئًا ، هذا الشيخ الغريب ، ثم سألها حاجتـه فلفتها له ومضى مسرعا .

ولعله لم يقرأ ولم يكتب مساء ذلك اليوم بـل سـهر يراوده شوق قديم كئيب .

ولم تملك إلا أن تبتسم له حين جاءها ـ متـأخرا ـ في اليوم التالي لشراء قلم ، ثم كراسة .

لم يكن لها أصدقاء . فقد كانت نفورا عصـية علـى التعارف السهل . ولعل الرغبة الحارة إلى الصداقة والحب، وذلك التوق العنيف للرفاقة والزمالة ، لعـل ذلـك نفسـه يشمس بها عن عقد الصداقات وعن التآلف اليسـير . مـن يدري؟ لعل هذا الكبر نفسه الذي تضيق به زميلاتها مجـرد قناع مسدل على شعور ممض بالحرمان والحبوط .

ثم يأتي هذا الشيخ الأنيق الخجول ، بنظراتـه التـي يعيش فيها حلم مكسور . .

وفي مساء يوم شتوي كانا معـا فـي دار السـينما وكلاهما يعرف أن هذه هي البداية .

ثم نمت صداقتهما بسرعة إلى محبة غريبة بدائيـة؛ كأنها نبات عطشان مصوح روي بالماء فجأة فربا غضا ذكيا ، ومتأخرا ، شرها للحياة .

وكثر ترددها على فيللا قاسم بيه وكثر ذهابهـا مـع القاضي الكهل إلى المحلات العامة ، ودور السينما ، كأنهـا بنت صغيرة هاربة من المدرسة .

وكانت تحبه أيضا ، بلا شك ، نوعا مـن الحـب ، وحبها له ، كشيء بدائي ، يعيش في ظلمة مدفونة فيها .

وفي أمسية هادئة تفتحت له ، في رضـا ، وكأنهـا تؤدي واجبا عليها أن تقوم به ، كأنها تنفذ إحـدى الوصـايا العشر ، وأخذته إليها . وكانت تحس دماءه تضرب في عمقها البكر ، كدماء ملك يكاد يفقد صولجانه ، فيها كبرياء عتيق ، وحرارة توشك أن تخبو ، حرارة منقولة من سلالة عريقة . وكانت مع ذلك تحنو عليه ليلتها ، كما لو كان طفـلاً ، فـي رقة جسدها الغني الناعم ، تعطيه ، وتضـحك لـه ضـحكة صغيرة رقيقة . ولكنها كانت تعرف أن ملكها الحق لم يـأتِ بعد ، وكانت تنتظره ، تنظره في ثقة دمائها ، فـي رحمهـا غير المرتوي .

وأقبلت معها إلى الفيللا الساكنة حياة جديدة ، متوثبة وانقلبت الفيللا إلى وكر يمرح فيـه قطيـع لاه . وابتـدأت الموسيقى تعزف بين حيطان كان الصمت قد طـال بهـا ، والحفلات تتوقد وتتلألأ ، وترن الضحكات وابتدأت جماعات كثيرة من الشبان والشابات تتردد عليها ، والسيارات تغـدو وتروح . وفي زمن وجيز وجدت هدى نفسها في بؤرة حياة

اجتماعية مدومة . وكان منظارها الطبي يفيض على وجهها مسحة عقلية غير مألوفة . وهي دائما متسامية علـى ذلـك الجمع ، في مجد طبيعي فطري ، بالرغم من طبقتها بلهجتها الهادئة العميقة ، وبجمالها الغامض ، ومشيتها الرقيقة المتئدة ، وأناقة مدروسة في ثيابها .

لكنها أحيانًا كانت تمقت ذلك كلـه . والضـحكات والشرب ، والزحمة . ما نهايتها هذه اللعبة؟

شخص واحد تحس منه الفهم العميق الذي يوجد بين الزملاء . يسري . فهل حدس سرها؟

كانت ترى من نظراته المدركة الرقيقة أنه يعـرف، بالظن ، ما يعذبها. لكنها ـ هي ـ لا تعرف .

وكانت تفر أحيانًا من الضجة إلى غرفة منزويـة ، لتخفي البريق المبلل في عينيها .

وهذه النظرة ، تلك الرقة ، وذلك التساؤل ، تراها في وسط الزحمة المتلاطمة في الراقصين والراقصات ، تحسها تتبعها ، دائما من بين الضاحكين والغزليين .

ما حكايته ، يسري هذا؟ لِم يحييها دائمـا بصـوت خافت خاص دون أن يحـاول ، كـالآخرين ، اسـتمالتها أو

مغازلتها؟ وهو غريب وسط ذلك الجمع ، كأنه أكثر اتزانًـا منهم وأكثر خبرة ، وأعمق . وإن كانت بالطبع لا تستطيع أن تحكم عليه بشيء فحديثهما لم يتعد المجاملات المألوفة، وهو لا ينظر إليها أبدا مباشرة ، كأنه يخشى أن يقع بصرها على شيء منه ، عزيز إليه وخفي . لكنه دائما هناك ، يتبعها في هدوء ، في مقدرة ودون تعجـل ، دون استرضـاء . فـإذا التفتت إليه فجأة ، كأنما تسـائله ، حـول بصـره عنهـا ، وتشاغل .

لكن ، ما الفائدة؟ يعودها هذا السـؤال القـديم ، مـا الفائدة؟ ما جدوى المغامرات العاطفية؟ كأنها تخشـاها ، وإن كانت تتوق لها . كأنها موقنة من الآن بالفشل . وشيء قـديم منسي يحذرها ، ويرغبها ، ويخيفها .

ووصلت إليها من الفيللا أنغام الجاز الحاد ، من بعيد ، لاذعة ، تنهج وترتمي في رنين أجوف جوعان ، ونغمات هذه الأشواق الكاشطة تجرحها ، وتحيي فيها وحشتها العميقة المرة . تلك الوحدة التي لن تشفى قط . وهـي منسـية مـع آلامها ، منفردة بيأس بلا جدوى . كأنها شيء محطـم مـن الداخل ، ومنبوذ ، ولا أحد يهتم ، لا أحد يحـس . لا أحـد

يدري ، كلهم يعيشون منزوين في صمت نفوسهم المقفلة . لا جسور بينهم . يملئون حفـر نفوسـهم . بـالخمر وبالجـاز وبالأنوار ، وبالغزل ، وبالجنس والعمل ، دون جدوى .

وهي؟ أحتم أن تحيا طيلة عمرها ، تنتظر وتخشـى، محبوسة في نفسها ، صامتة؟

ـ آسف إذا كنت أزعجتك .

واعتدلت في جلستها بسرعة . وقد باغتها الصـوت الرقيق . وهتفت :

ـ يسري .

وكانت هتفتها نداء ، نداء مثقلاً بالوحشة التي تملؤها ، بالحنين والشوق المر ، بعذاب الحرمان والنسيان .

لكن هذا النداء ، في الأول ، لم يكن إلا صيحة دهشة ومفاجأة اكتسبت عمقًا جديدا غير منتظر .

أما هو فقد ارتعد . ارتعد من عمق هذا النداء ، ومن عمق هذه الليلة ، والصمت الذي يلفها كأنه صمت النجـوم . وقف مترددا . فدعته بلهجة حانية رقيقـة ، وهـي تضـع نظارتها على عينيها ، أن يجلـس . وأحـس رهبـة عذبـة

غامضة تتسلل إلى قلبه ، رهبة تفيض على الكون ، فتحيلـه مبهما وشائقًا . وساد صمت مشحون . فقال في تردد :

ـ الجو جميل الليلة ، مش كده؟

وصمتت ، ووثبت في دمائها نار صغيرة ، تـدفقت في داخلها وغمرتها . وأومأت برأسها فلم تكن تجد القدرة أن تتكلم . وهي مع ذلك تحس نوعا من الحرج . مـن النـدم . لماذا؟ لماذا تناديه بهذه اللهجة؟ وتحس أن حلمها الطفل يسقط عنها كغلاف شرنقة قد بلي. وتحس دماءها غنية مليئة كأنها ثمرة ناضجة متوترة عبرت بها غيامات الشـتاء. وابتـدأت تفيقها شمس الصيف .

لكنه أراد أن يتخلص من هذا السـحر الرومـانتيكي كله . واستطاع أن يجد صوته أخيرا وأن يضـع فـي هـذا الصوت شحنة كافية من القوة تمكنه من أن يتحدث . فلم يكن بمقدوره أن يبقى في صمت دمائه التي تبهظه . ولـم يكـن بمقدوره أن يحتمل منها ذلك الوهج ، وهج ثمـرة ناضـجة تحمل في رحمها كل شمس الصيف ، فلجأ إلـى إشـعاعات خياله ، إلى بريق الزبد وهو يقص عليها ، في سخرية خفيفة مستمتعة ، شاعرا بغرابة حكايته ، كيف أنهم يزعمـون أن

هذه النجوم المتألقة فوقهما هي ماسات تساقطت مـن دروع الملائكة حينما كانوا في البدء يصارعون الشيطان وجيشه من الملائكة الساقطين . والنجوم هي بقايا تلك الحرب السماوية . وتسللت إلى صوته رنة شفقة على المنهزمين ، كأنه يـرحم الملائكة السود ، وراحا يضحكان بعد ذلك ، لغرابة القصة ، ومن انفعالهما أيضا ، بعضهما بالبعض .

ثم ساد صمت بينهما . ووصلتهما أنغـام الجـاز ، لاهثة من بعيد . فجعلتهما يحسان عمق وحشـتهما ، عمـق احتياج أحدهما للآخر ، احتياجا موجعا .

وواصل كلامه ، كأنه يكمل حكايته ، بنفس اللهجـة الخفيفة التي أخذت تتغير شيئًا فشيئًا ، وتتهدج ، وتغدو ملحة ، ضاغطة :

ـ تعرفي بقى في الروايات وفي وقت زي كده تمام ، وفي نفس الجو ده اللي المؤلف بيوضبه ، تبصـي تلاقـي البطل يركع مرة واحدة قدام البطلـة ، مـش كـده؟ ويقعـد يوصف لها حاجات غريبة . . ملتهبـة . . بيحسـها فـي نفسه . ويعترف لها بآلامه وأشواقه وغرامـه ، إزاي هـو

بيحلم بها طول الوقت ، بيعبدها ، إن حياته ما بقـاش لهـا معنى من غيرها .

لكن أن مش عارف ، أنا عايز أقول لك حاجة بسيطة صغيرة ، في كلمات بسيطة صغيرة .

هدى . أنا . . أنا بحبك .

ومرة أخرى في تاريخ لا بدء ولا نهاية له ، تخلقت هذه الكلمات ، واكتسبت وعيا .

وهي صامته ترتجف في داخلهـا ، كمـا ترتجـف الشمس في وقدة ظهر صيفي . وتسارعت أنفاسـها قلـيلاً ، قليلاً ، بدرجة لا تحس .

وضحك ضحكة قصيرة غير ثابتة :

ـ ما عرفش . أنا لازم عبيط أوي ـ وضـحك ـ زي الأولاد الصغيرين . مش حتصدقي أننـي فـي بعـض الأحيان كنت آجي في العصر ، أو بالليل ، أقف هناك عنـد الباب الحديد تحت الشجرة ، وأقف بالعربية فـي الشـارع ، وكل حاجة هادية ساكتة وأقعد أبص في أشجار الجنينة ، من ورا السور ، زي الروايات تمام . عشان أشوف بس الستارة بتتهز ، أو ضل يعدي وراها . خمس دقائق كده ، ولا حاجة

قبل الميعاد ، أو قبل الشلة ما تيجي. كأن بيني وبين البـاب والشجر والستاير نوعا من الفهم والألفة . لكن أن مش عايز أقول اك الكلام ده كله دلوقتي. كنت عايز أقول لـك بـس الحاجة الصغيرة البسيطة دي . الحاجة الكبيرة جدا مع ذلك .

وساد الصمت مرة أخرى في الليل .

ـ هدى .

كان نداء موقظًا ، فيه حياة كاملة ، متطلبة ، متوترة.

وهمست ، كأنما لنفسها :

ـ إيه الفايدة؟ إيه الفايدة؟

من غير أن يسمعها .

ووضعت يدها على يده ، وأخذتها إليها . وأحس فقط أنها تستجيب له ، وانجاب القلق المشدود حولهما من صمت اللحظة الفائتة . وأحس رضا وسعادة غامرة هادئة ، كموجة من الدفء بعد برد طويل ، وضغط يدها وهو يهمس ، فـي صوت مختنق ، هدى هدى ، في شكر عميق ، في حـب لا قرار له . ولم يشعر بحاجة إلى أكثر من ذلـك ، مجـرد أن يجلسا وأيديهما متشابكة في ضغط رقيق ، في رفق ، في ثقة ، مستندين معا الآن إلى شجرة التوت ، يحدقان فـي سـماء

الليل وبقايا حربها ، قانعين بما يتشعع في دمائهما من فـرح وديع . وكانا سعيدين ، لحظة ، بمجرد إحساسهما بالليل معا ، بالنجوم ، بحبهما ، وأيديهما المتماسكة .

ولأول مرة نسيت . نسيت لأن الحيـاة جميلـة ، أو بدت لها جميلة ، واستسلمت في الليل لشمس كبيرة تسطع في قلبها ، وتركت نفسها مع نسيم ليلة الصيف ، كأوراق التوت التي تخشخش فوقهما ، وقد تركت نفسها أيضا يهزها الهواء ، وتصعد فيها عصارة الأرض .

فهل وجدت الآن موضوع وحشتها وشوقها؟

هل جاءها مسيحها . . ؟

جاءها فلم تعرفه ، في الهزيع الأخير مـن الليـل ، وأيقظها ، على أنها كانت قـد تركـت شـمعتها تنطفـئ ، كالعذارى النائمات ، لكنه أيقظها ، وأخذها إلى مملكته .

وما بعدها؟

هذا القلق ، هذا القلق المتيقظ أبدا ، يقرض شيئًا في طرف من نفسها ، لكنها لا تستطيع أن تهتم به الآن .

وأغمضت عينيها وتركت قلقها يغرقه هذا الحـب . كأنها لا تطلب شيئًا ، ثم قاما معا . وارتفعت إليهمـا أنغـام

الجاز الزنجي يشكو ويئن ، يتواثب في سـكون الليـل دون قناعة .

***

كانت هدى ما تزال أرقة ، بينما الليـل أوشـك أن ينتصف . وكانت تنظر عبر الحجرة إلى المصباح الخافـت، فوق مائدته الصغيرة تتخايل بجانبه بضـع أدوات غامضـة المعالم . وهي مستلقية كأنها بـلا حيـاة ، بجـوار أختهـا الصغيرة على السرير ، ولا شيء يبدو منها غيـر التمـاع وجهها الرخامي ، تنصت إلى الليل يملأ الحجـرة بحـرارة مجسدة مبهمة ، كشيء بدائي لم يتخلق بعد . لكنه ينبض .

وقد استسلمت في همود ، لحرارة الليل الرازحة .

وكانت أشعة المصباح تسقط على كـوب زجـاجي ممتلئ بالمساء ، وتتغلغل في عمقه الشفاف ، وهـي تبـرق وتخطف ، ثم تفلت من جدار سجنها الزجاجي المصـمت ، ظلالاً دقيقة متشابكة صامتة ، تهوي من حافة المائـدة إلـى العتمة .

كانت هدى ترعى هذه الكائنات الليلية السجينة . ولم تكن صافية الذهن ، ولا هي تدرك الأشياء بوضوح ، وقـد

أمضها الأرق وإنما تحس في أعماقها بالانحباس والكظـم . كأنما هي تشارك هذه الأشياء مصيرا واحدا ، ليل الصـيف الذي أغلقت عليه الحجرة ، وأشعة الضوء المسـجونة فـي الماء.

وهمست في الظلمة كأنها تمنح سرها مخلوقًا قريبـا إلى قلبها :

ـ سجن . . كلنا في السجن . . محبوسين .

وجاءها من الليل طنين مكتوم . ووثبت من الظلمـة إلى دائرة النور فراشة ليلية بيضاء ، راحت تحـوم حـول المصباح الكهربي المتقد الساكن ، وهي تئز كقطعة صـغيرة انفلتت من آلة هائلة دوارة ، قذف بها خطأ ، أو قدر ، وقـد أذهلها الضوء المفاجئ ، فهي تدور في حلقات سريعة متقلبة ، حتى اصطدم جناحها بحافة الماء في القدح. وانبعثـت ـ ولما تكد ـ رعدة خفيفة في المياه المسجونة . وكانت هـدى قد شرد وعيها .

فالتفتت فجأة إلى ذلك الكون الخاص المضـيء فـي ركن الحجرة ، ذلك العالم المستقل الذي تمده بالحياة شمسـه الكهربية . وأخذ بصرها آخر حركة للحياة في ذلك العـالم .

والفراشة تغوص في الماء . مضغة مبللة بيضاء راح لونهـا يدكن بسرعة . وسرى في القدح ضباب خفيف مـن الهبـاء الأبيض ، ضباب باهت كالقمر ينسكب في البرد على عـالم جامد خاو .

وتقلب أحد أخوتها في غطائه وهو يتنهد بعمق ، في حلمه .

ونزلت هدى من على السرير بحذر . وفي ذهنها أن تجدد الماء في القدح . ووقفت إلى حافـة السـرير تـتلمس الشبشب بقدميها وسارت على أطراف أصابعها . وكانت يدها ترعتش عندما امتدت تنزع الكوب من تحـت المصـباح . وتقلب كل توازن في العالم المضيء الساكن الذي مات .

لم تكن تدري تماما ما تفعل ، بل هـو شـيء ، أي شيء ، يلهيها وتتحرك له ، كمن ينشد الفرار . هي على أية حال تغير الماء ، فلعل أحد أخوتها ، في غفلة مـن نومـه ، يشرب الماء القذر الآن . لكن هذا بالتأكيـد لـم يكـن كـل شيء.ولعلها لم تكن تعنى كثيرا بالماء أو القدح بل ينبغي لها أن تفعل شيئا، أي شيء ، أن تخلص من أسر رقدتها علـى

الفراش ، أن تحطم سدا ، أن تغير الماء ، بالطبع ، في نهاية الأمر .

وعندما رفعت الكوب من حلقة النور ، أقفر العـالم المضيء فجأة من بؤرته ، واستمرت شمس مهجورة تسـطع في فراغ موحش .

وفتحت باب الغرفة ببطء ، وخرجت إلـى الفسـحة الضيقة ، بقدها الملفوف الضيق ، في العتمة الخفيفة . ودلفت إلى الحجرة الواحدة الأخرى من شقتهم الصـغيرة ، لتلقـي بالماء من شرفتها إلى الشارع .

ولم يخطر على ذهنها أن حوض المطبخ على قيـد خطوة ، بل كأنما كانت تريد أن تفتح لنفسها طاقـة ، علـى الشارع ، على الليل ، تحت السماء .

ثم وقفت فجأة أمام باب الشرفة المغلق ، وقد هـبط عليها شعور ممض مبهم ، في الظلمة الساكنة ، كأنه جـوع يناوش أطراف نفسها ، لكن ليس إلى الطعام ، ورأت الأثاث يجثم في الأركان ، ويقوم في وسط الغرفة ، كشواهد قبـور متصلبة مزلزلة تجمدت في انتصابات غير مألوفـة ، مائلـة ومتحجرة . وفي نفسها صراع غامض يتململ في قيوده .

وأرادت التخلص من هذا القلق ، علـى أي نحـو ، بسرعة . ففتحت باب الشرفة فجأة بحـدة ، بـرغم الليـل ، وأخوتها النائمين . الفرار الفرار . أن تخلص من هذا القلق. واضطرب شعرها وهي تهز رأسها في إنكار . كأنها ترفض أن تقبل هذا الضيق في قلبها . . تأبى أن تطاوع هذا الألـم في داخلها ، أو تهادنه . وأفلتت كلمات من شفتيها، متداغمة ، مضغوطة كمريض يئن لنفسه :

ـ وبعدين . . وبعدين . . وبعدين بقى يا ربي .

ثم انتبهت إلى حمقها . وحمـق إنكارهـا . ولكـن العذاب الداخلي تضاعف في نفسها ، يعتصـر أحشـاءها . فضحكت . ضحكت تلك الضحكة المرة الموجعة . في خفوت متوتر وعيناها تمتلئان بالدموع . وحاولت أن توقف ضحكتها فلم تستطع ، واستمرت تضحك وتنشج وهي تتوق لأن تترك هذا الجحيم يندفع ، أن تطلق له السراح ، تدعـه ينطلـق ، ينطلق ، أن تهشم بين أصابعها كل هذا ، كل شـيء . لكـن الوجع ظل يلتوي بأحشائها ، ويدها متقبضة علـى الكـوب الزجاجي ، ويدها الأخرى تتلمس جبهتها ، فـي الظلمـة ،

بضغط بطيء عنيف . وأصابعها تتخلل شعرها حتى الجذور في تشنج مكظوم .

بدت لها سخرية الأمر كله . وسخافته . كل هذا الألم الأحمق الذي لا معنى له . وهذه النار غير الصـافية التـي تتقاب وتلسع جدران قلبها ، بلا ضرورة . بلا ضرورة .

ـ سخف . سخف . عبط .

وضحكت مرة أخرى . ضـحكًا قصـيرا متقطعـا ممضا . وقطرة من الدمع تتدحرج من عينيها ببطء ، بالرغم منها .

أعليها وحدها أن تحيا مع هذا الألم ، وحـدها فـي أصفاد واحدة مع ألم حب متبط محبط؟ ألم كبرياء جريح؟ ألم الضياع والحيرة التي تفقد فيهـا نفسـها؟ بـين الصـرخات والنزوعات والأنقاض؟ لا تدري . لا تدري . ولا أحد يدري على الإطلاق . لا أحد يهتم . والنـار المسـجونة المحملـة بالتراب تتسع في داخلها ، وتعزف ، وتدوي . والألـم فـي أحشائها يتضاعف في كل لحظة ، وينقسم قطعانًا من العذاب وتتناثر في نفسها وتندفع فـي أرجائهـا. كـأرواح ضـالة ضارعة.

وسقطت على مقعد طويل بجنب الباب . ووضـعت القدح ـ دون أن تحس ـ على مائدة .

في نفسها كرب وشعور غامض يعنيها ، ويمت إلـى القلق المذنب الذي يتأتى عن فكرة جريمة ، ونوع من الأسف النادم المر أيضا . .

كانت قد فاجأت نفسها في يومها ذاك ، تفكر مـرارا فيما عرض لها .

ما الجدوى؟ لعل ذلك أحسـن الطـرق وأقصـرها أيضا . وأدارت بصرها بسأم في الغرفة المظلمـة ، تحـدق بنظرة لا مستقر لها . وليل الصيف الفسيح بعيد عنها ، وهي كأنها تخشاه الآن . وودت ـ تاقت بعنف ـ لو ترتمي على الأرض . لو تقذف بنفسها على الأرض الصلبة . لكي تبكي ، تذيب هذا الألم الناهش الذي يولد الآن من جديـد ، لكـي تبكي تصهر هذا الرصاص الثقيل الذي يملؤها ، لكي تبكـي تتقيأ ، حل هذه المرارة التي لا تطاق .

لكنها ظلت مرتمية على المقعد . مفككة الأوصـال ، تحدق أمامها والألم يعض في أعماقها بعناد .

ثم سقط في نفسها ، برحمة ، نوع من الملل ، نـوع من الضيق والاستسلام والضجر ، وهدأت قليلاً .

متى تنتهي إذن كل هذه المعاناة ، هذا الألـم الـذي يعيش من غذاء حياتها نفسه؟ وكيف – كيف – تنتهي؟ إنها لا تستطيع . لا تستطيع أن تتخلص من هذا التملـك العـذب الموجع الذي يأسر حياتها كلها في قبضته . ولا تسـتطيع أن تفعل شيئًا .

إنها تحبه ، نعم وحبها عميق يمـلأ شـعاب نفسـها جميعا ، كالبحر ، بجزر ومد من الحنـان ، وكـرم الهبـة والعطاء ، وشهوة التملك والاقتضاء جميعا . لكنه الثاني في الصف حتى الآن . وابتسمت ابتسامة مـرة ملويـة ، فهـل سيكون لها ثالث ورابع ، وصف طويل؟ بماذا يسمون البنات – البنات؟ – اللاتي يمر بهن مثل هذا الصف من الرجـال؟ نعم ، إن لهن اسما ، اسما قبيحا كل الناس تعرفـه . وهـل بوسعها أن تغمض عينيها وتسد أذنيها عن رنين الكلمة . . الكلمة التي تتردد في الظلام ، ولا تريد أن تسمعها مع ذلك ، لا تريد . . لا تريد .

وما جدوى ذلك كله؟ وما نهايته؟

مهين ومذل ، ولكنه هناك ، هـذا الحـب الممـزق السخيف. وسخرية وبلاهة بلا شك ، كل تلك الآلام ، لكنهـا ما تزال مع ذلك موجعة. موجعة.

وامتلأت نفسها بالمرارة . مـرارة السـخرية التـي تهرب إليها أخيرا ، دأبها ، فتلجأ إليها تحتمـي بهـا ، مـن جيوش الألم .

ولم تخرج إلى الشرفة . بل ذهبـت إلـى حـوض المطبخ.

وسقطت الفراشة من القدح إلى الحـوض ، كومـة مهيضة صغيرة من الماء اللزج ، مضغة ضئيلة كالعلقـة ، ذلك الكائن المرهف الذي دار حول شمسـه بعيـون لامعـة وأجنحة رفافة .

وعادت هدى إلى غرفتها ، والليل ما زال يملؤهـا ، يتململ كسجين متبرم .

***

الفراش واتسع وثير ، بأغطيتـه الناعمـة ، تحـت الحائط . والمساء يتسلل من خلف الستارة الشفافة ، ويشـيع في الغرفة الضيقة عتمة خفيفة . وخشب السـرير الموجنـه

الصقيل يلمع ، في الركن ، فـي غيـر وضـوح . وعلـى الجدران صور تمتد فيها آفاق الليل الغامضة .

وهي راقدة في العتمة الشـاحبة ، علـى بطنهـا ، وكتفاها العاريتان تشعان ببياضـهما الرخـامي فـي ضـوء المساء . وفيهما حزان رقيقان من اللحم من أثـر الحمـالات الحريرية الرفيعة . وشعرها الأسود الغزير منحـدر علـى ظهرها ، ووجهها مدفون في المخدة . وهي تحـس يسـري بجانبها على الفراش . تحس أنفاسه والوهج الـدافئ الـذي يصدر عن جسمه القوي ، والحنو الوادع . وتحبه تحبه .

ودفعت برأسها تدفن وجهها في المخدة أكثر ، بعنف وضيق . وتاقت إلى هذه الراحة المترفة لـو تسـتمر . كـم يشوقها لو أنها ظلت ، إلى الأبد ، في راحة هـذا الفـراش، راحة هذا الحلم الخصب .

ولم لا؟ لم لا تستمر؟ لم لا تغرق باستمرار في هـذه الأسطورة الناعمة؟ لم كان عليها أن تتحمل ، إلـى الأبـد، عبأها الخاص الثقيل؟

بل عليها أن تمضي في طريقها . أن تنفذ ما انتوته ، ما صممت عليه وهي تهمس لنفسها في إصرار ممض ، في عناد :

ـ لازم . لازم .

وتستمد من صوتها المدفون قوة جديدة . وتشعر معه بقليل من الراحة ، بشيء من الشجاعة .

وفتح عينيه في العتمة ، من نومته القصيرة الشبعانة ، ورأى كتفيها تلتمعان ، وشعرها الوحـف يغطـي رأسـها المدفون في المخدة ، ويتهدل على ككتفيها وعلى الفـراش ، فغمرت قلبه ، إذ يصحو ، رقة مرهفة حتى لتكـاد تؤلمـه ، وروحه ترتجف من المحبة ، فرفع نفسـه علـى مرفقيـه ، والتصق بها يبوسها في خدها ، وعنقها وكتفها ، كأنما مـن غير إدراك ، في ألم الحنان الذي في قلبه ، وهو يستنشـف جسدها المنصهر تحته ، وعبق شعرها الناعم الثقيـل الـذي يدغدغ صفحة وجهه ويثير شفتيه . ثم انحدر إلى جانبهـا ، وجهه إلى وجهها ، ويده تلعب في شعرها ، ووهـج حـار يحتضنهما معا ، وهج كنز لا ينتهي ، ويحس محبته تتجـدد

في رهافة ، ويحلم كيف سيجنيان الثمرة من جديد . كيف ـ وهي تقبل عليه حارة إليه ، كشمس الربيع .

أما هي فتجربتها تبتدئ وهي لصقه، والصراع فـي داخلها ينهض برأسه . . وهي تتوق ـ ولـو لحظـة ـ أن تفر . بعيدا بعيدا .

لكنه، هو، كان يعيش في حلمه. ويبتسم. وهـو فـي دخيلته، لا يرى شيئًا أمامه في مستقبل ما، وإنما يحيا، وهنا، وليس بمقدوره، في الواقع، أن يراها مرتبطة به طيلة الحياة، بل هي فترة سعيدة لا بد أن تنتهي بلا شك يوما يوما بعيـدا غامضا في مستقبل بعيد غامض.

وإعطاؤها نفسها له كأنما سلبها الحق، فـي عينيـه، دون أن يدري، من البيت والعائلة، إن كان لها الحق في يوم من الأيام. فمن هي في نهاية الأمـر؟ مـا مركزهـا؟ ومـا عائلتها؟ إنه حتى الآن لا يدري تماما، ولـم يهـتم أبـدا أن يعرف بالضبط. وإن كان لا شك أنها ليست مـن مسـتواه. لكنها أيضا ليست بالتأكيد صيدة عادية من النوع المـألوف.. على أنه لا يكاد يعطي لهذا كله أهميـة. بـل هـو يحبهـا، ويعترف لنفسه بذلك أيضا، ويفتقدها جدا. وثم جانب منها لم

يمتلكه ولم يعرف أن يصل إليه. كأنها تخفي عنه شيئًا من نفسها، أو من جسدها، وهي تثيره أبدا، وتشهيه في الحياة. بل الحياة لا تتصور الآن من غيرها.

وقد أثث لها هذه الشقة الصغيرة، لها وحدها. تأتيه كلما واتتهما الفرصة، ثم تمضي مسرعة، كأنما تتخطى الحدود بين عالمين متعاديين لا صلة بينهما. وتعود إلى بيتها، وحياتها الخاصة الغامضة، حتى يلتقيا مرة أخرى.

مخلصة بلا شك، وطيبة، وغريبة جدا، فلم تطلب منه، أبدا، شيئًا. ولم تشر إلى الزواج بكلمة، حتى لو كان زواجا عرفيا، ولو سألته لما اطمأن إلى نفسه كيف كانت تنهي المسألة. فلعله كان يرضى بكتابة عقد. لكنها لم تفعل.

وبنت واحدة في حياته كلها لم تلهمه بمثل الثقة التي تعمر نفسه بإزائها. الثقة في خلقها، نعم، وفي صدقها، والأمن والاطمئنان إلى حبها.

ومرت أمام عينيها، في أزمتها، هي، صور الأسابيع الفائتة. كيف كانا يرقصان معا، في الفيللا أحيانًا عند قاسم بيه. وفي الأماكن العامة، ثم في هذه الشقة. والنزهات والحفلات، والسهرات.

وطوال هذا الوقت كانت جريمتها تتضح، وتتكون.

إنها ـ هي ـ مجرد بائعة في محل تجاري، مجـرد عاملة، وعلاقتها السابقة بقاسم بيه؟ ها هـي ذي توشـك أن تصبح بائعة أيضا لشيء آخر، تبيع نفسـها، جسـمها علـى الأصح. بائعة من بائعات الهوى كما يقولون.. ماذا يسـمون البنات ، النساء.. اللاتي من نوعها؟ إنه اسم قبيح ذلك، كيف نسيت؟ بل كيف أمكن أن تحبه، وتنساق؟ الحب؟ أيمكـن أن يحيا الحب في هذا المناخ؟ بل أيوجد مثل هذا الحب أصـلاً؟ لا. بل تتربص به عين صاحية مفتوحة تحدق فيه، حتى تنقر في صلبه بؤرة عفنة لا بد أن تنفجر يوما، لتقذف بالنتن فـي كل اتجاه.

هو ـ بسيارته، وعائلته الكبيرة ومستقبله الباهر في الوزارة. وهي، عاملة، شيء صغير، ولها علاقـات سـابقة مريبة. علاقة واحدة على الأصح ما أهمية العدد؟ وماذا يقول الناس؟ ماذا يعتبرونها؟ أي اسم قبيح يسمونها به؟

أما قاسم بيه فقد أحس طعنة الافتراق عنها، في أول الأمر، وهو يراها تنساق في تيارها هذا الجديـد المكتسـح. كأنما هي كبرت ولم تعد طفلة بعد بل امرأة وجدت مليكهـا

ورجلها، ثم صمت الشيخ وأصابه يأس هادئ، ليس هو بالغريب عنه، وقبل، بل أوى إلى قبوله، ويأسه، كما لو كان يأوي إلى جدار قديم مألوف، يعالج في ظله، وحده، جراحا قديمة مألوفة.

وأما عائلة يسري فقد ترامى إليها بالطبع خبر علاقته بها. ولم تر فيها أول الأمر إلا نوعا من نزق الشباب المعتاد. وإن لم يكن يسري بعد في زهرة الشباب بالضبط، ولم يكن معتادا على النزق. لكن الأمر بدأ ينذر بالخطر، وهناك قريبته الغنية التي تموت حبا فيه، وأبوه محتاج إلى مثل هذا الصهر.

وحدثها قاسم بيه، أخيرا، عن هذه المتاعب كلها، في حيطة. كيف أن يسري يقاوم رغبة أبيه في إعلان الخطوبة. وكيف أنهم عرفوا كل شيء عنها. وإن كانوا لم يواجهوا يسري حتى الآن بشيء.

هل كان الشيخ ينتقم لنفسه؟ أم هو خلقه القانوني يضع عليه عبء هذا الواجب الذي قام به؟ لا يهم. وإنما لا شك أنه كان صادقًا، وأن الأمر أضحى الآن معقدا.

وتغيرت نغمة حبهما القصير الفرح، ورنت فيه أصداء أخرى ثقيلة.

وفي هذا المساء في آخر الصيف، جاءته في فستانها الأبيض الخفيف، وجلست إلى جواره أمام النافذة، في جو حرج مثقل باحتمالات غامضة. فأحاطها بذراعيه وقربها منه، وهي مستندة إليه، في آخر العصر، تحس في نفسها تململ العناصر المكبوحة، وتنظر إلى حمرة السماء المعلقة بين سطوح البيوت، وهي تعبث بطرف الستارة.

وأسقطت طرف الستارة من يدها فجأة، واختطفت يده اليمنى، كأنما من غير إرادة منها، ورفعتها إلى فمها، وقبلتها بشفتين مرتجفتين رقيقتين باهتتين. كأنها طفلة تستغفر من ذنب. ثم تركت يده، قبل أن ينتبه للأمر كله، فسقطت يده على حجرها، بثقل، بلحم وركها، من فوق الفستان الخفيف، وهي لم تستطع أن تفهم لماذا قبلت يده، ولماذا خجلت بعد ذلك من هذه القبلة. كانت قد أحست ثورة مستوفزة في أعماقها، وتلك القبلة ترتفع من داخلها إلى شفتيها دون أن تدرك تماما ما هي بسبيله.

وقد بوغت، وترك يده كأنها شيء غريب عنه، حتى سقطت على حجرها، ووجد يده على وركها، حميمة، مثيرة، فارتعد، وضمها إليه بعنف.

وأحست بين ذراعيه نوعا من الضيق المرهف، من السأم، بل من القسوة. فانتزعت نفسها من حضنه، واصطدمت بحرف المائدة الصغيرة، وأحست كدمة الخشب الصلب في جنبها. وسقطت منفضة السجائر على الأرض في جلبة وقرقعة.

فخافت، وكان المساء قد دخل، أحست نفسها وحيدة منعزلة بردانة، وذهبت إلى جانب السرير.

وسمع حفيف الحرير الناعم وهي تنضوه عنها بسرعة، ورأى التماع جسدها الغض في عتمة الغروب الأخيرة، وكنوزها الأنثوية المليئة بالسر.

كانت قد أعدت له نفسها، للمرة الأخيرة، كما تعد الضحية نفسها للذبيحة، بخشوع راض، بتسليم ديني. فقط، كان يترامى في نفسها حس اللذعة المرة، ووخزة من سخط.

أعليها أن تضحي بنفسها إذن، في سبيل مركزه ومستقبله وعائلته؟ أليست تضحي به أيضا؟

أم هي، في الحقيقة، تخشـى أن تفقـده، تخشـى ألا تستطيع الإبقاء عليه، ولذلك تضيعه، متعمدة؟ الإبقاء عليـه؟ فيم تفكر؟ كيف يمكن أن تبقي عليه هي؟ وماذا يهمهـا الآن من ذلك كله؟

وضحكت فجأة، بسخرية، مـن نفسـها، ضحـكتها القديمة المتوترة. وارتفعت يدها تضغط جبهتها فـي بـطء، فاعتدل جسمها الممشوق، أمامه، كغصن لدن مهتز بفاكهتـه، ونظر إليها في دهشة، من ضحـكتها، وحركتهـا البطيئـة المتألمة، ورأى في عينيها نظرة موجعة مثقلة عقدت لسـانه عن السؤال الذي كان يهم به، فصمت وخطا إليهـا منـدفعا، وأخفاها في حضنه يضمنها إليه، يريحها على صدره، وابتسم في حلم دمائه الذي يدور به الآن، ويتحقق. والتصـقت بـه وضغطت وجهها في وجد على كتفيه، وأحس وهو يحتضنها وثدياها ينضغطان على صدره النابض، أحـس فـي لمحـة خاطفة أنه يطوي بين ذراعيه شيئًا متناهي الرقة، شيئًا هشًـا ناعما شد ما يشفق أن يتحطم بين يديـه ويتهـاوى، قطعـا صغيرة منكسرة متفتتة. فكاد يفلتها، في خوفه عليهـا، مـن ذراعيه، ثم استدرك فاهتصرها إليه بعنف، بغير إرادة. كأنما

يخاف أن تهرب منه. حتى أوجعها، فأفلتت منهـا صـرخة صغيرة.

وهو الآن. والليل قد أقبل، يغطي كتفيها النـاعمتين بذراعه، في رضا وإصبعه تجري نازلة على الخـط الـذي يفصل بين شقي ظهرها البديع الطويل فتنقلب إليه، وصوتها يرتجف وهي تنادي، وتقبله، قبلات تعرف أنها أخيرة، قبلات خاطفة ملهوجة مسروعة . فيعرف وجهه في شعرها المتهدل الأثيث، وأنفاسه تهب سراعا.

رفعت رأسها فجأة. فارتفعت عنه الموجـة العطـرة اللذيذة من شعرها الذي كان يغمر وجهه. ثم دفنت وجهها بين صدره القوي الأشعر والفراش، كأنما لتريد أن تهرب منـه، إليه.

ونشقت ريح رجولته المألوفة، وكانت أزمتها تعنـف بها. وتجربتها، محنتها، مقبلة. لقد عقدت عزمها، لن تعـود إليه، ولا إلى الفيللا. عليها أن تقطع مرة واحدة خيوط كـل هذه الشرايين التي تصلها بدم الحياة نفسه. عليها أن تعود إلى عالمها الجاف، تعود، لتؤدي عملها فقط، كمن يقوم بسـخرة.

مكسورة الآن، لكن انهزامها على يدها وحدها. في ذلك نوع من النصر، من الظفر.

ألعلها هي التي أقفلت بنفسها كل النوافذ أمام نفسـها؟ أم هو مصيرها الذي لا محيد عنه: ألا تجد أبدا غير الخيبـة والحبوط، يموت أبوها في بكرة صباها، فكأنها فقدت حبهـا الأول والوحيد، وقد كانت أمها قد هجرت أسرتها الصـغيرة منذ سنوات، وانقطعت أخبارها، فكأنها ماتت، بل أسوأ. ثـم هي تحيا لكي تفقد دائما كل من تصبو إليه. وكل اختيار لهـا يقع مخفقًا غير موفق. أعليهـا إذن أن تحيـا دائمـا يتيمـة مهجورة؟ أم هي تؤثر اليتم، في دخيلتها، وتختار طائعة، كما لو كانت تطمئن إلى أحزانه المألوفـة، وتخشـى أن تواجـه الحياة، وحدها، بما تحمله من احتمالات آلام جديدة غريبة؟

وأثارتها الفكرة، أثارها الحرمان المفروض عليهـا، كأنه القدر لا يلين. أثارها أن تغتصب منها مادة الحياة نفسها، بسبب قسوة لا تعرف صاحبها. أثارها إلى حد التمرد، فدفنت رأسها بعنف على كتفه، وحاولت أن تكف دموعها قبـل أن تصل، أن تخنقها. فشهقت شهقتها المكتومة وجاءتها النوبـة القديمة، تنشج بتوتر وتململ، في ضيق. لكنه كـان يعـرف

حساسيتها، ويعرف بالخبرة ألا يسأل شيئًا، فلم يندهش، بـل أخذها إليه، يمر بيديه على شعرها كأنما ليسويه، فـي حنـو وحيرة، وشيء من الضيق أيضا، ويهمس لها مع ذلك بكلمات التدليل، وهي لا تسمع إلا نغمـة صـوته، دون أن تـدرك الكلمات.

بعد قليل يكونان غريبين، غريبين، تفصل بينهما هوة لا قرار لها. وعليها الآن أن تقفـز هـذه الهـوة. وذكـرت خطيبته، سوف يلجأ إليها لا شك، ليتعزى أولاً، ثم يألفها، وقد يحبها في نهاية الأمر، ويسوي شعرها، فيما بعد، بهذا الحنان العذب نفسه. وماذا في ذلك؟ إنه في النهاية، ليس لها، بل هو لخطيبته، وعائلته، ومستقبله. وليس للحب ـ ليس لحبهـا ـ بل لعمله، وقريبته وناسه.

وشردت خواطرها، وكأنها أغفت قليلاً، ومرت بهـا وجوه متداخلة. أخت يسري التي ترسل شعرها دائما، بشكل مضحك، وقاسم بيه، كأنه أبو يسري، على نحو مـا، وهـو يشور بيديه في غضب، دون صوت، ووجوه نـاس مثيـرة، ترقص وتضحك وتتلاشى.

والظلمة سائدة تماما. والهدوء. كم الساعة الآن؟ لعلها تأخرت على أخواتها، وهي تريد أن ترجع. أن ترجع البيت. إنها تريد أن تفعل شيئًا. البيت. أن ترجع ..

واعتدلت جالسة على الفراش، مغمضة العينين متعبة مهدودة، وفي داخلها دوار خفيف.

وتجسدت له في العتمة: ثدياها الثابتـان بطراوتهمـا وكتفها المدورة، وذراعاها الغضتان، وهذا البطن المسـتقيم يلفه طرف من ملاءة السرير، ويحبكه. مـا أجملهـا. لكـن شفتيها مضغوطتان في تصميم غريب، ويحوطهمـا شـيء حرج غامض ووجهها في الظلام، رخامي، قاس، في نـوع من الرهبة، نوع من الجلال.

وأحس أصابع مثلوجة تندفن في قلبه، بعيـدا، إلـى العمق. لكنه طرد إحساسه.

وتركته وعيناه تتعلقان بساقيها وظهرها إذ تنزل من الفراش، وسمعها ترتدي ملابسها في صمت فهتف فجأة، في قلق:

ـ هدى.

كأنما هي كلمة تحمل في طواياها كل حياتهما معـا. كلمة بوسعها أن تحيي وأن تميت. وأحست نفسها تموت. لكن صوتها خرج منها مع ذلك، خافتًا، مثقلاً، لا يحتمل:

ـ يسري ولع النور.

وسألها كأنه لا يصدق:

ـ نعم؟

وهو في الوقت نفسه يدلي قدميه من السرير.

ولم تر ضرورة، ولم تجد قـدرة، علـى أن تكـرر سؤالها، فظلت صامتة. وضاعف صمتها مـن ثقـل الجـو المرهف المتوتر. ومد يده نحو المصباح الأزرق الصـغير، فسمعت يديه ترتطمان بمنظارها الطبي فوق المائدة.

ـ لا يا يسري مش ده، النور الكبير.

وأراد أن يسألها لماذا؟ ما معنى هذا كله؟ كأنه يحس في طلبها معنى خفيا خاصا. لكن ثم ما عاقه عـن السـؤال، كأنه في حلم سيئ، يطيع قوة أكبر منه.

وسطع النور الكبير من الثريا المدلاة من السقف فملأ الغرفة وسقط على الستارة البيضاء وعلى صـور أشـجار الأروكاريا الصينية وجبال الألب المثلجة والبساط الأسيوطي

القاتم. ولمع السرير الموجنه المصقول في الضوء وانعكـس النور من ثيابها الناعمة وسطع على وجهها في ثبات، كأنـه جمد.

ووقف يسري، وقد ارتدى البيجامـة، مسـتندا إلـى السرير وهو يحس الملل والتوتر. ما معنى هذا كله؟

وأحست الضوء الناصع على وجهها، والدماء تتدافع إلى وجنتيها، كأنها خجلة، ورأت من خلال عينيها المطبقتين حلقات الدماء الملونة التي تدور في شرايين الجفن الدقيقة إذ يسطع عليها ضوء قوي، بعد الظلام. وكـان قلبهـا يخفـق بعنف. وكل شيء دماء قانية تدور بسرعة تحت أشعة النور الجامد. وومضت في ذهنها فكرة خاطفة، ماذا لو طلبت منه الآن إطفاء النور؟ ويعود كل شيء كما كان؟ وعبر الخـاطر ـ كما جاء ـ في سرعة. كلا. لو فعلت فقد ضاع كل شيء. يضيع هو وهي معا. ويفقد أحـدهما الآخـر فقـدا سـخيفًا متطاولاً، كمرض عضال لا برء منه، وسيفقد أحدهما الآخر، على كل حال. ستأتي أيام المرارة والنزاع، والتناوش المهين، والانتظار من جانبها لمواعيد لا تتحقق، والهرب من جانبـه بتعلات رثة النسيج، وليالي الأرق، ودموع الهزيمة. ويزداد

تعلقها به كلما زاد بعده عنها، نعم ـ فهكذا تجري الأمـور. إنها تعرف تماما ـ حتى يرثّ الحبل بينهما فـلا يتعلـق إلا بخيط بال واحد. يقطعه هو أخيرا في ملل، في قسوة، فإنـه سيكون عندئذ الأقوى. وينتهي النزع الطويل.

ولمه؟ لم نفخ الحياة في مخلوق بدأ الآن يدخل فيـه أول نفس من مرض الموت، مهما كان يبـدو فـي احتـدام شبابه. حبهما شيء مقضي عليه، من الآن. فالأجـدر بهـا، والأكرم والأسهل أيضا، بعد كل شيء، أن يقطع الآن، هـذا الحبل. أن تمضي ـ ومعها صورة من حبها، رائعة مشرقة، غير مريضة.

ـ يسري. هات لي النضارة.

واستدار في طاعة مستسلمة، وهو يعجب من نفسـه لهذا الخضوع. ورأى يدها مسترخية إلـى جانبهـا، طريـة ناعمة. كم ضمها إلى قلبه، هذه اليد، مرات لا عـدد لهـا. وأحس حنوا واثبا نحو هذه اليد الغضة العذبة، وآذاه قلبه من الرقة.

ـ هدى. جرى إيه؟ رايحة فين؟ مش تستني شوية.

وضعت منظارها على عينيها، على نظرة غريبة، كأنها حسمت شيئًا. كأنها انتهت الآن من ألم الولادة، من وجع الطلاق. فدهش وهتف:

ـ لا ماشية معلهش. مستعجلة النهارده فصمت لحظة وقال:

ـ ونشوفك إمتى؟

ـ حود علي عند قاسم بيه بكره. يمكن نروح مع بعض السينما من ستة عشان بيتعب من السهر. تحب تيجي معانا؟

في كلمات مبتذلة، وبكذبة تافهة، ينتهي كل شيء. فلن تعود. وستدبر أمرها. لن يجدها. ولن تعود.

وأراد أن يقول شيئًا، لكنه شعر بغرابة في نفسه كأنه يسبح في جو يعطل ذهنه. أراد أن يوقفها ـ إنها تمضي ـ أن يفعل شيئًا ما. لكن صوتها، ولهجتها، أوقفاه، لا يأتي حراكًا، لا سيطرة له على شيء.

أما هي فقد أدت حماقتها الصغيرة كما ينبغي. لقد انتهت من دورها هنا، كأنها نوع من غادة الكاميليا، نوع عصري. وابتسمت، ابتسامة مرة. أرجعته إذن لعائلته

وعمله، أنقذته دون أن يحس، بتضحية مضحكة لا قيمة لها. وأنقذت نفسها أيضا. لم يبق الآن إلا أن تدفن نفسها فـي أي مكان، في هذه المدينة الضخمة. تجد عملاً آخر إذا اقتضـى الأمر، فيما بعد. سوف تنتهي إلى أن تعثر على شيء. وتبدأ من جديد. أترجع للوحدة، والاختناق؟ أم تجد شـيئًا آخـر؟ سيان. إنها لا تعرف الآن. ولا تهتم. لا تهتم. حقًا.

ـ سعيدة يا يسري.

دون قبلة، دون نظرة، ودون أن تنتظر إجابة.

وعضت شفتيها وهي تخـرج، بسـرعة. مبغضـة لنفسها، تشعر بنفسها شائكة متصلبة، لم تقبله ولم تنظر إليه، كأنما تخشى أن تبكي، أو أن تعود.

وأحس فجأة بإقفار الغرفة منها. وبإقفار نفسـه مـن حياة حارة وغنية. وأراد أن يناديها، أن يسترجعها، أن يفهـم شيئًا. لكن اسمها انحبس في حلقه، كأن شعورا بالإثم يخنقه.

وأقفل الباب عليه بعنف، وترامى دوي صفقته فـي السكون الليلي. والنور الكبير يسقط الآن على فراغ.

كان غير مدرك تماما ماذا حدث. كأنما شل وعيـه فجأة، كأن النقلة من حلمه السلس إلى هذه اليقظة الساطعة قد

أوقفت مجرى الدماء في داخله، وخلته محجورا عليه، معتقلاً في عالم خاو نضبت عصارته.

وكان النور ينصب من نافذة الغرفة علـى الشـارع النائم، كأنه يفلت من سجن مضيء ساكت، ما زالت تدور فيه حكاية صغيرة غير مهمة.

وعندما خرجت من الباب، وعبث هواء الليل الصيفي بثيابها البيضاء، كانت تبدو كأنما تفقد نصاعتها، ونفحة الليل تذبلها، وكأنما تميتها، وهي تَنْصب الآن في المدينة الكبيـرة، مضغة مهيضة لا حياة فيها. وفي الشارع نور باهت ميـت من القمر.